http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42)

يقول سبحانه : { إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ . . . } [العنكبوت : 42] لأنهم حين ضُيِّق عليهم الخناق قالوا : نحن لا نعبد الأصنام ، إنما نعبد الكواكب التي تُسيِّر هذه الأصنام أو الملائكة ، فردَّ الله عليهم : { مِن شَيْءٍ . . . } [العنكبوت : 42] للتقليل ، كأنَّ ما يدعونه من دونه لا يُعَد شيئاً ، أو هو أتفه من أن يكون شيئاً ، أو يعلم سبحانه ما يدعون من دونه من أي شيء .

أو أن يعلم سبحانه ما يدعون من دونه من أي شيء .

أو أن (شيء) من قولنا : شاء يشاء شيئاً ، فالشيء ما يُراد من الغير أنْ يفعله ، والذي شاء هو الله تعالى ، وكأنهم يعبدون الشيء ويتركون خالقه ، وهو الأحقُّ بالعبادة سبحانه ، فماذا جرى لكم؟! تعبدون المخلوق وتتركون الخالق ، وبعد أن كرمكم الله تهينون أنفسكم ، وترضون لها الدون ، حيث تعبدون ما هو أقلّ منكم مرتبةَ في الخَلْق ، والأصنام جمادات ، وهي أدنى أجناس الوجود .

ثم يقول سبحانه : { وَهُوَ العزيز الحكيم } [العنكبوت : 42] العزيز الذي يَغْلب ، ولا يُغلب ، وهو الحكيم في كُلِّ ما قضى وأمر .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا . . . } .

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43)

فمَنْ يسمع المثل من الله تعالى ثم لا يعقله فليس بعالم؛ لذلك ليسوا علماء الذين اعترضوا على قوله تعالى : { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : 26] حيث استقلُّوا البعوضة ، ورأوها لا تستحق أنْ تُضرب مثلاً .

ونقول لهم : أنتم لستم عاقلين ولا عالمين بدقة المثل ، واقرأوا : { إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . . . } [الحج : 73] بل وأكثر من ذلك : { وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ . . . } [الحج : 73] .

دَعْك من مسألة الخَلْق ، وتعالَ إلى أبسط شيء في حركة حياتنا إذا وقع الذباب على طعامك ، فأخذ منه شيئاً أتستطيع أن تسترده منه مهما أُوتيتَ من القوة والجبروت؟

إذن : فالذبابة ليست شيئاً تافهاً كما تظنون ، بل واقلّ منها الناموس (والميكروب) وغيره مما لا يُرَى بالعين المجردة مخلوقات لله ، فيها أسرار تدلُّ على قدرته تعالى .

كما قال سبحانه : { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : 26] أي : ما فوقها في الصِّغَر ، ولك أن تتأمل البعوضة ، وهي أقلّ حجماً من الذباب ، وكيف أن لها خرطوماً دقيقاً ينفذ من الجلد ، ويمتصّ الدم الذي لا تستطيع أنت إخراجه إلا بصعوبة ، (والميكروب) الذي لا تراه بعينك المجردة ومع ذلك يتسلل إلى الجسم فيمرضه ، ويهدّ كيانه ، وربما انتهى به إلى الموت .

إذن : ففي هذه المخلوقات الحقيرة في نظرك عبر وآيات ، لكن لا يعقلها إلا العالمون ، ومعظم هذه الآيات والأسرار اكتشفها غير مؤمنين بالله ، فكان منهم مَنْ عقلها فآمن ، ومَنْ لم يعقلها فظلَّ على كفره على أنه أَوْلَى الناس بالإيمان بالله؛ لأن لديه من العلم ما يكتشف به أسرار الخالق في الخَلْق . لذلك جاء في الأثر : « العالم الحق هو الذي يعلم مَنْ خلقه ، ولِمَ خلقه » .

ثم يقول الحق سبحانه : { خَلَقَ الله السماوات . . . } .

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

أراد الحق سبحانه أن يبرهن لنا على طلاقة قدرته تعالى ، فقال : { خَلَقَ الله السماوات والأرض بالحق . . . } [العنكبوت : 44] والخَلْق : إيجاد المعدوم ، لكن الغرض مخصوص ، ولمهمة يؤديها ، فإنْ خلقت شيئاً هكذا كما اتفق دون هدف منه فلا يُعَد خلقاً .

ومسألة الخَلْق هذه هي الوحيدة أقرَّ الكفار بها لله تعالى ، فلما سألهم : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله . . . } [لقمان : 25] فلماذا أقرُّوا بهذه بالذات؟ ولماذا ألجمتهم؟

هذا ليس عجيباً منهم؛ لأننا نشاهد كل مَنْ يأتي بجديد في الكون حريصاً على أنْ ينسبه لنفسه ، وعلى أنْ يُبيّن للناس مجهوداته وخبراته ، وأنه اخترع كذا أو اكتشف كذا ، كالذي اكتشف الكهرباء أو اخترع (التليفون أو التليفزيون) .

ما زِلْنا حتى الآن نذكر أن قانون الطفو لأرشميدس ، وقانون الجاذبية لنيوتن ، والناس تسجل الآن براءات الاختراع حتى لا يسرق أحد مجهودات أحد ، ولتحفظ لأصحاب التفوق العقلي والعبقري ثمرة عبقريتهم .

وكذلك كان العرب قديماً يذكرون لصاحب الفضل فَضلْه ، حتى إنهم يقولون : فلان أول مَنْ قال مثلاً : أما بعد . وفلان أول من فعل كذا .

إذن : فنحن نعرف الأوائل في كل المجالات ، وننسب كل صنعة وكل اختراع واكتشاف إلى صاحبه ، بل ونُخلِّد ذكراه ، ونقيم له تمثالاً . . إلخ .

إذن : فما بالك بالخالق الأعظم سبحانه الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما ، أليس من حقه أن يعلن عن نفسه؟ أليس من حقه على عباده أن يعترفوا له بالخَلْق؟ خاصة وأن خَلْق السماوات والأرض لم يدَّعه أحد لنفسه ، ولم ينازع الحق فيه منازع ، ثم جاءنا رسول من عند الله تعالى يخبرنا بهذه الحقيقة ، فلم يوجد معارض لها ، والقضية تثبُت لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وقد مثَّلنا لهذه المسألة – ولله المثل الأعلى – بجماعة جلسوا في مجلس ، فلما انفضَّ جمعهم وجد صاحب البيت محفظة نقود لواحد منهم ، فسألهم : لمن هذه المحفظة؟ فقالوا جميعاً : ليست لي إلا واحد منهم قال : هي محفظتي ، فهل يشكُّ صاحب البيت أنها لمن ادَّعاها؟

ولك أنْ تسأل : ما دام الحق سألهم { مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض . . . } [لقمان : 25] فقالوا (الله) فلماذا يذكر الله هذه القضية؟ قالوا : الحق – تبارك وتعالى – لا يريد بهذه الآية أن يخبرنا أنه خالق السماوات والأرض ، إنما يريد أن يخبرنا أن خَلْق السماوات والأرض بالحق ، والحق : الشيء الثابت الذي لا يتغير مع الحكمة المترتبة على كل شيء في الوجود ، فإذا نظرنا إلى خَلْق السماوات والأرض لوجدناه ثابتاً لم يتغير شيء فيه .

لذلك يقول سبحانه : { لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . } [غافر : 57] . فالسماوات والأرض خَلْق هائل عظيم ، بحيث لو قارنته بخَلْق الإنسان لكان خَلْق الإنسان أهون . وانظر مثلاً في عمر السماوات والأرض وفي عمر الإنسان : أطول أعمار البشر التي نعلمها حتى الآن عمر نوح عليه السلام ، وبعد هذا العمر الذي نراه طويلاً انتهى إلى الموت ، فعمر الإنسان معلوم يكون سنة واحدة ، أو ألف سنة لكن لا بُدَّ أن يموت .

أما السماوات والأرض وما فيها من مخلوقات إنما خُلقت لخدمة الإنسان ، فالخادم عمره أطول من المخدوم ، فالشمس مثلاً خلقها الله تعالى من ملايين السنين ، ومازالت كما هي لم تتغير ، ولم تتخلف عن مهمتها ، وكذلك القمر : { الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ } [الرحمن : 5] .

أي : بحساب دقيق؛ لذلك يقولون : سيحدث كسوف مثلاً أو خسوف يوم كذا الساعة كذا ، وفي نفس الوقت يحدث فعلاً كسوف للشمس أو خسوف للقمر مما يدلّ على أنهما خُلِقا بحساب بديع دقيق ، ويكفي أننا نضبط على الشمس مثلاً ساعاتنا ، ومع ما عُرِف عن الشمس والقمر ، من كِبَر حجمهما ، فإنهما يسيران في مسارات وأفلاك دون صدام ، كما قال تعالى : { كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [الأنبياء : 33] .

هذا كله من معنى خَلْق السماوات والأرض بالحق . أي : بنظام ثابت دقيق منضبط لا يتغير ولا

يتخلف في كُلِّ مظاهره ، فأنت أيها الإنسان يمكن أنْ تتغير؛ لأن الله جعل لك اختياراً فتستطيع أن تطيع أو أن تعصي ، تؤمن أو والعياذ بالله تكفر ، لكن خَلْق السماوات والأرض جاء على هيئة القهر والتسخير ، وإن كانت مختارة بالقانون العام والاختيار الأول ، حيث قال تعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72] .

إذن : خُيِّرت فاختارت ألاَّ تختار ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها .

ثم يقول سبحانه : { إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ } [العنكبوت : 44] لماذا قال (للمؤمنين) مع أنها آية للناس جميعاً؟ وسبق أنْ خاطب الله الكافرين { مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض . . . } [لقمان : 25] فلماذا خصَّ هنا المؤمنين دون الكافرين؟

قالوا : هناك فَرْق بين خَلْق السماوات والأرض ، وبين كَوْنها مخلوقة بالحق ، فالجميع يؤمن بأنها مخلوقة ، لكن المؤمنين فقط هم الذين يعرفون أنها مخلوقة بالحق .

يقول الحق سبحانه : { اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب . . . } .

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)

بعد أن ذكر الله تعالى بعض مواكب الرسل في إبراهيم وفي موسى ونوح وصالح وهود ولوط وفي شعيب ، ثم تكلَّم سبحانه عن الذين كذبوا هؤلاء الرسل { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ . . . } [العنكبوت : 40] أراد سبحانه أن يُسلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يزعجه ، ولا يرهقه ، أو يتعب نفسه موقف الكافرين به الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقفون من الدعوة موقف العداء .

فقال له مُسلِّياً : { اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب . . . } [العنكبوت : 45] يعني : لِمَ تحزن يا محمد ومعك الأُنْس كله ، الأُنْس الذي لا ينقضي ، وهو كتاب الله ومعجزته التي أنزلها إليك ، فاشتغل به ، فمع كل تلاوة له ستجد سكناً إلى ربك .

وإذا كان هؤلاء الذين عاصروك لم يؤمنوا به ، ولم يلتفتوا إلى مواطن الإعجاز فيه فداوم أنت على تلاوته عَلَّ الله يأتي من هؤلاء بذرية تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السماء ، فيؤمنون بما جحده هؤلاء ، والأمر بالتلاوة لبقاء المعجزة .

{ اتل . . . } [العنكبوت : 45] اقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوة لنفسك؛ لأن الذي يرسل رسولاً من البشر بشيء أو في أمر من الأمور ، ثم يكذب يرجع إلى مَنْ أرسله ، فما دام قومك قد كذَّبوك ، فارجع إليَّ بأن تستمع إلى كتابي الذي أنزلتُه معجزة لك تؤيدك ، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله ، فيصادف منهم قلوباً صافية ، فيؤمنون به .

وفَرْق بين الفاعل والقابل ، والقرآن يُوضّح هذه المسألة ، فمن الناس مَنْ إذا سمعوا القرآن تخشع له قلوبهم ، وتقشعر جلودهم ، ومنهم مَنْ إذا سمعوه قالوا على سبيل الاستهزاء { مَاذَا قَالَ آنِفاً . . . } [محمد : 16] تهويناً من شأن القرآن ، ومن شأن رسول الله .

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة : { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . . } [فصلت : 44] .

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المستقبل للقرآن مختلف ، فالعبرة في صفاء الاستقبال لأن الإرسال واحد ، وهل تتهم الإذاعة إنْ كان جهار (الراديو) عندك معطلاً ، لا يستقبل إرسالها؟

كذلك مَنْ أراد أن يستقبل إرسال السماء فعليه أنْ يُعِد الأذن الواعية والقلب الصافي غير المشوش بما يخالف إرسال السماء ، عليك أنْ تُخرِج ما في نفسك أولاً من أضداد للقرآن ، ثم تستقبل كلام الله وتنفعل به .

وسبق أنْ مثَّلْنا لاختلاف المنفعل للفعل بمَنْ ينفخ في يده وقت البرد بقصد التدفئة ، وبمَنْ ينفخ بنفَسه في الشاي مثلاً ليبرده ، فهذه للحرارة ، وهذه للبرودة ، الفعل واحد ، لكن المنفعل مختلف .

فقوله تعالى : { اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب . . . } [العنكبوت : 45] هذه هي مَيْزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تكرّرها في كل وقت ، وأن تتلوها كما تشاء ، وأن يتلوها بعدك مَنْ سمعها ، وستظل تتردد إلى يوم القيامة .

أما معجزات الرسل السابقين فكانت خاصة بمَنْ شاهد المعجزة ، فإذا مات مَنْ شهدها فلا يعرفها أحد بعدهم حتى لو كان معاصراً لها ولم يَرَهَا ، فالذين عاصروا مثلاً انقلاب عصا موسى حية ولم يشاهدوا هذا الموقف ، ماذا عندهم من هذه المعجزة؟ لا شيء إلا أننا نُصدِّقها ونؤمن بها؛ لأن القرآن أخبرنا بها .

إذن : فمعجزات السابقين تأتي كلقطة واحدة أشبه ما تكون بعود الكبريت الذي يشتعل مرة واحدة ، رآها مَنْ رآها وتنتهي المسألة ، ولكن القرآن حدثنا بكل معجزات الرسل السابقين فانظر إذن ما أصاب الرسل جميعاً من خيرات سيدنا رسول الله ، وكيف خَلَّد القرآن ذكرهم ، وامتدت معجزاتهم بامتداد معجزته .

فكأن القرآن أسدى الجميل إلى كل الرسل ، وإلى كل المعجزات؛ لذلك قال تعالى عن القرآن : { وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ . . . } [المائدة : 48] .

ثم يقول سبحانه : { وَأَقِمِ الصلاة . . . } [العنكبوت : 45] وملعوم أن اتْلُ : التلاوة قَوْل من فعل اللسان و { وَأَقِمِ . . . } [العنكبوت : 45] من فعل الجوارح ، والإنسان له جوارح

متعددة اشتهر منها خمس هي : العين للإبصار ، والأذن للسمع ، والأنف للشم ، واللسان للتذوق ، والأنامل للَّمس .

فقالوا على سبيل الاحتياط : الجوارح الخمسة الظاهرة وقد ظهر فعلاً مع تقدُّم العلوم اكتشفوا في الإنسان حواسَّ أخرى ووسائلَ إدراك لم تُعرف من قبل ، كحاسة العضل التي تزن بها ثقل الأشياء ، وإلا فبأيّ حاسة من حواسِّك الخمسة تعرف الثقل قبل أن ترفع الشيء من على الأرض؟

وكحاسة البَيْن ، والتي بها تستطيع أنْ تُمَيِّز بين سُمْك الأشياء بين أناملك ، فحين تذهب مثلاً إلى تاجر الأقمشة ، فتتناول القماش بين أناملك و (تفركه) برفق ، فتستطيع أن تعرف أن هذا أَسْمَك من هذا .

ومن عجيب الأمر في مسألة الجوارح أن يأخذ اللسان شطر الجوارح كلها ، ففعل الحواس الخمسة يسمى عملاً ، والعمل ينقسم : إما قول ، وإما فعل . فكل تحريك لجارحة لتؤدي مهمة يسمى عملاً ، لكن عمل اللسان يسمى قولاً ، أما من بقية الجوارح فيسمى فعلاً .

فأخذ اللسان هذه المكانة؛ لأن به الإنذار من الحق ، وبه التبشير ، وبه البلاغ من الرسول؛ لذلك يقول الحق سبحانه : { يأيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : 2] .

ولم يقل : ما لا تعملون . لأن القول يقابله الفعل ، وهُما معاً عمل ، والعمل بنية القلب .

لكن ، لماذا اختار الصلاة من بين أعمال الجوارح؟ قالوا : لأنها قمة العمل كما سماها النبي صلى الله عليه وسلم : « الصلاة عماد الدين » وبها نُفرِّق بين المؤمن والكافر . ويبقى السؤال : لماذا أخذتْ الصلاة هذه المكانة من بين أركان الإسلام؟

ونحب أنْ نشير هنا إلى أن خصوم الإسلام وبعض أهله الذين يخافون من بعثه أنْ يقضي على سلطتهم وطُغْيانهم وجبروتهم يريدون حَصْر الإسلام في أركانه الخمسة ، فإنْ قُلْت بهذه المقولة لا يتعرضون لك ، وأنت حر في إطار أركان الإسلام هذه ، لكن إياك أن تقول : إن الإسلام جاء ليُنظِّم حركة الحياة؛ لأن حظهم في حَصْر الإسلام في أركانه فقط .

وما فَهم هؤلاء أن الأركان ليست هي كل الإسلام ، إنما هي أسُسه وقواعده التي يقوم عليها بناؤه ، لكنهم يريدون أنْ يعزلوا الإسلام عن حركة الحياة . فنقول لهم : نعم ، هذه أركان الإسلام ، أمَّا الإسلام فيشمل كل شيء في حياتنا ، بداية من قمة العقيدة في قولنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق؛ لأن الإسلام دين يستوعب كل أقضية الحياة ، كيف لا وهو يُعلِّمنا أبسط الأشياء في حياتنا .

ألاَ تراه يهتم بأحكام قضاء الحاجة ودخول الخلاء ، وما يتعلق به من آداب وأحكام؟ أَلاَ ترى أن صاحب الحِسْبة المكلَّف بمراقبة الأسواق ، وتنفيذ أحكام منهج الله في الأرض إذا رأى جزاراً ينفخ ذبيحته بفمه يقوم بإعدام هذه الذبيحة؛ لأن الهواء المستخدم في نفخها هواء غير صحي ، فهو

زفير مُحمَّل بثاني أكسيد الكربون ، وقد يحمل غازات أخرى ضارة لا بُدَّ أنْ تنتقل إلى لحم الذبيحة؟

كما أن من مهمته أن يمر بالحلاقين ، ويتفقد مدى نظافتهم وسلامتهم من الأمراض ، وإذا اشتم من أحدهم رائحة ثوم أو بصل مثلاً أمره بإغلاق محله ، وعدم العمل في هذا اليوم حتى لا يتأذى الناس برائحته .

فأيُّ شرع هذا الذي يحافظ على سلامة الناس ومشاعرهم إلى هذا الحدِّ؟ إنه دين الله ومنهجه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة في حركة الحياة إلا ووضع لها أحكاماً وآداباً . أمِثْل هذا الشرع يُعزل عن حركة الحياة ويُقيّد وينحصر في مسائل العبادات وحدها؟

إنك حين تنظر إلى متاعب العالم المتخلف الآن – دَعْك من العالم المتقدم – ستجد أن متاعبه اقتصادية ، ولو تقصيْتَ الأسباب لوجدتها تعود إلى التخلي عن منهج الله وتعطيل أحكامه ، ووالله لو أنهم أخذوا في أزمتهم الاقتصادية بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

لو عملوا بهذا وتأدَّبوا بأدب رسولهم لخرجوا من هذه الأزمة ، وتقلَّبوا في رَغَد من العيش ، إنك لو تحليْتَ بهذا الأدب في مسألة الطعام والشراب لكفتْك اللقمة واللقمتان ، وأشهى الطعام ما كان بعد جوع مهما كان بسيطاً .

أما الآن ، فنرى الناس يلجئون إلى المشهِّيات قبل الطعام ، وإلى المهضِمات بعده ، لماذا؟ لأنهم خالفوا هَدْي رسولهم صلى الله عليه وسلم ، فهم يأكلون على شِبَع ، ويأكلون بعد الشِّبَع .

والحق – تبارك وتعالى – يقول : { وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا . . . } [الأعراف : 31] وأُثِر عن العرب الذين عاشوا في شظف من العيش : نِعمْ الإدام الجوع . نعم إنه (الغموس) الحقيقي ، والمشهِّي الأول .

نعود إلى مكانة الصلاة بين العبادات ، ولماذا كانت هي عماد الدين ، ومعنى : « الصلاة عماد الدين » و « بُنِي الإسلام على خمس »

أن الدين أشياء أخرى ، وهذه هي أُسُسه وقواعده ، وحين نتتبع هذه القواعد نجد أن الركن الأول ، وهو أشهد ألاّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله يمكن أن أقولها ولو مرة واحدة ، أما الزكاة فلا تجب مثلاً على الفقير فلا يزكي ، وكذلك المريض لا يصوم ، والمسافر والحائض . . إلخ ، وكذلك الحج غير واجب إلا على المستطيع .

إذن : ما هو الركن الثابت الذي يلازم كل مسلم ، ولا يسقط عنه بحال؟ إنها الصلاة؛ لذلك أخذتْ مساحة كبيرة من الوقت على مدى اليوم والليلة ، وبها يكون إعلان الولاء الدائم لله تعالى ، وبها تفرق بين المؤمن وغير المؤمن ، فإنْ رأيتَ شخصاً مثلاً لا يصوم أو لا يزكي أو لا

يحج ، فلك أنْ تقول ربما يكون من أصحاب الأعذار ، ومن غير القادرين ، لكن حين ترى شخصاً لا يُصلِّي ، وقد تكرَّر منه ذلك فإنك لا بُدَّ شاكّ في إسلامه .

لذلك استحقت الصلاة هذه المكانة بين سائر العبادات منذ بدايات التشريع ، ألا ترى أن كل فرائض الدين شُرعت بالوحي إلا الصلاة ، فقد شُرعت بالخطاب المباشر من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ، برئيس العمل الذي يُصدر أوامره بوسائل مختلفة حَسْب أهمية المأمور به ، فقد يكتفي بأن (يُؤشر) على ورقة ، وقد يُوصي بها ، أو يطلب الموظف المختص فيُحدِّثه (بالتليفون) ، فإنْ كان الأمر هاماً استدعاه شرطياً إلى مكتبه وكلَّفه بما يريد .

وكان هذا الاستدعاء تشريفاً لسيدنا رسول الله بقرب المرسل من المرسل ، فأراد الحق – سبحانه وتعالى – ألاَّ يحرم أمه محمد فضل أسبغه على محمد فكأنه قال : مَنْ أراد من عبادي أنْ يقرب من كما قرب محمد فكان قاب قوسين أو أدنى فليُصلِّ .

ومعنى { وَأَقِمِ الصلاة . . . } [العنكبوت : 45] إقامة الشيء : أداؤه على الوجه الأكمل الذي يؤدي غايته ، فالصلاة المطلوبة هي الصلاة المستوفاة الشروط والتي تقيمها كما يريدها مُشرِّعها { إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر . . . } [العنكبوت : 45] .

والصلاة إذا استوفتْ شروطها نهتْ صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإذا رأيتَ صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فاعلم أنها ناقصة عما أراده الله لإقامتها ، وعلى قَدْر النقص تكون ثمرة الصلاة في سلوك صاحبها ، وكأن وقوعك في بعض الفحشاء وفي بعض المنكر يُعَدُّ مؤشراً دقيقاً لمدى إتقانك لصلاتك وحرصك على تمامها وإقامتها .

ومعنى { إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر . . . } [العنكبوت : 45] واضح في قول النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له : « يا رسول الله ، إن فلاناً يصلي ، لكن صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، فقال : » دعوه ، فإن صلاته تنهاه « » .

فالمعنى هنا أن الأمر ليس أمراً كونياً ثابتاً لا يتخلف ، بل هو أمر تشريعي عُرْضة لأنْ يُطاع ، وعُرْضة لأنْ يُعصى ، فلو كان الأمر كونياً ما جرؤ صاحب صلاة عل الفحشاء والمنكر ، ومثال ذلك أن أقول مثلاً لأولادي قبل أن أموت : يا أولادي ، هذا بيت يكرم مَنْ يدخله .

كلام على سبيل الخبر ولم أقل : أكرموا مَنْ يدخله ، فالذي يحترم وصيتي منهم يكرم مَنْ يدخل بيتي من بعدي ، والذي لا يحترم الوصية لا يُكرم مَنْ يدخله . أما لو قلت : أكرموا مَنْ يدخل هذا البيت فقد ألزمتَ الجميع بالإكرام .

وأوضح من هذا قوله تعالى في شأن المسجد الحرام : { وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . . } [آل عمران

: 97] فلما حدث أن اقتحمه بعض أصحاب الأهواء ، وأطلقوا النار في ساحاته ، وقتلوا فيه الآمنين قامتْ ضجة كبيرة تُشكِّك في هذه الآية : كيف يحدث هذا والله يقول { وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . . } [آل عمران : 97] فأقاموا هذه الأحداث دليلاً على كذب الآية والعياذ بالله .

وهذا المسلك منهم يأتي عن عدم فهم لمعنى الأمر الكوني والأمر التشريعي ، فقوله تعالى : { وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . . } [آل عمران : 97] أمر تشريعي قابلٌ لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصي ، كأن الحق – سبحانه وتعالى – قال : أَمِّنُوا مَنْ دخل البيت ، فبعض الناس امتثل للأمر ، فأمَّن مَنْ في البيت الحرام ، وبعضهم عصى فروَّع الناس ، وقتلهم في ساحته ، ولو كان أمراً كونياً ما تخلَّف أبداً كما لو تتخلف الشمس مثلاً يوماً من الأيام .

وكذلك الأمر في { إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر . . . } [العنكبوت : 45] فالصلاة تشريع من الله ، فإذا كان الله تعالى هو المشرِّع ، وقال : { إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر . . . } [النحل : 90] يعني : لا يوجد معها فحشاء ولا منكر ، وهذا أيضاً صحيح؛ لأنني حين أدخل في الصلاة بتكبيرة الإحرام فإن هذه التكبيرة تحرم عليَّ كل ما كان حلالاً لي قبل الصلاة ، ففي الصلاة مثلاً لا آكل ولا أشرب ولا أتحرك ، مع أن هذه المسائل كانت حلالاً قبل الصلاة ، فما بالك بما كان حراماً عليك أصلاً قبل الصلاة؟ إذن : فهو حرام من باب أَوْلَى .

فالصلاة بهذا المعنى تمنعك من الفحشاء والمنكر في وقتها؛ لأن تكبيرة الإحرام (الله أكبر) تعني أن الله أكبر من كل شيء في الوجود حتى من شهوات النفس ونزواتها ، وإلاَّ فكيف تقيم نفسك بين يدي ربك ، ثم تخالف منهجه؟ فالصلاة بهذا المعنى تنهى على حقيقتها عن الفحشاء والمنكر .

ومعنى (الفَحْشَاء) كل ما يُسْتفحش من الأقوال والأفعال (والمنكَر) كل شيء يُنكره الطبع السليم { وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ . . . } [العنكبوت : 45] ذكر : مصدر ، والمصدر يُضاف للفاعل مثل : أعجبني ضَرْب الأمير لزيد ، ويُضاف للمفعول مثل : أعجبني ضرَبْ زيد من الأمير ، فحين تقول ذكر الله يصح أن يكون المعنى : ذِكْر صادر من الله ، أو ذِكْر صادر من العبد لله .

فإنْ قلتَ : ذِكْر صادر من الله ، أي للمصلِّي ، فحين يصلي الإنسان ، ويذكر الله بالكبرياء في قوله الله أكبر ويُنزِّهه بقول سبحان الله ، ويسجد له سبحانه ويخضع ، فقد فعلتَ إذن فِعْلاً ذكرتَ الله فيه ذِكْراً بالقول والفعل ، والله تعالى يجازيك بذكرك له بأن يذكرك ، فالذكر ذكر من الله لمن ذكره في صلاته .

ولا شكَّ أن ذكر الله لك أكبر ، وأعظم من ذِكْرك له سبحانه؛ لأنك ذكرتَ الله منذ بلوغك إلى أن تموت ، أما هو سبحانه فسيعطيك بذكرك له منازل عالية لا نهايةَ لها في يوم لا تموت فيه ولا

تنقطع عنك نِعَمه وآلاؤه ، فالمعنى : ولذِكر الله لك بالثواب والرحمة أكبر من ذِكْركَ له بالطاعة .
هذا على معنى أن الذكر صادر من الله للعبد .
المعنى الآخر أن يكون الذكْر صادراً من العبد لله ، يعني : ولذكْر الله خارج الصلاة أكبر من ذِكْر الله في الصلاة ، كيف؟ قالوا : لأنك في الصلاة تُعِد نفسك لها بالوضوء ، وتتهيأ لها لتكون في حضرة ربك بعد تكبيرة الإحرام ، فإذا ما انتهتْ الصلاة وخرجتَ منها إلى حركة الحياة فذِكْرك لله وأنت بعيد عن حضرته وأنت مشغول بحركة حياتك أعظم وأكبر من ذِكْرك في الحضرة .
ومثال ذلك – ولله تعالى المثل الأعلى – مَنْ يمدح الأمير ويُثني عليه في حضرته ، ومَنْ يمدحه في غيبته ، فأيُّهما أحلى ، وأيُّهما أبلغ وأصدق في الذكْر؟
واقرأ في ذلك قوله تعالى عن صلاة الجمعة : { يأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله . . . } [الجمعة : 9] .
يعني : ذِكْر الله في الصلاة ، ولا تظنوا أن الذكْر قاصر على الصلاة فقد إنما : { فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الجمعة : 10] فيجب ألاَّ يغيب ذِكْر الله عن بالك أبداً؛ لأن ذِكْرك لربك خارج الصلاة أكبر من ذِكْرك له سبحانه في الصلاة .
ورُوِي عن عطاء بن السائب أن ابن عباس سأل عبد الله بن ربيعة : ما تقول في قوله تعالى : { وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ . . . } [العنكبوت : 45] ؟ فقال : قراءة القرآن حَسَن ، والصلاة حسن ، وتسبيح الله حسن ، وتحميده حسن ، وتكبيره حسن التهليل له حسن . لكن أحسن من ذلك أن يكون ذِكْر الله عند طروق المعصية على الإنسان ، فيذكر ربه ، فيمتنع عن معصيته .
فماذا قال ابن عباس – مع أن هذا القول مخالف لقوله في الآية –؟ قال : عجيب والله ، فأعجب بقول ابن ربيعة ، وبارك فهمه للآية ، ولم ينكر عليه اجتهاده؛ لأن الإنسانَ طبيعي أن يذكر الله في حال الطاعة ، فهو متهيئ للذكْر ، أما أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع عنها ، فهذا أقْوى وأبلغ ، وهذا أكبر كما قال سبحانه { وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ . . . } [العنكبوت : 45] .
لذلك جاء في الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله في ظِلّه ، يوم لا ظِلَّ إلا ظله – ومنهم : ورجل دَعَتْه امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله »

هذا هو ذِكْر الله الأكبر؛ لأن الدواعي دواعي معصية ، فيحتاج الأمر إلى مجاهدة تُحوِّل المعصية إلى طاعة .
أما قول ابن عباس في { وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ . . } [العنكبوت : 45] أن ذِكْر ربكم لكم بالثواب والرحمة أكبر من ذِكْركم له بالطاعة . وحيثيات هذا القول أن ربك – عز وجل – لم يُكلِّفك إلا بعد سِنّ البلوغ ، وتركك تربَع في نعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلفك ، ثم يُوالي عليك نِعَمه ،

ولا يقطع عنك مدده حتى لو انصرفتَ عن منهجه ، بل حتى لو كفرتَ به لا يقبض عنك يد عطائه ونعمه .

إذن : فذِكْر الله لك بالخَلْق من عدم ، والإمداد من عُدم ، وموالاة نِعَمه عليك أكبر من ذِكْرك له بالطاعة ، وقد ذكرك سبحانه قبل أنْ يُكلِّفك أَن تذكره . كما أن ذكركم له سبحانه بالطاعة في الدنيا موقوت ، أما ذِكْره لكم بالثواب والجزاء والرحمة في الآخرة فممتد لا ينقطع أبداً .

ثم تختم الآية بقوله سبحانه : { والله يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } [العنكبوت : 45] هذه الكلمة نأخذها على أنها بشارة للمؤمن ، ونذارة للكافر ، كما تقول للتلاميذ يوم الامتحان : سينجح المجتهد منكم ، فهي بشارة للمجتهد ، وإنذار للمهمل ، فالجملة واحدة ، والإنسان هو الذي يضع نفسه في أيهما يشاء .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب . . . } .

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)

الحق – تبارك وتعالى – يُعلِّمنا كيف نجادل أهل الكتاب ، وقبل أن نتكلم عن ألوان الجدل في القرآن الكريم نقول : ما معنى الجدل؟

الجدل : مأخوذ من الجَدْل ، وهو فَتْل الشيء ليشتد بعد أنْ كان ليناً كما نفتل حبالنا في الريف ، فالقطن أو الصوف مثلاً يكون منتفشاً يأخذ حيزاً واسعاً ، فإذا أردْنا أن نأخذ منه خيطاً جمعنا بعض الشعيرات ليُقوِّي بعضها بعضاً بلفِّها حول بعضها ، وبجَدْل الخيوط نصنع الحبال لتكون أقوى ، وعلى قَدْر الغاية التي يُراد لها الحبل تكون قوته .

ومن الجدل أُخِذ الجدال والجدَل والمجادلة ، وفي معناها : الحوار والحجاج والمناظرة ، ومعناه أن يوجد فريقان لكل منها مذهب يؤيده ويدافع عنه ليفتن الآخر أي : ليلفته عن مذهبه إلى مذهبه هو .

فإذا كان المقصود هو الحق في الجدال أو الحِجَاج أو المناظرة فهذا الاسم يكفي ، لكن إنْ دخل الجدال إلى مِراءٍ أو لجاجة ، فليس القصد هو الحق ، إنما أنْ يتغلَّب أحد الفريقين على الآخر ، والجدل في هذه الحالة له أسماء متعددة ، منها قوله تعالى : { لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَانِهِمْ . . } [المؤمنون : 75] .

لكن إذا فَتَلْنا الشيء المنفوش حتى صار مُضْمراً ، وأخذ من الضمر قوة ، أأنت تجعل في الجدل خَصْمك قوياً؟ إنك تحاول أنْ تُقوِّي نفسك في مواجهته . قالوا : حين أنْهاه عن الباطل وأعطفه ناحية الحق ، فإنه يقوي يقينه في شيء ينفعه ، وكأنه كان منتفشاً آخذاً حيِّزاً أكبر من حجمه بالباطل الذي كان عليه ، فأنا قوّيته بالحق . وفي العامية نقول (فلان منفوخ على الفاضي) أو

نقول (فلان نافش ريشه) كأنه أخذ حيزاً أكبر من حجمه .
لذلك نلحظ أن التغلب في الجدل لا يكون لمجرد الجدل ، إنما تغلُّبك لحق ينفع الغير ويُقويه ويردّه إلى حجمه الطبيعي .
أو : أن الجدل مأخوذ من الجدال وهي الأرض ، كأن يطرح القوي الضعيف أرضاً في صراع مثلاً .
والجدال يكون بين شخصين ، لكل منهما رأيه الذي يألفه ويحبه ويقتنع به ، فحين تجادله تريد أنْ تُخرِجه عن رأيه الذي يألف إلى رأيك الذي لا يألفه ولم يعتده ، فأنت تجمع عليه أمرين : أنْ تُخرجه عما أَلف واعتاد إلى ما لم يألف ، فلا يكُنْ ذلك بأسلوب يكرهه حتى لا تجمع عليه شدتين .
فعليك إذن باللين والاستمالة برفق؛ لأن النصح ثقيل كما قال شوقي رحمه الله : فلا تجعله جبلاً ، ولا ترسله جَدَلاً ، وعادة ما يُظهِر الناصح أنه أفضل من المنصوح . ويقولون : الحقائق مرة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان؛ لأنك تُخرِج خَصْمك عما أَلِف ، فلا تخرجه عما ألف بما يكره ، بل بما يحب .
والإنسان قج يُعبِّر عن الحقيقة الواحدة تعبيراً يُكره ، ويُعبِّر عنها تعبيراً يُحب وترتاح إليه ، كالملك الذي رأى في منامه أن كل أسنانه قد سقطتْ ، فطلب مَنْ يُعبِّر له ما رأى ، فجاءه المعبِّر واستمع منه ، ثم قال : معنى هذه الرؤيا يا مولاي أن أهلك جميعاً سيموتون ، فتشاءم من هذا التعبير ولم يُعجبه ، فأرسلوا إلى آخر فقال : هذا يعني أنك ستكون أطولَ أهل بيتك عُمراً ، فَسُرَّ الملك بقوله .

فهنا المعنى واحد ، لكن أسلوب العرض مختلف .
ودخل رجل على آخر ، فوجده يبكي فقال : ما يُبكيك؟ قال : أخذْتُ ظلماً ، فتعجب وقال : فكيف بك إذا أُخِذْتَ عدلاً؟ أكنت تضحك . والمعنى أن مَنْ أُخذ ظلماً لا ينبغي له أن يحزن؛ لأنه لم يفعل شيئاً يشينه ، والأَوْلَى بالبكاء من أُخذ عدلاً وبحقٍّ .
ورجل قُتِل له عزيز فجلس يصرح ويولول ، فدخل عليه صاحبه مُواسياً فقال له الرجل : إن ابني قُتِل ظلماً ، فقال صاحبه : الحمد لله الذي جعل منك المقتول ، ولم يجعل منك القاتل .
إذن : سلامة المنطق وخِفَّة البيان أمر مهم ، وعلى المجادل أن يراعي بيانه ، وأن يتحين الفرصة المناسبة ، فلا تجادل خصمك وهو غضبان منك أو وأنت غضبان منه . قالوا : مَرَّ رجل فوجد صبياً يغرق في البحر ، فلم ينتظر حتى يخلع ثيابه ، وألقى بنفسه وأنقذ الصبي ، ثم أخذ يضربه ويلطمه ، والولد يقول : شكراً لك بارك الله فيك ، لماذا؟ لأنه قسا عليه بعد أنْ أنقذه ، لكن ما الحال لو وقف على البَرِّ ، وكال له الشتائم وعنَّفه ، لماذا ينزل البحر وهو لا يعرف العوم؟ لذلك يقول الحكماء : آسِ ثم أنصح .

لذلك يُعلِّمنا ربنا – عز وجل – أصول الجدل وآدابه؛ لأنه يريد أن يُخرِج بهذا الجدل أناساً من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجحود إلى اليقين ، وهذا لا يتأتّى إلا باللطف واللين ، كما قال سبحانه : { ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . } [النحل : 125] .

ويُعلِّمنا سبحانه أن للجدل مراتبَ بحسب حالة الخَصم ، فالذي ينكر وجود الله له جدل مخصوص ، والذي يؤمن بوجود الله ويقول : إن معه شريكاً . له جدل آخر ، ومَنْ يؤمن بالله ويقول سأتبع نبيّ ولن أتبعك له جدل آخر وبشكل خاص ، والمختلفون معك من أهل مِلَّتك لهم جدل يليق بحالهم .

إذن : للجدل مراتب نلحظها في أسلوب القرآن ، فبم جادل الذين لا يؤمنون بوجود إله؟ قال : { أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون * أَمْ خَلَقُواْ السماوات والأرض بَل لاَّ يُوقِنُونَ } [الطور : 35 – 36] .

فأتى لهم بمسألة الخَلْق الظاهرة التي لم يدَّعها أحد ، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى المشركون والملاحدة؛ لأن أتفه الأشياء في صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً من زجاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

أليس مَنْ خلق السماوات والأرض والشمس والقمر . . إلخ أَوْلَى بأن يعترفوا له سبحانه بالخَلْق؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن؟ وقلنا : إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، والحق – سبحانه وتعالى – قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفي قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنا خالق هذا الكون .

فإنْ قال معاند : فَمَنْ خلق الله؟ نقول : الذي خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ . . . } [آل عمران : 18] ولم يقُلْ أحد أنا الإله . إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم . هذا في جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو التالي : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية . وقال : أنا واحد لا شريك لي ، فأين كان شركاؤكم؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان ، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المواجهة ، وفي كلتا الحالتين تنفي عنهم صفة الألوهية ، فأيُّ إله هذا الذي لا يدري بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم ، فكيف

يعبدونها ، ثم هي آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فبماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم؟ إذن : عبادتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم بقدر على شيء معين؟

إنْ كانوا يزاولون بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفي والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌّ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد رَدَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42] أي : لَذهبوا إليه إما ليُعنِّفوه ويُصَفّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .

وفي موضع آخر : { إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . . } [المؤمنون : 91] .

وبعد أنْ بيَّنا جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الإله وجدال أهل الشرك نجادل أهل الكتاب ، وهم ألطفُ من سابقيهم؛ لأنهم مؤمنون بإله وأنه الخالق ، ومؤمنون بالبلاغ عن الله ، ومؤمنون بالكتب التي نزلت ، والخلاف بيننا وبينهم أنهم لا يؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم في حين نؤمن نحن برسلهم وكتبهم ، وهذه أول مَيزة تميَّز بها الإسلام على الأديان الأخرى .

ونقول لهؤلاء : لقد آمنت برسولك ، وقد سبقه رسل ، فلماذا تنكر أن يأتي رسول بعده؟ ثم هل جاء الرسول بعد رسولك ليناقضه في أصول الأشياء؟ إنهم جميعاً متفقون على أصول العقيدة والأخلاق ، متفقون على أنهم عباد الله متحابون ، فلماذا تختلفون أنتم؟

فربنا – تبارك وتعالى – يُعلِّمنا { وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ .

. . } [العنكبوت : 46] لأنهم ليسوا ملاحدة ولا مشركين ، فهُمْ مؤمنون بإلهكم وبالرسل وبالكتب ، غاية ما هنالك أنهم لا يؤمنون برسولكم .

لذلك يعترض بعض الناس : كيف يبيح الإسلام أنْ يتزوج المسلم من كتابية ، ولا يبيح للمسلمة أن تتزوج كتابياً؟ نقول : لأن أصل القِوَامة في الزواج للرجل ، والزوج المؤمن حين يتزوج كتابية مؤمن برسولها ، أما الزوج الكتابي فغير مؤمن برسول المؤمنة ، فالفَرْق بينهما كبير .

ومعنى : { إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . } [العنكبوت : 46] أن في الجدال حسناً وأحسن ، وقد سبق الجدال الحسن في قوله تعالى : { وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [سبأ : 24] ونوح عليه السلام يتلطف في جدال قومه ، فيقول : { قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ برياء مِّمَّا تُجْرِمُونَ } [هود : 35] .

فينسب الافتراء إلى نفسه ، ويتهم نفسه بالإجرام إنِ افترى ، فإنْ لم يكُنْ هو المفتر ، وهو المجرم

فَهُمْ .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقول في جدال قومه : { قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25] فيذكر صلى الله عليه وسلم الجريمة في حقه هو ولا يذكرها في حَقِّ المعاندين المكذِّبين ، فأيُّ أدب في الدعوة أرفع من هذا الأدب؟

إذن : جادل غير المؤمنين بالحسن ، وجادل أهل التكاب بالتي هي أحسن ، لما يمتازون به عن غيرهم من ميزة الإيمان بالله . فإنْ تعدَّوْا وظلموا أنفسهم في مسألة القمة الإيمانية ، فادعوا أن لله ولداً أو غيره ، فإنهم بذلك يدخلون في صفوف سابقيهم من المشركين ، فإنْ كنا مأمورين بأن نجادلهم بالتي هي أحسن وقالوا بهذا القول ، فعلينا أن نجادلهم بما يقابل الأحسن ، نجادلهم إما بالحسن ، وإما بغير الحسن أي : بالسيف .

لكن ، هل يفرض السيف عقائد؟ السيف لا يأخذ من الناس إلا قوالبهم .

أمّا القلوب فلا يخضعها إلا الإيمان ، والله تعالى لا يريد قوالب ، إنما يريد قلوباً .

واقرأ قوله تعالى في سورة الشعراء : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3-4] فإنِ أراد سبحانه قَهْر القوالب والقلوب على الخضوع ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتأبَّى على الإيمان ما وُجد كافر ، وما كفر الكافر إلا لما أعطاه الله من منطقة الاختيار؛ فالحق سبحانه يريد منّا قلوباً تحبه سبحانه وتعبده؛ لأنه سبحانه يستحق أنْ يُعبد .

إذن : الذين يخرجون عن نطاق الكتابية بتجاوزهم الحدَّ ، وقولهم أن عيسى ابن الله ، أو أن الله ثالث ثلاثة ، إنما يدخلون في نطاق الشرك والكفر ، ولن نقول لهؤلاء : اتبعوا رسولنا ، وإنما اتبعوا رسولكم ، والكتاب الذي جاءكم به من عند الله ، وسوف تجدون فيه البشارة بمحمد { الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل . . . } [الأعراف : 157] .

إذن : فحين تكفر فأنت لا تكفر بمحمد ولا بالقرآن ، إنما تكفر أولاً بكتابك أنت؛ لذلك يعلمنا الحق سبحانه :

{ لَّقَدْ كَفَرَ الذين قَالوا إِنَّ الله هُوَ المسيح ابن مَرْيَمَ . . . } [المائدة : 17] وقال أيضاً : { لَّقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ . . . } [المائدة : 73] .

أي : لا تعاملوهم على أنهم كتابيون ، ولما سُئلْنا في الخارج من أبنائنا الذين يرغبون في الزواج من أجنبيات ، فكنت أقول للواحد منهم : سَلْها أولاً : ماذا تقول في عيسى ، فإنْ قالت هو رسول الله فتزوجها وأنت مطمئن؛ لأنها كتابية ، وإن قالت : ابْن الله ، فعاملها على أنها كافرة ومشركة .

هذا في معنى قوله تعالى : { إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ . . . } [العنكبوت : 46] ونحن لا نحمل السيف في وجه هؤلاء؛ لأن السيف ما جاء إلا ليحمي اختيار المختار ، فلي أنْ أعرض ديني ،

وأنْ أُعلنه وأشرحه ، فإنْ منعوني من هذه فلهم السيف ، وإنْ تركوني أعلن عن ديني فهم أحرار ، يؤمنون أو لا يؤمنون .

إنْ آمنوا فأهلاً وسهلاً ، وإنْ لم يؤمنوا فهم أهل ذمة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ويدفعون الجزية نظير ما يتمعون به في بلادنا ، وعليهم ما علينا ، وما نُقدِّمه لهم من خدمات ، وإلا فكيف نفرض على المؤمنين الزكاة ونترك هؤلاء لا يقدمون شيئاً؟

لذلك نرى الكثيرين من أعداء الإسلام يعترضون على مسألة دَفْع الجزية ، ويروْنَ أن الإسلام فُرِض بقوة السيف ، وهذا قول يناقض بعضه بعضاً ، فما فرضنا عليكم الجزية إلا لأننا تركناكم تعيشون معنا على دينكم ، ولو أرغمناكم على الإسلام ما كان عليكم الجزية .

والحق – تبارك وتعالى – يقول : { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي . . . } [البقرة : 256] لأنني لا أُكرهك على شيء إلا إذا كنتَ ضعيف الحجة ، وما دام أن الرشدْ بيّن والغيّ بيّن ، فلا داعي للإكراه إذن .

لكن البعض يفهم هذه الآية فهماً خاطئاً فحين تقول له : صَلِّ يقول لك { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين . . . } [البقرة : 256] ونقول له : لم تفهم المراد ، فلا إكراه في أصل الدين في أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فأنت في هذه حُرٌّ ، أما إذا آمنتَ وأعلنتَ أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فليس لك أن تكسر حَدّاً من حدود الإسلام ، وفَرْق بين « لا إكراه في الدين » و « لا إكراه في التدين » .

ومن حكمة الإسلام أن يعلن حكم الردة لمن أراد أنْ يؤمن ، نقول له قف قبل أن تدخل الإسلام ، اعلم أنك إنْ تراجعت عنه وارتددتَ قتلناك ، وهذا الحكْم يضع العقبة أمام الراغب في الإسلام حتى يفكر أولاً ، ولا يقدم عليه إلا على بصيرة وبينة .

وإذا قيل { أَهْلَ الكتاب . . . } [العنكبوت : 46] أي : الكتاب المنزَّل من الله ، وقد علَّم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أنْ يجادل المشركين بقوله : { فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 43] فعلم الرسول أن يرجع إلى أهل الكتاب ، وأنْ يأخذ بشهادتهم ، وفي موضع آخر علَّمه أن يقول لمن امتنع عن الإيمان .

{ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب } [الرعد : 43] .

إذن : فرسولنا يستشهد بكم ، لما عندكم من البينات الواضحة والدلائل على صدقه . حتى قال عبد الله بن سلام : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد ، ولم لا يعرفونه وقد ذُكر في كتبهم باسمه ووصفه : { الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل . . . } [الأعراف : 157] .

ثم ألم يحدث منكم أنكم كنتم تستفتحون به على المشركين في المدينة ، وتقولون : لقد أطلَّ زمان نبي يُبعث في مكة ، فنتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم؟ فلما جاءكم النبي الذي تعرفوه أنكرتموه وكفرتم به : { وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ . . . } [البقرة : 89] .

كيف يستشهد الله على صدق رسوله بكم وبكتبكم ثم تكذبون؟ قالوا : كذَّبوا لما لهم من سلطة زمنية يخافون عليها ، ورأوا أن الإسلام سيسلبهم إياها .

وكلمة { بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . } [العنكبوت : 46] وردت في القرآن ، لكن في غير الجدل في الدين ، وردت في كل شيء يُوجب جدلاً بين أُناس؛ وذلك في قوله سبحانه : { ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت : 34] .

وقد جاءني رجل يذكر هذه الآية ، وما يترتب على الإحسان ، يقول : عملتُ بالآية فلم أجد الولي الحميم؟ قلت له : كوْنك تحمل هذا الأمر في رأسك دليل على أنك لم تدفع بالتي هي أحسن؛ لأن الله تعالى لا يقرر قضية قرآنية ، ويُكذِّبها واقع الحياة ، فإنْ دفعتَ بالتي هي أحسن بحقٍّ لا بُدَّ وأنْ تجد خَصْمك كأنه وليٌّ حميم .

لذلك يقول أحد العارفين :

يَا مَنْ تُضَايِقه الفِعَالُ مِنَ التِي وَمنَ الذِي ... ادْفَعْ فديْتُكَ بالتي حتَّى تَرى فإذَا الذي

والمعنى : من التي تسيء إليك ، أو الذي يسيء إليك { ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . } [فصلت : 34] حتى ترى { فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت : 34] .

وأذكر أنه جاءني شاب يقول : إن عمي مُوسِر ، وأنا فقير ، وهو يتركني ويتمتع بماله غيري ، فقلت له : بالله أتحب النعمة عند عمك؟ فسكت ، قلت له : إذن أنت لا تحبها عنده ، لكن اعلم أن النعمة تحب صاحبها أكثر من حُبِّ صاحبها لها؛ لذلك لا تذهب إلى كارهها عند صاحبها .

فما عليك إلا أنْ تثوب إلى الحق ، وأنْ تتخلص مما تجد في قلبك لعمك ، وثِقْ بأن الله هو الرزاق ، وإنْ أردتَ نعمة رأيتها عند أحد فأحببها عنده ، وسوف تأتيك إلى بابك ، لأنك حين تكره النعمة عند غيرك تعترض على قدر الله .

بعد هذا الحوار مع الرجل – والله يشهد – دَقَّ جرس الباب ، فإذا به يقول لي : أما دريتَ بما حدث؟ قلت : ماذا؟ قال : جاءني عمي قبل الفجر بساعة ، فلما أنْ فتحت له الباب انهال عليَّ ضَرْباً وشَتْماً يقول : لماذا تتركني للأجانب يأكلون مالي وأنت موجود؟ ثم أعطاني المفاتيح وقال : من الصباح تباشر عملي بنفسك .

فقلت له : لقد أحببتها عند عمك ، فجاءت تطرق بابك .

وقوله سبحانه { إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ . . . } [العنكبوت : 46] أي : ظلموا أنفسهم بالشرك؛ لأن الله تعالى قال : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] تظلم نفسك لا تظلم الله؛ لأن الظالم يكون أقوى من المظلوم . وجعل الشرك ظلماً عظيماً لأنه ذنبٌ لا يغفر : { إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلك لِمَن يَشَآءُ . . . } [النساء : 116] .

فالشرك ظلم عظيم عليك نفسك ، أما الذنوب دون الشرك فلها مخرج ، وقد تنفكّ عنها إما التوبة برحمة الله ومغفرته .

ثم يُعلِّمنا الحق – تبارك وتعالى – التي هي أحسن في الردِّ على الذين ظلموا منهم : { وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [العنكبوت : 46] .

يعني : فعلامَ الاختلاف ، ما دام أن الإله واحد ، وما دام أن كتابكم يذكر الرسول الذي يأتي بعد رسولكم ، وقد سبق رسولكم رسل ، فكان يجب عليكم أن تؤمنوا به ، وأنْ تُصدِّقوه .

جاءت امرأة تشتكي أن زوجها لم يُوف بما وعدها به ، وقد اشترطتْ عليه قبل الزواج ألاَّ يذهب إلى زوجته الأولى ، فقُلْت لها : يعني أنت الثانية وقد رضيت به وهو متزوج؟ قالت : نعم ، قلت : فلماذا رضيتِ به؟ قالت : أعجبني وأعجبته ، قلت : فلا مانع إذن أنْ تعجبه أخرى فيتزوجها ، وتقول له : إياك أنْ تذهب إلى الثانية ، فهل هذا يعجبك؟ إذن : فاحترمي حقَّ الأولى فيه ، لتحترم الثالثة حقك فيه ، فقامت وانصرفت .

وقال : { وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ . . . } [العنكبوت : 46] لأن الكلام هنا للذين ظلموا وقالوا بالتعدد .

وهنا قال تعالى { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [العنكبوت : 46] ولم يقل مثلاً : ونحن به مؤمنون ، ولماذا؟ لأن الإيمان عقيدة قلبية أنْ تؤمن بإله ، أمّا الإيمان فليس كلاماً ، الإيمان أن تثق به ، وأنْ تأمنه على أنْ يُشرِّع لك ، وأنْ يُسلم له الأمر « افعل كذا » « ولا تفعل كذا » ، وهناك أناس ليسوا بمؤمنين بقلوبهم ، ومع ذلك يعملون عمل المسلمين ، إنهم المنافقون .

لذلك يقول تعالى : { قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ . . . } [الحجرات : 14] .

إذن : فَرْق بين إيمان وإسلام ، فقد يتوفر أحدهما دون الآخر؛ لذلك قال سبحانه { والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . } [العصر : 1–3] فقال هنا : { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [العنكبوت : 46] يعني : مُنفِّذين لتعاليم ديننا .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب . . . } .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47)

قوله تعالى { وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب . . . } [العنكبوت : 47] أي : كما أنزلنا كتباً على مَنْ سبقك أنزلنا إليك كتاباً يحمل منهجاً ، والكتب السماوية قسمان : قسم يحمل منهج الرسول في (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وذلك شركة في كل الكتب التي أُنزِلَتْ على الرسل ، وكتاب واحد هو القرآن ، هو الذي جاء بالمنهج والمعجزة معاً .

فكلُّ الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان للواحد منهم كتاب فيه منهج ومعجزة منفصلة عن المنهج ، فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إحياء الموتى بإذن الله .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتابه القرآن ومعجزته القرآن ، فانظر كيف التقت المعجزة بالمنهج لتظل لصيقة به؛ لأن زمن رسالة محمد ممتدٌّ إلى قيام الساعة ، فلا بُدَّ أنْ تظل المعجزة موجودة ليقول الناس محمد رسول الله ، وهذه معجزته .

في حين لا نستطيع مثلاً أن نقول : هذا عيسى رسول الله وهذه معجزته؛ لأنها ليست باقية ، ولم نعرفها إلا من خلال إخبار القرآن بها ، وهذا يُوضِّح لنا فَضْل القرآن على الرسل وعلى معجزاتهم حيث ثبتها عند كل مَنْ لم يَرهَا ، فكل مَنْ آمن بالقرآن آمن بها .

لكن ، أكُلُّ رسول يأتي بمعجزة؟ المعجزة لا تأتي إلا لمن تحدَّاه ، واتهمه بالكذب ، فتأتي المعجزة لتثبت صِدْقه في البلاغ عن ربه؛ لذلك نجد مثلاً أن سيدنا شيثاً وإدريس وشَعيباً ليست لهم معجزات .

وأبو بكر – رضي الله عنه – والسيدة خديجة أم المؤمنين هل كانا في حاجة إلى معجزة ليؤمنا برسول الله؟ أبداً ، فبمجرد أنْ قال : أنا رسول الله آمنوا به ، فما الداعي للمعجزة إذن؟

إذن : تميَّز صلى الله عليه وسلم على إخوانه الرسل بأن كتابه هو عَيْن معجزته وسبق أنْ قلنا : إن الحق – تبارك وتعالى – يجعل المعجزة من جنس ما نبغ فيه القوم ، فلو تحداهم بشيء لا عِلْم لهم به لقالوا : نحن لا نعلم هذا ، فكيف تتحدّانا به؟ والعرب كانوا أهل فصاحة وبيان ، وكانوا يقيمون للقوْل أسواقاً ومناسبات ، فتحداهم بفصاحة القرآن وبلاغته أنْ يأتوا بمثله ، ثم بعشر سُور ، ثم بسورة واحدة ، فما استطاعوا ، والقرآن كلام من جنس كلامهم ، وبنفس حروفهم وكلماتهم ، إلا أن المتكلم بالقرآن هو الله تعالى؛ لذلك لا يأتي أحد بمثله .

والقرآن أيضاً كتاب يهيمن على كل الكتب السابقة عليه ، يُبقي منها ما يشاء من الأحكام ، ويُنهِي ما يشاء . أما العقائد فهي ثابتة لا نسخَ فيها ، وأيضاً لا نسخَ في القصص والأخبار .

والنسْخ لا يتأتى إلا في التشريع بالأحكام افعل ولا تفعل ، ذلك لأن التشريع يأتي مناسباً لأدواء

البيئات المختلفة .

لذلك كان بعض الرسل يتعاصرون كإبراهيم ولوط ، وموسى وشعيب ، عليهم السلام ، ولكل منهم رسالته؛ لأنه متوجه إلى مكان بعينه ليعالج فيه داءً من الداءات ، في زمن انقطعت فيه سُبُل الالتقاء بين البيئات المختلفة ، فالجماعة في مكان ربما لا يَدْرون بغيرهم في بيئة مجاورة .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء – كما يعلم ربه أَزَلاً – على موعد مع التقاء البيئات وتداخُل الحضارات ، فالحدث يتم في آخر الدنيا ، نعلم به ، بل ، ونشاهده في التوِّ واللحظة ، وكأنه في بلادنا . إذن : فالداءات ستتحد أيضاً ، وما دامت داءات الأمم المختلفة قد اتحدتْ فيكفي لها رسول واحد يعالجها ، ويكون رسولاً لكل البشر .

ثم يقول سبحانه : { فالذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب . . . } [العنكبوت : 47] أي : من قبلك { يُؤْمِنُونَ بِهِ . . . } [العنكبوت : 47] لأنه لا سلطة زمنية تعزلهم عن الكتاب الجديد ، فينظرون في أوصاف النبي الجديد التي وردتْ في كتبهم ثم يطابقونها على أوصاف رسول الله؛ لذلك لما بلغ سلمان الفارسي أن بمكة نبياً جديداً ، ذهب إلى سيدنا رسول الله ، وأخذ يتأمله وينظر إليه بإمعان ، فوجد فيه علامتين مما ذكرتْ الكتب السابقة ، وهما أنه صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ، ولا يقبل الصدقة ، فراح ينظر هنا وهناك لعله يرى الثالثة ، ففطن إليه رسول الله بما آتاه الله من فِطْنة النبوة التي أودعها الله فيه ، وقال : لعلك تريد هذا ، وكشف له عن خاتم النبوة ، وهو العلامة الثالثة .

ومن لباقة سيدنا عبد الله بن سلام ، وقد ذهب إلى سيدنا رسول الله وهو – ابن سلام – على يهوديته – فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْت – يعني يُكثرون الجدال دون جدوى – وأخشى إنْ أعلنتُ إسلامي أن يسبوني ، وأن يظلموني ، ويقولوا فِيَّ فُحْشاً ، فأريد يا رسول الله إنْ جاءوك أن تسألهم عني ، فإذا قالوا ما قالوا أعلنت إسلامي ، فلما جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله سألهم : ما تقولون في عبد الله بن سلام؟ قالوا : شيخنا وحَبْرنا وسيدنا . . إلخ فقال عبد الله : أما وقد قالوا فيَّ ما قالوا : يا رسول الله ، فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقالوا لتوِّهم : بل أنت شرنا وابن شرنا ، ونالوا منه ، فقال عبد الله : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت؟

وقوله سبحانه { وَمِنْ هؤلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ . . . } [العنكبوت : 47] أي : من كفار مكة مَنْ سيأتي بعد هؤلاء ، فيؤمن بالقرآن { وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ الكافرون } [العنكبوت : 47] الجحد : إنكار متعمد؛ لأن من الإنكار ما يكون عن جهل مثلاً ، والجحد يأتي من أن النِّسب إما نفي ، وإما إثبات ، فإنْ قال اللسان نسبة إيجاب ، وفي القلب سَلْب أو قال سلب وفي القلب

إيجاب ، فهذا ما نُسمّيه الجحود .

لذلك يُفرّق القرآن بين صيغة اللفظ ووجدانيات اللفظ في النفس ، واقرأ مثلاً قول الله تعالى :

{ إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله . . } [المنافقون : 1] وهذا منهم كلام طيب وجميل { والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ . . . } [المنافقون : 1] أي : أنه كلام وافق علم الله ، لكن { والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ } [المنافقون : 1] فكيف يحكم الحق عليهم بالكذب ، وقد قالوا ما وافق علم الله؟

نقول : كلام الله يحتاج إلى تدبُّر لمعناه ، فالحق يحكم عليهم بأنهم كاذبون ، لا في قولهم : إنك لرسول الله ، فهذه حق ، بل في شهادتهم؛ لأنها شهادة باللسان لا يوافقها اعتقاد القلب ، فالمشهود به حق ، لكن الشهادة كذب .

لكن ، لماذا خَصَّ الكافرين في مسألة الجحود؟ قالوا : لأن غيرالكافر عنده يقظة وجدان ، فلا يجرؤ على هذه الكلمة؛ لأنه يعلم أن الله تعالى لا يأخذ الناس بذنوبهم الآن ، إنما يُؤجِّلها لهم ليوم الحساب ، فهذه المسألة تحجزهم عن الجحود .

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)

قوله : { تَتْلُواْ . . . } [العنكبوت : 48] أي : تقرأ ، واختار تتلو لأنك لا تقرأ إلا ما سمعت ، فكأن قراءتك لما سمعت تجعل قولك تالياً لما سمعتَ ، نقول : يتلوه يعني : يأتي بعده { وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ . . . } [العنكبوت : 48] يعني : الكتابة .

وفَرْق بين أنْ تقرأ ، وبين أنْ تكتب ، فقد تقرأ لأنك تحفظ ، وتحفظ نتيجة السماع ، كإخواننا الذين ابتلاهم الله بكفِّ نظرهم ويقرأون ، إنما يقرأون ما سمعوه؛ لأن السمع كما قلنا أول حاسة تؤدي مهمتها في الإنسان ، فمن الممكن أن تحفظ ما سمعت ، أما أن تكتبه فهذا شيء آخر .

والكلام هنا لون من ألوان الجدل والإقناع لكفار قريش الذين يُكذِّبون رسول الله ، ولوْن من ألوان التسلية لرسول الله ، كأنه يقول سبحانه لرسوله : اطمئن . فتكذيب هؤلاء لك افتراء عليك؛ لأنك ما تلوْتَ قبله كتاباً ولا كتبته بيمينك ، وهم يعرفون سيرتك فيهم .

كما قال سبحانه في موضع آخر : { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [يونس : 16] .

أربعون سنة قضاها رسول الله بين قومه قبل البعثة ، ما جرَّبوا عليه قراءة ولا كتابة ولا خطبة ، ولا نمَّق قصيدة ، فكيف تُكذِّبونه الآن؟

فإن قالوا : كانت عبقرية عند محمد أجَّلها حتى سِنَّ الأربعين . نقول : العبقرية عادة مَا تأتي في أواخر العقد الثاني من العمر في السابعة عشرة ، أو الثامنة عشرة ، ومَنْ ضمن لمحمد البقاء حتى

سِنّ الأربعين ، وهو يرى مصارع أهله ، جده وأبيه وأمه؟
لو كان عندك شيء من القراءة أو الكتابة لكان لهم عذر ، ولكان في الأمر شبهة تدعو إلى الارتياب في أمرك ، كما قالوا : { وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } [الفرقان : 5] .
وقالوا : { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . } [النحل : 103] فردَّ القرآن عليهم { لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } [النحل : 103] .
وقالوا : ساحر . وقالوا : شاعر . وقالوا : مجنون . وكلها افتراءات وأباطيل واهية يسهل الردُّ عليها : فإنْ كان ساحراً ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً وتنتهي المسألة؟ وإنْ كان شاعراً فهل جرَّبتم عليه أنْ قال شعراً قبل بعثته؟
وإنْ قُلْتم مجنون ، فالجنون فَقْد العقل ، بحيث لا يستطيع الإنسان أنْ يختار بين البدائل ، فهل جرَّبتم على محمد شيئاً من ذلك؟ وكيف يكون المجنون على خُلُق عظيم بشهادتكم أنتم أنه الصادق الأمين ، فعنده انضباط في الملَكات وفي التصرفات ، فكيف تتهمونه بالجنون؟
وكلمة { مِن قَبْلِهِ . . . } [العنكبوت : 48] لها عجائب في كتاب الله منها هذه الآية : { وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ . . . } [العنكبوت : 48] فيقول بعض العارفين (من قبله) : أي من قبل نزول القرآن عليك ، وهذا القول { قَبْلِهِ . . } [العنكبوت : 48] يدل على أنه من الجائز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم كيف يقرأ وكيف يكتب بعد نزول القرآن عليه ، حتى لا يكون في أمته من هو أحسن حالاً منه في أي شيء ، أو في خصلة من خصال الخير .

ثم تأمل قوله تعالى : { فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ الله مِن قَبْلُ . . . } [البقرة : 91] ألاَ يدخل في روع رسول الله أنهم ربما يجترئون عليه فيقتَلوه ، فيتهيب منهم ، أو يدخل في نفوسهم هم ، فيجترئون عليه كما قتلوا الأنبياء من قبل؛ لذلك جاءتْ الآية لتقرر أن هذا كان في الماضي ، أما الآن فلن يحدث شيء من هذا أبداً ، ولن يُمكِّنكم الله من نبيه .
وكلمة { وَمَا كُنتَ . . . } [العنكبوت : 48] تكررت كثيراً في كتاب الله ، ويُسمُّونها في الزمن الماضي ، والحاضر ، والمستقبل .
كما في قوله تعالى : { وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر . . . } [القصص : 44] .
وقوله تعالى : { وَمَا كُنتَ ثَاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . . . } [القصص : 45] .
وقوله تعالى : { وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ . . . } [آل عمران : 44] .

وهنا : { وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ . . . } [العنكبوت : 48] .
لذلك وصفه ربه – عز وجل – بأنه { الرسول النبي الأمي . . . } [الأعراف : 157] وإياك أن تظن أن الأمية عَيْب في رسول الله ، فإنْ كانت عيباً في غيره ، فهي فيه شرف؛ لأن معنى أمي يعني على فطرته كما ولدتْه أمه ، لم يتعلم شيئاً من أحد ، وكذلك رسول الله لم يتعلَّم من الخَلْق ، إنما تعلم من الخالق فعلَتْ مرتبةُ علمه عن الخَلْق .
ومن ذلك المكانة التي أخذها الإمام علي – رضي الله عنه – في العلم والإفتاء حتى قال عنه عمر رضي الله عنه – مع ما عُرف عن عمر من سداد الرأي حتى إن القرآن لينزلُ موافقاً لرأيه ، ومُؤيّداً لقوله – يقول عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن . لماذا؟
لأنه كان صاحب حجة ومنطق وصاحب بلاغة ، ألم يراجع الفاروقَ في مسألة المرأة التي ولدتْ لستة أشهر من زواجها ، وعمر يريد أنْ يقيم عليها الحد؛ لأن الشائع أن مدة الحمل تسعة أشهر فتسرَّع البعض وقالوا : إنها سُبق إليها ، لكن يكون للإمام على رأي آخر ، فيقول لعمر : لكن الله يقول غير هذا ، فيقول عمر : وما ذاك؟ قال : ألم يقُل الحق سبحانه وتعالى : { والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ . . . } [البقرة : 233] قال : بلى .
قال : ألم يقل : { وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . } [الأحقاف : 15] وبطرح العامين من ثلاثين شهراً يكون الباقي ستة أشهر ، فإذا ولدتْ المرأة لستة أشهر ، فهذا أمر طبيعي لا ارتيابَ فيه .
وفي يوم دخل حذيفة على عمر رضي الله عنهما – فسأله عمر : كيف أصبحتَ يا حذيفة؟ فقال حذيفة : يا أمير المؤمنين ، أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأُصلّي بغير وضوء ، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء .
فغضب عمر ، وهَمَّ أن يضربه بدرة في يده ، وعندها دخل عليٌّ فوجد عمر مُغْضباً فقال : مالي أراك مغضباً يا أمير المؤمنين؟ فقصَّ عليه ما كان من أمر حذيفة ، فقال علي :
نعم يا أمير المؤمنين يحب الفتنة؛ لأن الله تعالى قال :

{ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ . . . } [التغابن : 15] .
ويكره الحق أي : الموت فهو حقّ لكنا نكرهه ، ويُصلّي على النبي بغير وضوء ، وله في الأرض ولد وزوجة ، وليس ذلك لله في السماء . فقال عمر قولته المشهورة : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .
فلماذا تميَّز عليٌّ بهذه الميزة من العِلْم والفقه والحجة؟ لأنه تربَّى في حِجرْ النبوة فاستقى من نَبْعها ، وترعرع في أحضان العلوم الإسلامية منذ نعومة أظافره ، ولم يعرف شيئاً من معلومات الجاهلية ، فلما تتفاعل عنده العلوم الإسلامية لا تَلِد إلا حقاً .

ثم يقول سبحانه { إِذاً . . . } [العنكبوت : 48] يعني : لو حصل منك قراءة أو كتابة { لأَرْتَابَ المبطلون } [العنكبوت : 48] أي : لَكَان لهم عُذْر ووجهة نظر في الارتياب ، والارتياب لا يعني مجرد الشك ، إنما شك باتهام أي : يتهمون رسول الله بأنه كان على عِلْم بالقراءة والكتابة؛ لذلك وصفهم بأنهم مبطلون في اتهامهم له صلى الله عليه وسلم .

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49)

{ بَلْ . . . } [العنكبوت : 49] حرف يفيد الإضراب عما قبله ، وتأكيد ما بعده { هُوَ } أي : القرآن { آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم . . . } [العنكبوت : 49] ولم يقل مثلاً : في ذاكرتهم؛ لأن الأذن تستقبل الكلام وتعرضه على العقل ، فإنْ قبله يستقر في القلب وفي الصدر ، وفيه يتحول إلى عقيدة وإلى يقين لا يقبل الشكَّ ولا يتزحزح .

لذلك يقول تعالى عن القرآن : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين } [الشعراء : 193-194] فقال : { على قَلْبِكَ . . . } [الشعراء : 194] أي : مباشرة استقر في قلبه ، ولم يقُلْ على أذنك .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ . . . } .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50)

أي : بعد أنْ جاءهم القرآن وبعد أنْ أعجزهم يطلبون آيات أخرى ، وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه كان إذا اقترح القومُ آيةً من رسولهم فأجابهم إلى ما طلبوا ، فإنْ كذبوا بعدها أخذهم أَخْذ عزيز مقتدر .

واقرأ مثلاً قوله سبحانه : { وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا . . . } [الإسراء : 59] فلما كذَّبوا بالآية التي طلبوها أهلكهم الله؛ لأن المسألة إذن ليست مسألة آيات وإقناع ، إنما هي الإصرار على الكفر ، إذن : فطلب الإنزال لآية خاصة باقتراحهم ليس مانعاً لهم أنْ يكفروا أيضاً برسول الله .

لذلك يقول سبحانه : { وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات . . . } [الإسراء : 59] أي : التي اقترحوها { إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . . } [الإسراء : 59] وحين تنزل الآية ويُكذِّبون بها تنزل بهم عقوبة السماء ، لكن الحق – سبحانه وتعالى – قطع العهد لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ألاَّ يُعذِّب أمته وهو فيهم ، كما قال سبحانه : { وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال : 33] .

فهذا هو السبب المانع من أنْ تأتي الآية المقترحة ، ثم إن الآيات المقترحة آيات كونية تأتي

وتذهب ، كما تشعل عود الثقاب مرة واحدة ، ثم ينطفئ ، رآه مَنْ رآه ، وأصبح خبراً لمن لم يَرَه .

وكلمة { لَوْلاَ . . . } [العنكبوت : 50] تستخدم في لغة العرب استخدامين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية مثل : لولا زيد عندك لَزرتُك ، وهي هنا حرف امتناع لوجود ، فقد امتنعتْ الزيارة لوجود زيد . وإنْ دخلتْ على الجملة الفعلية مثل : لولا تذاكر دروسك ، فهي للحضِّ وللحثِّ على الفعل .

فقولهم { لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ . . . } [العنكبوت : 50] كان الآية التي جاءتهم من عند الله لا يعترفون بها ، ثم يناقضون أنفسهم حينما يقولون : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

إذن : أنتم معترفون بالقرآن ، مقتنعون به ، لكن ما يقف في حلوقكم أن ينزل على محمد من بين الناس جميعاً . ثم نراهم يناقضون أنفسهم في هذه أيضاً ، ويعترفون من حيث لا يشعرون بأن محمداً رسول الله حينما قالوا : { لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ . . . } [المنافقون : 7] فما دُمْتم تعرفون أنه رسول الله ، فلماذا تُعادونه؟ إذن : فالبديهة الفطرية تكذِّبهم ، ينطق الحق على ألسنتهم على حين غفلة منهم .

ويرد الحق – تبارك وتعالى – عليهم : { قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله . . . } [العنكبوت : 50] فهي عند الله ، ليست عندي ، وليست بالطلب حسب أهوائكم { وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [العنكبوت : 50] أي : هذه مهمتي ، واختار الإنذار مع أنه صلى الله عليه وسلم بشير ونذير ، لكن خَصَّهم هنا بالإنذار ، لأنهم أهل لِجَاج ، وأهل باطل وجحود ، فيناسبهم كلمة الإنذار دون البشارة ثم يقول الحق سبحانه : { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب . . . } .

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51)

والاستفهام هنا للتعجُّب وللإنكار ، يعني : كيف لا يكفيهم القرآن ولا يقنعهم وهو أعظم الآيات ، وقد أعجزهم أنْ يأتوا ولو بآية من آياته ، وجاءهم بالكثير من العِبر والعجائب؟ إذن : هم يريدون أنْ يتمحّكوا ، وألا يؤمنوا ، وإلا لو أنهم طلاب حَقٍّ باحثون عن الهداية لكفاهم من القرآن آية واحدة ليؤمنوا به .

وقوله تعالى : { يتلى عَلَيْهِمْ . . . } [العنكبوت : 51] لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه الوحي بعدة آيات ، وقد يطول إلى رُبْعين أو ثلاثة أرباع ، فلما أن يسري عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه ، يتلوه كما أُنزِل عليه ، فيكتبه الكتبة ، ويحفظه مَنْ يحفظه منهم ، وكانوا أمة رواية وأمة حفظ .

ثم يأتي وقت الصلاة فيصلي بهم رسول الله بما نزل عليه من الآيات ، يُعيدها كما أملاها ، وهذه

هبة ربانية منحها لرسوله صلى الله عليه وسلم وخاطبه بقوله : { سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى } [الأعلى : 6] .

وإلا ، فَلَك أن تتحدى أكثر الناس حِفْظاً أنْ يُعيد عليك خطبة أو كلمة ألقاها على مدى نصف ساعة مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها في المرة الأولى .

ثم يقول سبحانه : { إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى . . . } [العنكبوت : 51] لكن لمن { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت : 51] لأن القرآن لا يثمر إلا فيمن يُحسن استقباله ويؤمن به ، أما غير المؤمنين فهو في آذانهم وَقْر وهو عليهم عمى ، لا يفقهونه ولا يتدبرونه؛ لأنهم يستقبلونه لا بصفاء نفس ، وإنما ببُغْض وكراهية استقبال ، فلا ينالون نوره ولا بركته ولا هدايته .

لذلك يقول تعالى في الذين يُحسِنون استقبال كلام الله : { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ . . . } [فصلت : 44] .

أما الذين يجحدونه ولا يُحسنون استقباله ، فيقول عنهم : { والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . . } [فصلت : 44] .

وسبق أنْ قلنا : إن الفعل واحد ، لكن المستقبل مختلف ، ومثَّلْنا لذلك بمن ينفخ في يده ليُدفئها في البرد ، ومَنْ ينفخ في الشاي ليُبرده ، وأنت أيضاً تنفخ في الشمعة لتطفئها ، وتنفخ في النار لتشعلها .

وفي موضع آخر يقول تعالى : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . . } [الإسراء : 82] ، ففرْق بين الشفاء والرحمة ، الشفاء يعني : أنه كانت هناك علة ، فبرأت ، لكن الرحمة ألاَّ تعاودك العلة ، ولا يأتيك الداء مرة أخرى ، فالقرآن نزل ليعالج الداءات النفسية ، يعالجها بالقراءة ويُحصِّنك ضدها فلا تصيبك ، وإنْ وقعت في شيء من هذه الداءات فاقرأ ما جاء فيها من القرآن فإنها تبرأ بإذن الله ، إذن : الشفاء يعالج الداء إنْ وقع في غفلة من سلوك النفس .

ولو طبقنا قضايا القرآن في نفوسنا لنالتنا هذه الرحمة ، فالإنسان بدن وقيم ومعان وأخلاق ، هذه المعاني في الإنسان يسمونها النفسيات ، فقد يكون سليم البنية والجسم لكنه سقيم النفس؛ لذلك نجد بين تخصصات الطب الطب النفسي ، وكل مريض لا يجدون لمرضه سبباً عضوياً يُشخِّصونه على أنه مرض نفسي ، وحين تسأل الطبيب النفسي تجد أن كل ما عنده عقاقير تهديء المريض أو تهده فينام حتى لا يفكر في شيء ، وهل هذا هو العلاج؟

ولو تأملنا كتاب ربنا لوجدنا فيه العلاجيْن : العضوي والنفسي ، فسلامة الجسم في أن الله تعالى أحلّ لك أشياء ، وحرَّم عليك أشياء ، وما عليك إلا أنْ تستقيم على منهج ربك فتسلم من داءات الجسد ، فإنْ كنت من هؤلاء الذين يحبون الأكل من الحلال لكنهم يبالغون فيه إلى حَدِّ التُّخمة ، فاقرأ في القرآن :

{ يابني ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين } [الأعراف : 31] .

ثم تجد في السنة النبوية مُذكِّرة تفسيرية لهذه الآية : « بحسب ابن آدم لُقيْمات يُقمْنَ صُلْبه » ، فإنْ كان ولا بُدَّ : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

فالأصل أن يأكل الإنسان ليعيش ، لا أن يعيش ليأكل . وبعض السطحيين يقولون : ما معنى « ثلث لنفَسه » ، وهل النفَس في المعدة؟ والآن ، ومع تطور العلوم عرفنا أن تُخمة البطن تضغط على الحجاب الحاجز وتضيق مجال الرئة فينتج عن ذلك ضيق في التنفس .

أما الناحية النفسية ، فالمرض النفسي ناتج إما عن انقباض الجوارح عن طبيعة تكوينها ، أو انبساطها عن طبيعة تكوينها ، كالبيضة مثلاً لها حجم معين فإنْ ضيَّقْتَ هذا الحجم أو بسطته تنكسر .

وهذا أيضاً أساس الداء في النفس البشرية؛ لأن ملكات النفس ينبغي أنْ تظل في حالة توازن واستواء ، وتجد هذا التوازن في منهج ربك – عز وجل – حيث يقول سبحانه : { لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ . . . } [الحديد : 23] .

فمعنى : { لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ . . . } [الحديد : 23] الانقباض { وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ . . . } [الحديد : 23] الانبساط . وكلاهما مذموم منهيٌّ عنه ، لكن مَن ذا الذي لا يأسى على ما فات ، ولا يفرح بما هو آتٍ؟

لذلك نجد البُلَداء الذين لا تَهزهم الأحداث بصحة قوية؛ لأنهم لا يهتمون للخطوب ، حتى أن الشعراء لم يَفُتْهم هذا المعنى ، حيث يقول أحدهم :

وَفِي البَلادةِ مَا في العَزْمِ منْ جَلَد ... إنَّ البليد قويُّ النفْسِ عَاتيها

فَاسْأل أُولِي العَزْم إنْ خارتْ عزائمهمْ ... عَنِ البَلادةِ هَلْ مَادتْ رَوَاسِيهَا؟

فالذي تظنه بلادة هو عزم قويٌّ في استقبال الأحداث والصمود لها .

إذن : الرحمة في منهج الله إنِ التزمنا به نأمن من الأدواء ، ماديةً كانت أم معنوية .

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52)

(قُلْ) أي : للمنكرين لك { كفى بالله بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً . . } [العنكبوت : 52] أي : حسبي أن يشهد الله لي بأنِّي بلّغْتُ ، فشهادتكم عندي لا تنفع ، كما أنه لا ينفعني إيمانكم ، ولا يضرني كفركم ، فأجري آخذه من ربي على مجرد البلاغ وقد بلَّغْتُ ، وشهد الله لي بذلك .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : { وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . . . } [الرعد : 43] أي : أنكم لم تكتفوا بالآيات ، ولم تؤمنوا بها ، لكني أكتفي

برب هذه الآيات شهيداً بيني وبينكم ، إذن : هناك خصومة في البلاغ بين محمد صلى الله عليه وسلم وقومه الذين يُكذِّبونه في البلاغ عن ربه .

فلا بُدَّ إذن من فَصْل في هذه الخصومة ، وإذا ما نظرنا إلى قضايا الخَلْق في الخصومات وجدنا إمَّا أنْ يُقر المتهم ، وإما أن يشهد شاهد حَقٍّ لا شاهد زور ، ثم يعرض الأمر على القاضي ليحكم بالشهادة أو البينة .

ولا بُدَّ في القاضي ألاّ يكون صاحب هوى ، ثم يأتي دور تنفيذ الحكم ، وهي السلطة التنفيذية ، وهذه أيضاً ينبغي ألاَّ يكون لها هوى ، فتنفذ الحكم على حقيقته ، فكأن الخصومات عند البشر تمرُّ بمراحل متعددة ، وقد تتميع الحقائق إذا لم تتوفر الشروط اللازمة لهذه الأطراف ، فلو شهد الشاهد زوراً أو مال القاضي أو المنفِّذ للحكم ودلَّس في التنفيذ لانقلبت المسائل .

أما في حكومة الحق – سبحانه وتعالى – في الخصومة بين محمد وقومه ، فكفى به سبحانه حاكماً وقاضياً ومُنفِّذاً ، لماذا؟ لأنه سبحانه : { يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض . . . } [العنكبوت : 52] .

فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، يعلم السر وأَخْفى ، فأيُّ شهادة إذن أعدل من شهادته؟ وهو سبحانه قاضٍ عادل يحكم بالحق؛ لأنه ليس له سبحانه هوىً يميل به إلى الباطل ، وهو سبحانه لا يُبدل في تنفيذ الأحكام؛ لأنه يُنفّذ حكمه هو سبحانه .

إذن : مَنِ الفائز في حكومة قاضيها الحق – تبارك وتعالى – وأطراف الخصومة فيها محمد وقومه؟ فاز رسول الله في أن يكون الله هو الشهيد ، وخسر الكافرين حين كفروا به ، ولم تكْفِهم البينة التي جاءتهم في القرآن الكريم .

وعِلْم الله للغيب ليس علاجاً ومذاكرة ليعلم ، إنما تأتي الأمور بتوقيت منه قديم أزلاً ، والعالم يظهر على وَفْق ما يراه أزلاً؛ لذلك يقول سبحانه : { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] .

أي : يقول للشيء ، فكأنه موجود فعلاً ينتظر الأمر من الله بالظهور للناس ، فقوله (كُنْ) للظهور فقط ، أما مسألة الخَلْق فمنتهية أزلاً ، و (الماكيت) موجود ، فالحق سبحانه يعلم غَيْب السماوات والأرض ، أما نحن فلا نعلم حتى غَيْب أنفسنا .

ويقول سبحانه : { يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى } [طه : 7] فهل هناك أخفى من السر؟ قالوا : السر ما تُسِرُّه في نفسك ، والأخفى منه أنْ يعلمه سبحانه قبل أن يكون في نفسك .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى : { يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } [النور : 29] وقوله سبحانه : { يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ } [الأنبياء : 110] .

يقولون : ما وجه امتنان الله بعلم الجهر من القول ، وبعِلْم ما نُبدي ، فهذا شيء غير مستور

يعرفه الجميع؟

ونقول : افهم عن الله مراده ، فالمعنى لم يقُلْ سبحانه : أعلم ما تبدي أنت ، ولا ما تجهر به أنت ، إنما ما تبدون كلكم ، وما تجهرون به كلكم ، ولتوضيح هذه المسألة تصوَّر مظاهرة من عدة مئات أو عدة آلاف تختلط بينهم الهتافات والأصوات وتتداخل الكلمات ، بحيث لا تستطيع أن تميز صوت هذا من صوت ذاك .

لكن الحق سبحانه يستطيع تمييز هذه الأصوات ، وإعادة كل منها إلى صاحبه؛ لذلك نرى في المظاهرات أن كل إنسان يستطيع أن يقول ما يشاء ، ويهتف بما لا يجرؤ أن يهتف به منفرداً؛ لأن صوته سيختلط مع الأصوات ، ويستتر فيها فلا يعرف مصدره ، وهكذا يكون علم الجَهْر أقوى من علم الغَيْب .

فإنْ قلت : إن بعض العلماء باكتشافاتهم وبحوثهم توصلوا إلى معرفة أسرار كانت مستترة في الكون ، كالكهرباء والذرة وغيرها ، فهُمْ بذلك يعلمون الغيب . نقول : نعم ، علموا شيئاً كان مستوراً في الكون ، لكن علموه بمقدمات خلقها الله ويسَّرها لهم ، فأخذوا هذه المقدمات وتوصَّلوا بها إلى اكتشافاتهم ، كما يحلّ ولدك مثلاً تمرين الهندسة ، فيستعين بالمعطيات .

إذن؛ فهو في حقيقة الأمر ليس غيباً ، بل هو شيء موجود ، لكن له ميلاد ووقت يظهر فيه ، فإنْ جاء وقته يسَّر الله لخَلْقه الوصول إليه ، إما بالبحث واستخدام المقدمات ، فإذا صادف ميلاد السر بحث الخلق يُقال : إنهم أحاطواعِلْماً ببعض غيب الله .

ويقول تعالى : { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ . . . } [البقرة : 255] أي : شاء أنْ يُولد ، فإنْ جاء ميلاد السر ، ولم يتوصَّلوا إليه ببحوثهم ، ولم يقفوا على مقدماته كشفه الله لهم ولو مصادفة ، وقد اكتشفوا كثيراً من أسرار الكون مصادفة .

فالغيب الحقيقي : هو الذي ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، ولا يعلمه أحد إلا الله ، والذي قال الله عنه : { عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ . . . } [الجن : 26-27] فالرسول – إذن – لا يعلم الغيب ، إنما عُلِّم الغيب .

ثم يقول تعالى : { والذين آمَنُواْ بالباطل . . . } [العنكبوت : 52] أي : بعبادة ما دون الله من الأصنام والأوثان { وَكَفَرُواْ بالله . . . } [العنكبوت : 52] الخالق واجب الوجود { أولئك هُمُ الخاسرون } [العنكبوت : 52] لأن كفر الخَلْق بالخالق لا يؤثر في ذاته سبحانه ، ولا في صفات الكمال فيه ، لأنه سبحانه بصفات الكمال خلقهم ، فله سبحانه صفات الكمال ، آمنوا أم كفروا .

لكن فَرْق بين مَنْ يؤمن ومَنْ يكفر ، فالإنسان بطبعه حريص على الحياة متمسك بها ، حتى إنه إنْ أصابه مرض طلب العلاج ليصون حياته وهو يخاف الموت ، ويرى مصارع الناس من حوله ،

وكيف سبقه أجداده ولم يخلد منهم أحد ، ويرى أن الموت يأتي بلا أسباب؛ حتى قيل : والموت من غير سبب هو السبب .

إذن : فالموت حقيقة ، لكن يشكُّ الناس فيها ولا يتصورونها لأنفسهم لأنهم يكرهونها؛ لذلك يقال في الأثر : ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت .
وليقين الإنسان في الموت نراه يحب البقاء في ولده ، وفي ولد ولده ليبقى ذِكْره أطول فترة ممكنة ، وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا تؤمن بالله فيورثك الإيمانُ حياةً خالدة باقية لا نهايةَ لها ، لا تفارقها ولا تفارقك ، وهي حياة الآخرة . إذن : فمَن الخاسرون؛ الخاسرون هم الكافرون الذي قصروا حياتهم على عمرهم في الدنيا .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ . . . } .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53)

عجيب أنْ يطلب الإنسان لنفسه العذاب ، وأن يستعجله إن أبطأ عليه ، إذن : ما طلبه هؤلاء إلا لاعتقادهم أنه غير واقع بهم ، وإلا لو ووَثِقُوا من وقوعه ما طلبوه .
{ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب . . . } [العنكبوت : 53] لأن كل شيء عند الله بميقات ، وأجل ، والأجل يختلف باختلاف أصحابه وهو أجل الناس وأعمارهم ، وهي آجال متفرقة فيهم ، لكن هناك أجل يجمعهم جميعاً ، ويتفقون فيه ، وهو أجل الساعة .
فقوله تعالى : { فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف : 34] أي : بآجالهم المتفرقة . أما أجل القيامة فأجل واحد مُسمّى عنده تعالى ، ومن عجيب الفَرْق بن الأجلين أن الآجال المتفرقة في الدنيا تنهي حياة ، أمّا أجل الآخرة فتبدأ به الحياة .
والمعنى { وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب . . . } [العنكبوت : 53] أن المسألة ليست على هواهم ورغباتهم؛ لذلك يقول تعالى : { خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ . . . } [الأنبياء : 37] ويقول : { سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ } [الأنبياء : 37] .
لذلك « لما عقد النبي صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية بينه وبين كفار مكة ، ورضي أنْ يعود بأصحابه دون أداء فريضة العمرة غضب الصحابة وعلي وعمر ، ولم يعجبهم هذا الصلح ، وكادوا يخالفون رسول الله غيرةً منهم على دينهم ، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أم سلمة رضي الله عنها وقال : » هلك المسلمون « قالت : ولم يا رسول الله؟ قال : » أمرتهم فلم يمتثلوا « فقالت : يا رسول الله اعذرهم ، فهم مكروبون ، جاءوا على شَوْقٍ لبيت الله ، وكانوا على مقربة منه هكذا ، ثم يُمنعون ويُصدُّون ، اعذرهم يا رسول الله ، ولكن امْضِ فاصنع ما أمرك الله به ودَعْهم ، فإنْ هم رأوْكَ فعلتَ فعلوا ، وعلموا أن ذلك عزيمة .

وفعلاً ذهب رسول الله ، وتحلّل من عمرته ، ففعل القوم مثله » ، ونجحت مشورة السيدة أم سلمة ، وأنقذت الموقف .

« ثم بيَّن الله لهم الحكمة في العودة هذا العام دون قتال ، ففي مكة إخوان لكم آمنوا ، ويكتمون إيمانهم ، فإنْ دخلتم عليهم مكة فسوف تقتلونهم دون علم بإيمانهم .

وكان عمر – رضي الله عنه – كعادته شديداً في الحق ، فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق؟ قال : صلى الله عليه وسلم : » بلى « قال : أليسوا على الباطل؟ قال صلى الله عليه وسلم » بلى « قال : فَلِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ فقال أبو بكر : الزم غَرْزك يا عمر » . يعني قِف عند حدِّك وحجِّم نفسك ، ثم قال بعدها ليبرر هذه المعاهدة : ما كان فتح في الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية – لا فتح مكة .

لماذا؟ لأن الحديبية انتزعت من الكفار الاعترافَ بمحمد ، وقد كانوا معارضين له غير معترفين بدعوته ، والآن يكاتبونه معاهدة ويتفقون معه على رأي ، ثم إنها أعطت رسول الله فرصة للتفرغ لأمرالدعوة ونشرها في ربوع الجزيرة العربية ، لكن في وقتها لم يتسع ظنُّ الناس لما بين محمد وربه ، والعباد عادةً ما يعجلون ، والله – عز وجل – لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه .

ثم يقول تعالى : { وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } [العنبكوت : 53] يعني : فجأة ، وليس حسب رغبتهم { وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } [العنكبوت : 53] لا يشعرون ساعتها أم لا يشعرون الآن أنها حق ، وأنها واقعة لأجل مسمى؟

المراد لا يشعرون الآن أنها آتية ، وأن لها أجلاً مُسمى ، وسوف تباغتهم بأهوالها ، فكان عليهم أن يعلموا هذه من الآن ، وأن يؤمنوا بها . إذن : فليس المراد أنهم لا يشعرون بالبغتة؛ لأن شعورهم بالبغتة ساعتها لا ينفعهم بشيء .

ثم يقول الحق سبحانه : { يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب . . . . } .

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54)

أي : قُلْ لهم إنْ كنتم تستعجلون العذاب فهو آتٍ لا محالة ، وإنْ كنتم في شوق إليه فجهنم في انتظاركم ، بل ستمتلئ منكم وتقول : هل من مزيد؟ والعذاب يتناسب وقدرة المعذِّب قوة وضعفاً ، وإحاطة وشمولاً ، فإذا كان المعذِّب هو الله – عز وجل – فعذابه لا يُعذِّبه أحد من العالمين .

ومعنى { لَمُحِيطَةٌ بالكافرين } [العنكبوت : 54] الإحاطة أن تشمل الشيء من جميع جهاته ، فالجهات أربع : شمال وجنوب وشرق وغرب ، وبين الجهات الأصلية جهات فرعية ، وبين الجهات الفرعية أيضاً جهت فرعية ، والإحاطة هي التي تشمل كل هذه الجهات .

ومن ذلك قوله تعالى : { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . . . } [الكهف : 29] يعني : من كل جهاتهم .

ومن عجيب أمر النار في الآخرة أن النار في الدنيا يمكن أنْ تُعذِّب شخصاً بنار تحوطه لا يستطيع أنْ يُفلت منها ، لكن النار بطبيعتها تعلو؛ لأن اللهب يتجه إلى أعلى ، أما إنْ كانت تحت قدمك فيمكنك أنْ تدوسها بقدمك ، كما تطفئ مثلاً (عُقْب) السيجارة ، فحين تدوسه تمنع عنه الأكسوجين ، فتنطفئ النار فيه ، أما في نار الآخرة فتأتيهم من كل جهاتهم : { يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب . . . } .

يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

وفي موضع آخر يقول سبحانه : { لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ } [الزمر : 16] .

وهاتان الجهتان لا تأتي منهما النار في الدنيا؛ لأن النار تطبيعتها تصعد إلى أعلى ، وإنْ كانت تحت القدم تنطفيء . إذن : هذا ترقٍّ في العذاب ، حيث لا يقتصر على الإحاطة من جميع جهاته ، إنما يأتيهم أيضاً من فوقهم ومن تحتهم .

لكن قد يتجلَّد المعذَّب للعذاب ، ويتماسك حتى لا تشمت فيه ، وهذا يأتيه عذاب من نوع آخر ، عذاب يُهينه ويُذلُّه ، ويُقال له : { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم } [الدخان : 49] لذلك وصف العذاب ، بأنه : مهين ، وأليم ، وعظيم ، وشديد .

وقوله تعالى : { وَيِقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [العنكبوت : 55] لم يقل : ذوقوا النار ، إنما ذوقوا ما عملتم ، كأن العمل نفسه سيكون هو النار التي تحرقهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { ياعبادي الذين . . . } .

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56)

بعد أنْ تحدَّث الحق سبحانه عن الكفار والمكذِّبين أراد أنْ يُحدِث توازناً في السياق ، فحدَّثنا هنا عن المؤمنين ليكون أنكى للكافرين ، حين تردف الحديث عنهم ، وعما يقع لهم من العذاب بما سينال المؤمنين من النعيم ، فتكون لهم حسرة شديدة ، فلو لم يأخذ المؤمنون هذا النعيم لكانَ الأمر أهونَ عليهم .

وقوله تعالى : { ياعبادي . . . } [العنكبوت : 56] سبق أن قُلْنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد الله ، وعبيد الله قسمان : مؤمن وكافر ، وكل منهما جعله الله مختاراً : المؤمن وعبيد الله قسمان : مؤمن وكافر ، وكل منهما جعله الله مختاراً : المؤمن تنازل عن اختياره لاختيار ربه ، وفضَّل مراده

سبحانه على مراد نفسه ، فصار عبداً في كل شيء حتى في الاختيار ، فلما فعلوا ذلك استحقوا أن يكونوا عبيداً وعباداً لله .

أما الكافر فتأبَّى على مراد ربه ، واختار الكفر على الإيمان ، والمعصية على الطاعة ، ونسي أنه عبد الله مقهور في أشياء لا يستطيع أن يختار فيها ، وكأن الله يقول له : أنت أيها الكافر تمرَّدْتَ على ربك ، وتأبَّيْتَ على منهجه في (افعل) و (لا تفعل) ، واعتدْتَ التمرد على الله . فلماذا لا تتمرد عليه فيما يُجريه عليك من أقدار ، لماذا لا تتأبَّى على المرض أو على الموت؟ إذن : فأنت في قبضة ربك لا تستطيع الانفلات منها .

وعليه ، فالمؤمن والكافر سواء في العبودية لله ، لكن الفرْق في العبادية حيث جاء المؤمن مختاراً راضياً بمراد الله ، وفَرْق بين عبد يُطيعك وأنت تجرُّه في سلسلة ، وعبد يخدمك وهو طليق حُرٌّ . وهكذا المؤمن جاء إلى الإيمان بالله مختاراً مع إمكانية أنْ يكفر ، وهذه هي العبودية والعبادية معاً .

ومعنى { إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ . . . } [العنكبوت : 56] يخاطبهم ربهم هذا الخطاب وهم في الأرض وفي سعتها ، ليلفت أنظارهم أنهم سيضطهدون ويُعذَّبون ، وسيقع عليهم إيذاء وإيلام ، فيقول لهم : إياكم أن تَصِرْفكم هذه القسوة ، إياكم أنْ تتراجعوا عن دعوتكم ، فإذا لم يناسبكم هذا المكان فاذهبوا إلى مكان آخر فأرضي واسعة فلا تُضيِّقوها على أنفسكم .

لذلك يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأرض لله ، والعباد كلهم لله ، فإنْ أبصرتَ خيراً فاقِمْ حيث يكون » .

فالذي نعاني منه الآن هو هذه الحدود وهذه القيود التي وضعناها في جغرافية أرض الله ، فضيَّقنا على أنفسنا ما وسَّعه الله لنا ، فأرْضُ الله الواسعة ليست فيها تأشيرات دخول ولا جوازات سفر ولا (بلاك لست) .

لذلك قلنا مرة في الأمم المتحدة : إنكم إنْ سعيتُم لتطبيق مبدأ واحد من مبادئ القرآن فلن يوجد شر في الأرض ، ألا وهو قوله تعالى : { والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ } [الرحمن : 10] .

والمعنى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، فإن ضاق رزقك في مكان فاطلبه في مكان آخر ، وإلا فالذي يُتعِب الناس الآن أن توجد أرض بلا رجال ، أو رجال بلا أرض ، وها هي السودان مثلاً بجوارنا ، فيها أجود الأراضي لا تجد مَنْ يزرعها ، لماذا؟ للقيود التي وضعناها وضيَّقنا بها على أنفسنا .

وصدق الشاعر حين قال :

لَعْمرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلادٌ بأهلِها ... ولكنَّ أخْلاق الرجَالِ تَضِيقُ

ثم يقول سبحانه { فَإِيَّايَ فاعبدون } [العنكبوت : 56] فإنْ أخذنا بمبدأ الهجرة فلا بُدَّ أن

نعلم أن للهجرة شروطاً أولها : أنْ تهاجر إلى مكان يحفظ عليك إيمانك ولا ينقصه ، وانظر قبل أنْ تخرج من بلدك هل ستتمكن في المهجر من أداء أمور دينك كما أوجبها الله عليك؟ فإنْ كان ذلك فلا مانع ، وإلا فلا هجرةَ لمكان يُخرِجني من دائرة الإيمان ، أو يحول بيني وبين أداء أوامر ديني .

وهل يُرضيك أنْ تعيش لتجمع الأموال في بلاد الكفر ، وأنْ تدخل عليك ابنتك مثلاً وفي يدها شاب لا تعرف عنه شيئاً قد فُرِض عليك فَرْضاً ، فقد عرفته على طريقة القوم ، ساعتها لن ينفعك كل ما جمعت ، ولن يصلح ما جُرِح من كرامتك .

وسبق أن أوضحنا أن الهجرة قد تكون إلى دار أَمْن فقط ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتأمن ألاَّ يفتنك عنه أحد ، ومن ذلك الهجرة التي أمر بها رسول الله إلى الحبشة ، وهي ليست أرْضَ إيمان ، بل أرض أَمْن .

وقد عَّلل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بالهجرة إليها بقوله : « إن فيها مَلِكاً لا يُظْلَم عنده أحد » وقد تبيَّن بعد الهجرة إليها صِدْق رسول الله ، وكأنه على علم تام بالبيئة المحيطة به وبأحوال أهلها .

لذلك لم يأمرهم مثلاً بالهجرة أو أطراف الجزيرة العربية؛ لأنها كانت خاضعة لقريش بما لها من سيادة على الكعبة ، فلا يستطيع أحد أنْ يحمي مَنْ تطلبه قريش ، حتى الذين هاجروا بدينهم إلى الحبشة لم يَسْلَموا من قريش ، فقد أرسلتْ إلى النجاشي مَنْ يكلمه في شأنهم ، وحملوا إليه الهدايا المغرية ليسلمهم المهاجرين من المؤمنين بمحمد ، لكن لم تفلح هذه الحيلة مع الملك العادل الذي راود الإيمانُ قلبه ، فأحب المؤمنين ودافع عنهم ورفض إعادتهم ويقال : إنه آمن بعد ذلك ، ولما مات صلَّى عليه رسول الله .

أما الهجرة إلى المدينة بعد الهجرة إلى الحبشة فكان لدار أَمْن وإيمان معاً ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتتمكن فيها من نشره والدعوة إليه ، وتجد بها إخواناً مؤمنين يُواسُونك بأموالهم ، وبكل ما يملكون ، وقد ضرب الأنصار في مدينة رسول الله أروع مثل في التاريخ في المواساة ، فالأنصاري كان يرى أخاه المهاجر ترك أهله في مكة ، وله إرْبة وحاجة للنساء ، فيُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، فانظر ماذا فعل الإيمان بالأنصار .

وفي قوله سبحانه { فَإِيَّايَ فاعبدون } [العنكبوت : 56] أسلوب يُسمُّونه أسلوب قَصْر ، مثل قوله تعالى : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتحة : 5] .

وفَرْق بين أنْ نقول : نعبدك . و (إياك نعبد) : نعبدك لا تمنع أنْ نعبد غيرك ، أمّا (إيَّاك نَعْبد) فتقصر العبادة على الله – عز وجل – ، ولا تتجاوزه إلى غيره .

فالمعنى – إذن : إنْ كنت ستهاجر فلتكُن هجرتك لله ، وقد فسَّرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف : « فَمْن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت

هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .
ثم يقول الحق سبحانه : { كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت . . . } .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57)

يعني : إنْ كنتم ستقولون – وقد قالوا بالفعل – ليس لنا في المدينة دار ولا عقار ، وليس لنا فيها مصادر رزق ، وكيف نترك أولادنا وبيئتنا التي نعيش فيها ، فاعلموا أنكم ولا بُدَّ مفارقون هذا كله ، فإنْ لم تُفارقوها وأنتم أحياء فسوف تفارقونها بالموت؛ لأن { كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت . . . } [العنكبوت : 57] .
ومَنْ يدريكم لعلكم تعودون إلى بلدكم مرة أخرى ، كما قال الله لرسوله : { إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ . . . } [القصص : 85] .
وعلى فَرْض أنكم لن تعودوا إليها فلن يُضيركم شيء؛ لأنكم لا بُدَّ مفارقوها بالموت . وكأن الحق – تبارك وتعالى – يخفف عنهم ما يلاقونه من مفارقة الأهل والوطن والمال والأولاد .
كما أننا نلحظ في قوله سبحانه { كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت . . . } [العنكبوت : 57] بعد { إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ . . . } [العنكبوت : 56] أن الخواطر التي يمكن أن تطرأ على النفس البشرية حين يُشرّع الله أمراً يهيج هذه الخواطر مثل { إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ . . . } [العنكبوت : 56] وما تثيره في النفس من حب الجمع والتملّك يجعل لك مع الأمر ما يهبّط هذه الخواطر . { كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت . . . } [العنكبوت : 57] حتى لا نطمعَ في حطام الدنيا ، ويُلهينا إغراء المال والهجرة لجمعه ، فالنهاية بعد ذلك كله الموت ، وفقدان كل ما جمعت .
وهذه القضية واضحة في قوله سبحانه : { إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا . . . } [التوبة : 28] .
فلما أراد الله تعالى أن يُنهي وجود المشركين في البيت الحرام علم سبحانه أن المسلمين سيحسبون النتيجة المادية لمنع المشركين من دخول الحرم ، وأنها ستؤثر على تجارتهم وأرزاقهم في مواسم التجارة والحج .
لذلك قال بعدها مباشرة : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ . . . . } [التوبة : 28] فساعةَ يقرأونها في التشريع يعلمون أن الله اطَّلع على ما في نفوسهم ، وجاءهم بالردِّ عليه حتى لا يتكلموا به ، وهذا يعني أن التشريع يأتي ليعالج كل خواطر النفس ، فلا ينزعك من شيء تخافه إلا ومع التشريع ما يُذهِب هذه المخاوف .
{ والذين آمَنُواْ . . . } .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58)

هذه في مقابل : { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . . . } [العنكبوت : 54-55] وذكر المقابل لزيادة النكاية بالكافرين ، كما يقول سبحانه : { إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار : 13-14] .

فجَمْع المتقابلين يزيد من فَرْحة المؤمن ، ويزيد من حَسْرة الكافر .

ومعنى { لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً . . . } [العنكبوت : 58] أي : نُنزلهم ونُمكّنهم منها ، كما جاء في قوله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم : { وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ المؤمنين مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ . . . } [آل عمران : 121] يعني : تُنزِلهم أماكنهم .

والجنة تُطلق على الأرض ذات الخضرة والأشجار والأزهار في الدنيا ، كما جاء في قوله سبحانه : { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ . . . } [البقرة : 266] .

وقوله سبحانه : { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة . . . } [القلم : 17] .

وقوله سبحانه : { واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ . . . } [الكهف : 32] .

فإذا كانت جنة الدنيا على هذه الصورة من الخِصْب والنماء والجمال ، وفيها أسباب القُوت والترف ، إذا كان ذلك في دنيا الأسباب التي نراها ، فما بالك بما أعدَّه الله لخَلْقه في الآخرة؟

ومن عجائب الجنة أنها { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . . } [العنكبوت : 58] ونحن نعرف أن أنهار الدنيا تجري خلالها عبر الشُّطان التي تحجز الماء ، أمّا في الجنة فتجري أنهارها بلا شُطآن .

لذلك لما كنا نسافر إلى بلاد المدنية والتقدّم ، ونرى زخارف الحياة وترفها كنتُ أقول لمن معي : خذوا من هذا النعيم عِظَة ، فهو ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالكم بما أعدَّه ربُّ البشر للبشر؟

فإذا رأيتَ نعيماً عند أحد فلا تحقد عليه ، بل ازْدَدْ به يقيناً في الله تعالى ، وأن ما عنده أعظم من هذا . أَلاَ ترى أن الحق – تبارك وتعالى – حينما يخبرنا عن الجنة يقول : { مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون . . . } [محمد : 15] فيجعلها مثلاً؛ لأن ألفاظ اللغة لا تؤدي المعاني التي في الجنة ولا تَصِفها .

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر » فكل ما جاء فيها ليس وصفاً لها إنما مجرد مثَل لها ، ومع ذلك لما أعطانا المثل للجنة صَفّى المثل من شوائبه ، فقال : { فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى . . . } [محمد : 15] ويكفي أن تعلم أن نعيم الجنة يأتي مناسباً لقدرة وإمكانيات المنعِم سبحانه .

وقوله سبحانه { خَالِدِينَ فِيهَا . . . } [العنكبوت : 58] لأن النعيم مهما كان واسعاً ، ومهما تعددتْ ألوانه ، فيُنغِّصه ويُؤرِّق صاحبه أن يزول إما بالموت وإما بالفقر ، أما نعيم الجنة فدائم لا يزول ولا ينقطع ، فلا يفوتك ولا تفوته ، كما قال سبحانه : { لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ } [الواقعة : 33] لا يُكدِّرها شيء .

إذن : فالرابح مَنْ آثر الآخرة على الدنيا؛ لأن نعيم الدنيا مآله إلى زوال ، ولا تقُلْ : إن عمر الدنيا كم مليون سنة ، إنما عمرها مدة بقائك أنت فيها ، وإلا فماذا تستفيد من عمر غيرك؟
ثم إنك تتمتع في الدنيا على قدر إمكاناتك ومجهوداتك ، فنعيم الدنيا بالأسباب ، لكن نعيم الآخرة بالمسبِّب سبحانه ، لذلك ترى نعيماً صافياً لا يُنغِّصه شيء ، فأنت ربما تأكل الأكْلة في الدنيا فتسبِّب لك المتاعب والمضايقات ، كالمغص والانتفاخ ، علاوة على ما تكرهه أثناء قضاء الحاجة للتخلُّص من فضلات هذه الأكلة .
أما في الآخرة فقد أعدَّ الله لك الطعام على قَدْر الحاجة ، بحيث لا تكون له فضلات ، لأنه طُهِي بكُنْ من الله تعالى .
لذلك سُئِل أحد علماء المسلمين : تقولون : إن الجنة تأكلون فيها ، ولا تتغوطون ، فكيف ذلك؟ فقال : ولم التعجب ، أَلاَ تروْنَ الجنين في بطن أمه يتغذى وينمو ولا يتغوط؛ لأن الله تعالى يعطيه غذاءه على قدر حاجته للنمو ، فلا يبقى منه فضلات ، ولو تغوَّط في مشيمته لمات في بطن أمه .
وقوله تعالى : { نِعْمَ أَجْرُ العاملين } [العنكبوت : 58] نعم ، نعْم هذا الأجر؛ لأنك مكثْتَ إلى سِنَّ التكليف ترْبَع في نعم الله دون أنْ يُكلِّفك بشيء ، ثم يعطيك على مدة التكليف أجراً لا ينقطع ، ولا نهاية له ، فأيُّ أجر أَسْخى من هذا؟ ويكفي أن الذي يقرِّر هذه الحقيقة هو الله ، فهو سبحانه القائل : { نِعْمَ أَجْرُ العاملين } [العنكبوت : 58] .
ثم يقول الحق سبحانه : { الذين صَبَرُواْ . . . } .

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)

فهذه من صفات العاملين { الذين صَبَرُواْ . . . } [العنكبوت : 59] فلا تظن أن العمل ما كان في بحبوحة العيش وترَف الحياة ، فالعامل الحق هو الذي يصبر ، وكلمة { الذين صَبَرُواْ . . . } [العنكبوت : 59] تدل على أنه سيتعرَّض للابتلاء ، كما قال سبحانه : { أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } [العنكبوت : 2] .
فالذين اضطهدوا وعُذِّبوا حتى اضطروا للهجرة بدينهم صبروا ، لكن هناك ما هو أكبر من الصبر؛ لأن خَصْمك من الجائز أنْ يصبر عليك ، فيحتاج الأمر إلى المصابرة؛ لذلك قال سبحانه

{ اصبروا وَصَابِرُواْ } [آل عمران : 200] ومعنى : صابره . يعني : تنافس معه في الصبر . والصبر يكون على آفات الحياة لتتحملها ، ويكون على مشقة التكاليف ، وعلى إغراء المعصية ، يقولون : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصدق الشاعر حين قال :

وَكُنْ رجلاً كالضِّرس يرسُو مكَانَهُ ... لِيَمْضُغَ لاَ يَعْنيه حُلْو ولاَ مُرّ

فالمعنى { الذين صَبَرُواْ . . . } [العنكبوت : 59] على الإيذاء { وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [العنكبوت : 59] أي : في الرزق ، وكان المهاجرون عند هجرتهم يهتمون لأمر الرزق يقولون : ليس لنا هناك دار ولا عقار ولا . . إلخ . فأراد سبانه أنْ يُطمئِن قلوبهم على مسألة الرزق ، فقال { وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [العنكبوت : 59] .

فالذي خلقك لا بُدَّ أنْ يخلق لك رزقك ، ومن عجيب أمر الرزق أن رزقك ليس هو ما تملك إنما ما تنتفع به حقيقة ، فقد تملك شيئاً ويُسرق منك ، وقد يُطهى لك الطعام ، ولا تأكله ، بل أدقّ من ذلك قد تأكله ولا يصل إلى معدتك ، وربما يصل إلى المعدة وتقيئه ، وأكثر من ذلك قد يتمثل الغذاء إلى دم ثم ينزف منك في جُرْح أو لدغة بعوضة أو غير ذلك؛ لأن هذا ليس من رزقك أنت ، بل رزق لمخلوق آخر .

إنك تعجب حينما ترى التمساح مثلاًعلى ضخامته وخوف الناس منه ، ومع ذلك تراه بعد أنْ يأكل يخرج إلى اليابسة ، حيث يفتح فمه لصغار الطيور ، فتتولى تنظيف ما بين أسنانه من فضلات الطعام ، وترى بينهما انسجاماً تاماً وتعاوناً إيجابياً ، فحين يتعرض التمساح مثلاً لهجمة الصياد يُحدِث صوتاً معيناً يفهمه التمساح فيسرع بالهرب .

فانظر من أين ينال هذا الطير قوته؟ وأين خبأ الله له رزقه؟ لذلك يقولون (اللي شَقُّه خلق لقُّه) .

وسبق أن ضربنا مثلاً على خصوصية الرزق بالجنين في بطن أمه ، فحينما تحمل الأم بالجنين يتحول الدم إلى غذاء للطفل ، فإنْ لم تحمل نزل هذا الدم ليرمي به دون أنْ تستفيد منه الأم ، لماذا؟ لأنه رِزْق الجنين ، وليس رزقها هي .

لذلك نجد الآية بعدها تقول : { وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ . . . } .

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

يريد سبحانه أن يُطمئن خَلْقه على أرزاقهم ، فيقول { وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ . . . } [العنكبوت : 60] كأيٍّ لها مَعَانٍ متعددة ، مثل كم الخبرية حين تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك؟ يعني : كثيراً جداً ، كذلك في { وَكَأَيِّن . . . } [العنكبوت : 60] أي : كثير كما في { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ . . . } [آل عمران : 146] .

والدابة : هي التي تدبّ على الأرض ، والمراد كل حيٍّ ذي حركة ، وقد تقول : فالنمل – مثلاً

– لا نسمع له دبَّة على الأرض أيُعَدُّ من الدابة؟ نعم فله دبَّة على الأرض ، لكنك لا تسمعها ، فالذي خلقها يسمع دبيبها؛ لأن الذي يقبل الصغر يقبل الكبر ، لكن ليس عندك أنت آلة السماع .

بدليل أن الذي يعاني من ضعف السمع مثلاً ينصحه الطبيب بتركيب سماعة للأذن فيسمع ، وكذلك في النظارة للبصر ، إذن : فكل شيء له أثر مرئي أو مسموع ، لكن المهم في الآلة التي تسمع أو ترى؛ لذلك يقولون إنْ أرادوا المبالغة؛ فلان يسمع دَبّة النملة .

ومعنى { وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا . . . } [العنكبوت : 60] ليست كلّ الدواب تحمل رزقها ، فكثير منها لا تحمل رزقاً ، ومع ذلك تأكل وتعيش ، ويحتمل أن يكون المعنى : لأنها لا تقدر على حمله ، أو تقدر على حمله ولكنها لا تفعل ، فمثلاً القمل والبراغيث التي تكثر مع الإهمال في النظافة الشخصية أتحمل رزقاً؟ والناموسة التي تتغذى مع ضَعْفها على دم الإنسان الفتوة المتجبر ، الميكروب الذي يفتك بالإنسان . . إلخ هذه أشياء لا تحمل رزقها .

أما الحمار مثلاً مع قدرته على الحمل لا يحمل رزقه؛ لذلك تراه إنْ شبع لا يدخر شيئاً ، وربما يدوس الأكل الباقي ، أو يبول عليه ، وكذلك كل الحيوانات حتى أنهم يقولون : لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل .

وقد جعل الله الادخار في هؤلاء لحكمة ولبيان طلاقة قدرته تعالى ، وأن الادخار عند هذه المخلوقات ليس قُصوراً من الخالق سبحانه في أن يجعل بعض الدوابّ لا تحمل رزقها ، بل يخلق لها وسائل تعجز أنت عنها .

ولك أن تتأمل قرى النمل وما فيها من عجائب ، فقد لاحظ الباحثون في هذا المجال أنك لو تركت بقايا طعام مثلاً تأتي نملة وتحوم حوله ثم تنصرف وترسل إليه عدداً من النمل يستطيع حمل هذه القطعة ، ولو ضاعفت وزن هذه القطعة لتضاعف عدد النمل .

إذن : فهي مملكة في غاية التنظيم والدقة والتخصص ، والأعجب من ذلك أنهم لاحظوا على النمل أنها تُخرِج فُتاتاً أبيض صغيراً أمام الأعشاش ، فلما فحصوه وجدوه الزريعة التي تُسبِّب الإنبات في الحبة حتى لا تنبت ، فتهدم عليهم العُشَّ ، فسبحان الذي خلق فسوَّى والذي قدَّر فهدى .

وأعجب من ذلك ، وجدوا النمل يفلق حبة الكسبرة إلى أربعة أقسام ، لأن نصف حبة الكسبرة يمكنه أنْ يَنبت منفرداً ، فقسموا النصف .

إذن : فكثير من الدواب لا تحمل رزقها { الله يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ . . . } [العنكبوت : 60] فذكر الدواب أولاً في مجال الرزق ثم عطف عليها { وَإِيَّاكُمْ . . . } [العنكبوت : 60] فنحن معطوفون في الرزق على الدواب ، مع أن الإنسان هو الأصل ، وهو المكرّم ، والعالم كله خُلِق

من أجله لخدمته ، ومع ذلك لم يقُلْ سبحانه : نحن نرزقكم وإياهم ، لماذا؟ قالوا : لأنك تظن أنها لا تستطيع أن تحمل أو تُدبِّر رزقها ، ولا تتصرف فيه ، فلفت نظرك إلى أننا سنرزقها قبلك .

وقد وقف المستشرقون الذين يأخذون القرآن بغير الملَكة العربية يعترضون على قوله تعالى : { وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . . . } [الإسراء : 31] .

وقوله سبحانه : { وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ . . . } [الأنعام : 151] .

يقولون : أيّهما أبلغ من الأخرى ، وإن كانت إحداهما بليغة ، فالأخرى غير بليغة .

وهذا الاعتراض ناتج عن ظنهم أن الآيتين بمعنى واحد ، وهما مختلفتان ، فالأولى { وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . . . } [الإسراء : 31] فالفقر هنا غير موجود وهم يخافونه ، أما في : { وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ . . . } [الأنعام : 151] فالفقر موجود فعلاً . فهما مختلفتان في الصَّدْر ، وكذلك مختلفتان في العَجُز .

ففي الأولى قال : { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم . . . } [الإسراء : 31] لأن الفقر غير موجود ، وأنت غير مشغول برزقك ، فبدأ بالأولاد ، أمّا في الثانية فقال : { نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . . } [الأنعام : 151] وقدم الآباء؛ لأن الفقر موجود ، والإنسان مشغول أولاً برزق نفسه قبل رزق أولاده .

إذن : فلكل آية معنى وانسجام بين صَدْرها وعَجُزها ، المهم أن تتدبر لغة القرآن ، وتفهم عن الله مراده .

وقوله سبحانه : { وَهُوَ السميع العليم } [العنكبوت : 60] واختار هنا السميع العليم؛ لأن الحق سبحانه له قيُّومية على خَلْقه ، فلم يخلقهم ثم يتركهم للنواميس ، إنما خلق الخَلْق وهو سبحانه قائم عليه بقيوميته تعالى؛ لذلك يقول في بيان عنايته بصنعته { لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ . . . } [البقرة : 255] يعني : يا عبادي ناموا مِلْءَ جفونكم؛ لأن ربكم لا ينام .

ومناسبة السميع هنا؛ أن الجوع إذا هَزَّ إنساناً ربما يصيح صيحة ، أو يُحدث شيئاً يدل على أنه جائع ، فكأنه يقول : لم أجعلكم كذلك .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات . . . } .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61)

يقول تعالى للذين لا تكفيهم آية القرآن التي نزلت على رسول الله ، ويطلبون منه آيات أخرى ، يقول لهم : لقد جعل الله لكم الآيات في الكون قبل أنْ يرسل الرسل ، آيات دالة على الإعجاز في السماوات وفي الأرض ، فهل منكم مَنْ يستطيع أنْ يخلق شيئاً منها مهما صَغُر؟

إن خلق السماوات والأرض معجزة كونية لا تنتهي ، فلماذا تطلبون المزيد من الآيات ، وما

جعلها الله إلا لبيان صِدْق الرسل في البلاغ عن الله ليؤمن الناس بهم .

لذلك يقول سبحانه في الرد عليهم : { هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ . . . } [لقمان : 11] فخلْق السماوات والأرض والشمس والقمر إعجاز للدنيا كلها ، وخصوصاً الكفرة فيها .

ومسألة الخَلْق هذه من الوضوح بحيث لا يستطيع أحد إنكارها – كما سبق أنْ أوضحنا – لذلك يقولون هنا في إجابة السؤال { لَيَقُولُنَّ الله . . . } [العنكبوت : 61] وهذا الاعتراف منهم يستوجب من المؤمن أنْ يحمد الله عليه ، فيقول : الحمد لله أن اعترفوا بهذه الحقيقة بأنفسهم ، الحمد لله الذي أنطقهم بكلمة الحق ، وأظهر الحجة التي تبطل كفرهم .

وقوله تعالى { فأنى يُؤْفَكُونَ } [العنكبوت : 61] أي : كيف بعد هذا الاعتراف ينصرفون عن الله ، وينصرفون عن الحق؟

{ الله يَبْسُطُ الرزق . . . } .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62)

{ يَبْسُطُ الرزق . . . } [العنكبوت : 62] : يُوسِّعه ، { وَيَقْدِرُ . . . } [العنكبوت : 62] يعني يضيق ، وآفة الناس في هذه المسألة أنهم لا يفسرون الرزق إلا بالمال ، والرزق في الواقع كل ما ينتفع به الإنسان ، فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والجبروت رزق ، والاستكانة رزق ، وإتقان الصَّنْعة رزق . . إلخ .

والله سبحانه يُوسِّع الرزق لِمَنْ يشاء ، ويُضيِّقه على مَنْ يشاء ، فالذي ضُيِّق عيه يحتاج لمن بسط له ، وكذلك يبسط الرزق في شيء ويُضيِّقه في شيء آخر ، فهذا بسط له في العقل مثلاً ، وضيق عليه في المال .

فكأن الحق – سبحانه وتعالى – نثر مواهب الملكات بين خَلْقه ، لم يجمعها كلها في واحد ، وسبق أن أوضحنا أن مجموع الملكات عند الجميع متساوية في النهاية ، فَمنْ بُسِط له في شيء ضُيِّق عليه في آخر؛ ليظل المجتمع مربوطاً برباط الاحتياج ، ولا يستغني الناس بعضهم عن بعض ، وحتى تتكامل المواهب بين الناس ، فتساند لا تتعاند .

إذن : فالحق – سبحانه وتعالى – حين يبسط الرزق لعبد ، ويَقْدره على آخر ، لا يعني هذا أنه يحب الأول ويكره الآخر ، ولو نظرتَ إلى كل جوانب الرزق وزوايا العطاء لوجدتها متساوية .

وحين نتأمل قوله سبحانه : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . . } [الزخرف : 32] فأيُّ بعض مرفوع؟ وأيُّ بعض مرفوع عليه؟ الكل مرفوع في جهة اختصاصه ، ومرفوع عليه في غير جهة اختصاصه ، إذن : فالجميع سواء .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لهذه القضية . وقلنا : إن العظيم الذي يسكن القصر يحتاج إلى العامل البسيط الذي يصلح له دورة المياه ، وينقذه من الرائحة الكريهة التي يتأفف منها ، فيسعى هو إليه ويبحث عنه ، وربما ذهب إليه في محل عمله وأحضره بسيارته الفارهة ، بل ويرجوه إنْ كان مشغولاً .

ففي هذه الحالة ، ترى العامل مرفوعاً على الباشا العظيم ، فلا يظهر الرفع إلا في وقت الحاجة للمرفوع .

وأيضاً لو لم يكُنْ بين الناس غني وفقير ، مَنْ سيقضي لنا المصالح في الحقل ، وفي المصنع ، وفي السوق . . إلخ لا بُدَّ أنْ تُبنى هذه المسائل على الاحتياج ، لا على التفضُّل . إذن : إنْ أردت أن تقارن بين الخَلْق فلا تحقِرنَّ أحداً؛ لأنه قد يفضل عليك في موهبة ما ، فتحتاج أنت إليه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السمآء . . . } .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63)

وهنا أيضاً قالوا { الله } لأن إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها آية كونية واضحة لم يدَّعِها أحد ، فهي ثابتة لله تعالى ، لا يُنكرها أحد حتى الكافرون ، فلئن سألتهم هذا السؤال { لَيَقُولُنَّ الله . . . } [العنكبوت : 63] لذلك يأمرنا الحق سبحانه بأن نقول بعد هذا الإقرار { قُلِ الحمد لِلَّهِ . . . } [العنكبوت : 63] الذي أنطقهم بالحق ، وأقام عليهم الحجة { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } [العنكبوت : 63] لأنهم أقرُّوا بآيات الله في خَلْق الكون ، ومع ذلك كفروا به .

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64)

الحياة : نعرفها بأنها ما يكون في الإنسان الأعلى في الوجود من حِسٍّ وحركة ، فإذا انتهى حِسُّه وحركته لم تَعُدْ له حياة ، وهذه الحياة موصوفة هنا بأوصاف ثلاثة : دنيا ولهو ولعب ، كلمة دنيا تدل على أن مقابلها عُلْيا فساعة تسمع هذا الوصف « الحياة الدنيا » فاعلم أن هذا الوصف ما جاء إلا ليميزها عن حياة أخرى ، تشترك معها في أنها حياة لله إلا أنها حياة عليا ، هذه الحياة العُلْيا هي التي قال عنها ربنا – تبارك وتعالى – « الدار الآخرة » .

وإنْ كنا قد عرَّفنا الحياة الدنيا بأنها الحِسُّ والحركة في الإنسان ، فالواقع عند التقنين أن لكل شيء في الوجود حياةً تُناسب مهمته ، بدليل قوله تعالى حين يُنهي هذه الحياة : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . } [القصص : 88] .

فما يُقال له شيء لا بُدَّ أنْ يطرأ عليه الهلاك ، والهلاك تقابله الحياة ، بدليل قوله سبحانه : { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . } [الأنفال : 42] .

فالحياة ضد الهلاك ، إلا أنك تعرف الحياة عندك بالحس والحركة ، وكذلك الحياة في كل شيء بحسبه ، حتى في الجماد حياة نلحظها في أن الجبل يتكون من أصناف كثيرة من الحجارة ، ترتقي مع الزمن من حجارة إلى أشياء أخرى أعلى من الحجارة وأثمن ، وما دامت يطرأ عليها هذا التغيير فلا بُدَّ أن فيها حياةً وتفاعلاً لا ندركه نحن .

إذن : فكل شيء له حياة ، لكن الآفة أننا نريد حياة كالتي فينا نحن ، وأذكر نحن في مراحل التعليم قالوا لنا : هناك شيء اسمه المغناطيس ، وعملية اسمها الممغنطة ، فحين تُمغنط قطعة من الحديد تُكسِبها قدرة على جَذْب قطعة أخرى وفي اتجاه معين ، إذن : في الحديد حياة وحركة وتفاعل ، لكن ليس عندك الآلة التي تدرك بها هذه الحركة ، وفيها ذرات داخلية لا تُدرَك بالعين المجردة تم تعديلها بالمغنطة إلى جهة معينة .

واقرأ قوله تعالى : { وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . . } [فصلت : 21] فللجوارح نفسها حياة ، ولها كلام ومنطق ، لكن لا ندركه نحن؛ لأن حياتها ليست كحياتنا . إنك لو تتبعتَ مثلاً طبقاً أو كوباً من البلاستيك لوجدته تغيَّر لونه مع مرور الزمن ، وتغيُّر اللون فيه يدل على وجود حياة وحركة بين ذراته ، ولو لم تكُنْ فيه حياة لكان جامداً مثل الزجاج ، لا يطرأ عليه تغيُّر اللون .

والحق – تبارك وتعالى – يصف الدار الآخرة بأنها { الحيوان . . } [العنكبوت : 64] وفرْق بين الحياة والحيوان ، الحياة هي هذه التي نحياها في الدنيا يحياها الأفراد ، ويحياها النبات ، ثم تؤول إلى الموت والفناء ، أمّا الحيوان فيعني الحياة الأرقى في الآخرة؛ لأنها حياة باقية حياة حقيقية .

والحق – سبحانه وتعالى – أعطانا صورة للحياة الدنيا ، الحياة المادية في قوله تعالى عن آدم

{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . . } [الحجر : 29] فمن الطين خَلق آدم ، وسوَّاه ونفخ فيه من روحه تعالى ، فدبَّتْ فيه الحياة المادية .

لكن هناك حياة أخرى أسمى من هذه يقول الله عنها : { يأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ . . . } [الأنفال : 24] فكيف يخاطبهم بذلك وهم أحياء؟ لا بُدَّ أن المراد حياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، المراد حياة الروح والقيم والمنهج الذي يأتي به رسول الله .

لذلك سمَّى المنهج روحاً { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا . . . } [الشورى : 52] وسمَّى الملَك الذي نزل به روحاً : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193] .

إذن : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان . . . } [العنكبوت : 64] أي : الحياة الحقيقية التي لا تفوتها ولا تفوتك ، ولا يفارقك نعيمها ، ولا يُنغِّصه عليك شيء ، كما أن التنعُّم في الدنيا على قَدْر إمكاناتك وأسبابك ، أمّا في الآخرة فالنعيم على قَدْر إمكانات المنعم سبحانه وتعالى .

ثم يأتي وَصْف الدنيا بأنها لَهْو ، ولَعِب ، وهما حركتان من حركات جوارح الإنسان ، لكنها حركة لا مَقصدَ لها إلا الحركة في ذاتها دون هدف منها؛ لذلك نقول لمن يعمل عملاً لا فائدة منه « عبث » .

إذن : اللهو واللعب عبث ، لكن يختلفان من ناحية أخرى ، فاللعب حركة لا فائدة منها ، لكنه لا يصرفك عن واجب يعطي فائدة ، كالولد حين يلعب ، فاللعب لا يصرفه عن شيء إذن : فاللعب لمن لم يبلغ ، أمّا البالغ المكلف فاللعب في حقِّه يسمى لَهْواً ، لأنه كُلِّف فترك ما كُلِّف به إلى ما لم يكلّف به ، ولَهَا عن الواجب ، ومنه : لَهْو الحديث .

فقوله تعالى { وَمَا هذه الحياة الدنيآ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ . . . } [العنكبوت : 64] أي : إنْ جُرِّدت عن الحياة الأخرى حياة القيم التي تأتي باتباع المنهاج .

وقوله : { لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] يُحتمل أن تكون الجملة هنا امتناعية يعني : امتنع علمهم بها ، أو تكون تمنياً يعني : يا ليتهم يعلمون هذه الحقيقة ، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة؛ لأنهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربهم لينالوا كُلَّ هذا العطاء الممتدّ ، ولَسلكوا طريق الإيمان بدل طريق الكفر ، فكأن المعنى أنهم لم يعرفوا .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك . . . } .

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65)

ينقلنا السياق هنا من الكلام عن حقيقة كل من الدنيا والآخرة إلى الحديث عن الفُلْك ، فما العلاقة بينهما؟

المتكلم هنا هو الله تعالى ، وواضع كل شيء في موضعه ، ولا يغيب عنك أنه لا بُدَّ أنْ تتدبر كلام الله لتفهم مراده ، فالله لا يريدنا مُقبلين على ظاهر القرآن فحسب ، إنما أنْ نتعمق في فهمه وتأمله ، وننظر في معطياته الحقيقية : { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن . . . } [النساء : 82] .

والعلاقة هنا أن الآية السابقة جاءتْ لتقرر أن الدنيا دار لهو ولعب لا فائدة منها إذا ما بَعُدت عن منهج الله ، ولم تحسب حساباً لحياة أخرى هي الحياة الحقيقية وهي الحيوان ، فكان على العاقل أنْ يحرص على الآخرة ، وأنْ يعمل لها باتباع منهج الله في الدنيا .

إذن : فالدنيا ليست غاية ، بل هي وسيلة ، وأنت أيها الذي أعرضتَ عن منهج ربك جلعتَ الدنيا غايتك ، والدنيا إنْ كانت هي الغاية فما أتفهها من غاية ، إنما اجعلها وسيلة للآخرة ومزرعة لدار الحيوان . وكذلك الحال في الفُلْك ، فهي وسيلة تُوصِّلك إلى هدف ، وإلى غاية ،

وليست هي غاية في حَدِّ ذاتها .
{ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين . . . } [العنبكوت : 65] والفلك : السفينة ، وتُطلق على المفرد وعلى الجمع ، فيقول تعالى : { وَيَصْنَعُ الفلك . . . } [هود : 38] وقوله { دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين . . . } [يونس : 22] واضح من السياق أنها ليستْ دعوة الحمد ، كأن يقولوا مثلاً { سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ } [الزخرف : 13] بل هي دعوة الاضطرار بعد أنْ تعرَّضوا لشدة وعطب لا تنجيهم منها أسبابهم ، بدليل قوله تعالى بعدها : { فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت : 65] .
فهذه تعطينا أنهم ركبوا في السفينة ، فلما تعرَّضوا للعطب ، وضاقتْ بهم أسبابهم دعوا الله مخلصين له الدين .
وفي لقطة أخرى يقول القرآن : { حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين } [يونس : 22] .
فمعنى { أُحِيطَ بِهِمْ . . . } [يونس : 22] أي : لا يوجد لهم مفر ولا مهرب ولا مفزع يفزعون إليه إلا أنْ يتوجهوا إلى الله بدعاءخالص ويقين إيمان في أنهم لا ملجأ لهم إلا الله ، وقد كانوا في أول الرحلة فرحين بمركبهم مسرورين به ، وساعتها لم يكُن الله في بالهم ، إنما لما ضاقت بهم الحيل عادوا إلى الحق ، فالوقت لا يحتمل المراوغة .
لأن الإنسان عادةً لا يخدع نفسه ، فحتى الكافر حين تضيق به أسباب النجاة يلجأ بالفطرة إلى الله الحق ، وينسى آلهته ومعبوداته من دون الله؛ لأنه لا يسلم نفسه أبداً ، ولا يتمادى حينئذ في كذبة الآلهة والأصنام .
لذلك : { دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين .

. . } [العنكبوت : 65] دعوة خالصة بيقين ثابت في الإله الحق ، دعوة لا تشوبها شائبة شرك ، لا ظاهر ، ولا خفي ، فلا ينفع في هذا الوقت إلا الله المعبود بحقٍّ .
وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثَل من حياتنا الواقعية ، قلنا : إن حلاق الصحة كان يقوم بدور الطبيب في القرية ، وله بين الناس نفس مكانة الطبيب في وقت لم يكُنْ هناك أطباء ، فلما خرَّجَتْ كلية الطب أطباء وانتشروا في القرى كان الحلاق أول المهاجمين للطبيب؛ لأنه يزاحمه في رزقه ، ويصرف الناس عنه؛ لذلك كان يذم في الطبيب ويُشكِّك في خبرته وقدراته .
لكن لما مرض ابنه ، وارتفعت درجة حرارته ، وخاف عليه قال لزوجته : انتظري إلى ظلام الليل لأذهب به إلى الطبيب – يعني : في غفلة الناس .
فالإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولا يسلمها إذا جدَّ الجد ، وفيه فطرة إيمانية إذا ما صفيتها في

الذات البشرية لا تجد في النهاية إلا قوة واحدة هي قوة الله .
حتى الملاحدة حين تضيق بهم الأسباب يقولون : يا رب ، يا الله . يقولونها من تلقاء أنفسهم ، دون مرور بالعقل الذي أنكروا به وجود الله . وهذا يعني أن الفطرة الإيمانية قد تحجبها الأغيار البشرية وتلغيها ، فإذا ما نامت الأغيار البشرية وتلاشتْ لحدثٍ من الأحداث ظهرتْ الفطرة الإيمانية على السطح تلهمك بلا شعور .
لذلك نلحظ في قوله سبحانه : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ . . . } [الأعراف : 172] شهدوا لأنهم ما يزالون في عالم الذر ، لا تتحكم فيهم الأغيار البشرية { أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ . . . } [الأعراف : 172-173] .
والله خلق الإنسان خليفة له في الأرض ، وسخر له كل هذا الكون ، فإنْ ظلَّ متمسكاً بهذا المنهج ، ووقف عند حد الخلافة يفوز ، أما إنْ ظن أنه أصيل في الكون يخيب ويخسر ، لكن الله الذي خلقه يعلم الأغيار فيه وهو خَلْقه وصنعته؛ لذلك وجهه : أنت خليفتي في أرضي ، وعليك أن تنظر إلى ما طُلِب منك فتؤديه ، وإلا فسدت حياتك وتصادمت مع الآخرين؛ لأنك لست وحدك فيها ، ولكي تنسجم مع غيرك لا بُدَّ أن تسير وَفْق منهجي ، وفي دائرة قوانين من استخلفك .
ثم يُنبّهه من ناحية أخرى : يقول أنت أيها الإنسان ، اعلم أن الأسباب ستستجيب لك ، فإياك أن تظن أن لك قدرةً عليها ، أو أن لك جاهاً وعظمة ، فتنسى أنك خليفة؛ لذلك يقول سبحانه : {كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6 – 7] احذر حين تتم لك الأمور وتطاوعك الأسباب { إِنَّ إلى رَبِّكَ الرجعى } [العلق : 8] فسوف يقابلك من الأحداث ما لا تستطيع أسبابك أنْ تدفعَها ، ولن تجد مرجعاً إلا إليَّ .
وكيف يطغى الإنسان وقد أعطاه الله فيضاً من فيض كماله ، أعطاه قدرة من قدرته ، وعلماً من علمه .

. إلخ فإذا نظرتَ نظرة بسيطة في فيوضات الله عليك لوجدتها كثيرة ، بالله ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ، أو أن تُحرِّك يدك أو رِجْلك؟ لا شيء ، بمجرد أن تريد تنفعل لك أعضاؤك ، وتطاوعك من حيث لا تدري .
وسبق أنْ قارنّا بين حركة الإنسان وحركة الحفار مثلاً ، وكيف أنه يحتاج إلى عمليات مُعقدة ، فكل حركة منه لها زرّ خاص يؤديها ، فماذا تفعل أنت إنْ أردتَ أنْ تؤدي مثل هذه الحركات؟ إنك بمجرد الإرادة ينفعل لك العضو ، وكأن فيك فيضاً من قوله تعالى : { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ

شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] فإذا كنتَ أنت تفعل بمجرد أن تريد ، فلماذا لا تصدق هذا في حقِّ الله تبارك وتعالى؟

لكن هذه الحركة وانفعال الأعضاء لك ليس ذاتياً فيك ، ويستطيع خالقك أنْ يسلبها منك ، فتريد أن ترفع يدك فلا تستطيع ، فأنت تحت قيوميته تعالى ، فلم يُعطِكَ من صفاته ، ثم يتركك . . فربنا سبحانه يحذرنا : إذا استغنيتَ ستَطغى؛ فتنبَّه أن إلى ربك الرُّجْعى .

ثم يلفت نظرنا من الآن إلى قضية أخرى قبل أنْ نتعرض للمخاطر : { وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ . . . } [يونس : 107] فلا تتعب نفسك ، وتذهب هنا أو هناك؛ لأنه { فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ . . . } [يونس : 107] .

هذه نصيحتي لك؛ لأنك صنعتي ، وأنا أحب أن تكون صنعتي على أرقى ما تكون من الكمال ، فإذا مسَّك ضر لا تقدر على دَفْعه بأسبابك ، فعليك بباب ربك .

هذه ثلاث قضايا أو نصائح نقدمها لك قبل أنْ تحلَّ بك الأحداث والمصائب : إن استغنيت ستطغى ، وأن إلى ربك الرجعى ، وإذا مسَّك ضر ، ولا حيلةَ لك في دفعه بأسبابك ، فليس لك إلا الله تفزع إليه ، والإله الذي يُنبِّهنا إلى المخاطر لنتلافاها إله رحيم .

إذن : فأنتم تحبون الحياة ، ولما نزلتْ بكم الأحداث والخطوب في السفينة خِفْتم الموت ، ودعوتُم الله بالنجاة ، فأنتم حريصون على الحياة الدنيا ، فلماذا لا تؤمنون بالله فتنالون حياة أخرى أبْقى وأدوم؟ والطريق إليها بالإيمان واليقين ، وبمنهج الله في (افعل) و (لا تفعل) .

هذه قضية ذكرها القرآن ، أمَّا واقع الحياة فقد أكدها ، وجاءت الأحداث وَفْق ما قال . القضية : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ . . . } [يونس : 12] الإنسان يعني مُطْلق الإنسان : المؤمن والكافر { أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً . . . } [يونس : 12] يعني : في كل الأحوال ، فلما جاءه الخطر وأصابه الضر دعا الله على أيِّ حال كان .

وهذه الأحوال تمثل مراحل راحات النفس ، فمثلاً حين تسير وأنت تحمل شيئاً ، فحين تتعب أولاً تضع عنك هذا الحِمْل ، ثم تتوقف عن السير لتستريح ، فإنْ كان التعب أشد تقعد ، وإلا تَضطجع على جنبك .

فأنت في وضع الوقوف تحمل ثقل الجسم كله على القدمين فتكون الراحة أقل ، أمّا في حالة القعود يُوزع ثقل الجسم على الوركين والمقعدة ، وفي الاضطجاع يُوزع نصف الجسم على نصفه فتكون الراحة أكبر ، وفي ضوء هذا نفهم أن الله يستجيب لك حين تدعوه قائماً ، أو قاعداً ، أو على جنبك .

وعجيب أمر الإنسان إذا نجَّاه الله مما يخاف وكشف عنه الضر عاد مرة أخرى ظالماً لنفسه : { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . } [يونس : 12] .

وفي لقطة أخرى يقول تعالى في هذه المسألة : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ . . . } [الزمر : 8] أيُّ ضر { دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ . . . } [الزمر : 8] ويا ليته نسي وسكت إنما { وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً . . . } [الزمر : 8] فقال : الفضل لفلان ، وقد استغثت بفلان ، ولجأت إلى فلان .

نلحظ أن الكلام في هذه الآيات عن الإنسان المفرد ، والإنسان حين يتضرع إلى الله لا يطلع عليه أحد ، فالأمر بينه وبين ربه ، لكن الحق سبحانه يريد أن يفضح الناس ببعض ، فيقول في موضع آخر : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . . } [الإسراء : 67] .

فذكر الجماعة ليفضحهم أمام بعض؛ لأن الإنسان يستر على نفسه ، فالحكمة من الجمع هنا أن رؤية الناس قد تكون مانعة من الشر ، فمثلاً في موسم الحج ترى أكابر القوم وأوسطهم وأدناهم سواسية في الطواف ، ويقف الواحد منهم يبكي عند الملتزم ، وحين يراك صاحب المنصب أو المركز وهو مَنْ هو في بلده ساعة يعرف أنك رأيته وهو يبكي في هذا الموقف تراه يتواضع لك ، ولا يتعالى عليك بعدها .

فالحق سبحانه حين يُحذِّرنا من العودة إلى المعصية بعد أنْ يكشف عنا الضر إنما يعطينا المصل الواقي بصورة تحدث في الواقع ، وكأنه تعالى يقول لنا : خذوا بالكم ، واعلموا أنكم مفضوحون بكتاب الله فيما تُحدثون من أحداث في حياتكم ، فكل منكم ينبغي أنْ يعلم أنه مراقب من الأزل ومكتوبة عليه خواطره؛ لأن معنى القرآن الحق أنه لا يتغير ، وإذا قال الله فيه شيئاً فلا بُدَّ أنْ يحدث كما أخبر الله به .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66)

واللام في { لِيَكْفُرُواْ . . . } [العنكبوت : 66] ليست لام التعليل؛ لأن الكفر لم يكُنْ مقصداً لهم ، وحين عادوا بعد أن نجاهم الله إنما عادوا إلى أصلهم ، فاللام هنا لام الأمر كما لو قلت : قم يا زيد وليقم عمرو ، وعلامة لام الأمر أن تكون ساكنة ، وهي هنا مكسورة لأنها في بداية الكلام ، حيث لا يُبدأ بساكن ، ولو وضعنا قبلها حرفاً لتبيَّن سكونها .

ومثالها في قوله تعالى : { وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق } [الحج : 29] .

وقوله سبحانه : { لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ الله . . . } [الطلاق : 7] .

والدليل على أنها لام الأمر سكون اللام بعدها في قراءة من سكنها ، وفي { وَلِيَتَمَتَّعُواْ . . . } [العنكبوت : 66] وقوله سبحانه : { فَسَوْفَ يَعلَمُونَ } [العنكبوت : 66] فرْق في الاستقبال بين السين وسوف ، فلو قال : فسيعلمون لَدلَّتْ على التهديد في المستقبل القريب ،

وأنه سيحل بهم العذاب في الدنيا ، أمّا « سوف » فتدلّ على المستقبل البعيد ، فتشمل التهديد في الدنيا وفي الآخرة فهي تستغرق الزمن كله؛ لأن المسلمين في باديء الأمر كانوا مستضعفين ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، وذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون منه أن يستنصر الله لهم فلو قال حينئذ في تهديد الكفار « فسيعلمون » لم تكن مناسبة ، إنما أعطى الأمد الأوسع للتهديد ، فقال : { فَسَوْفَ يَعلَمُونَ } [العنكبوت : 66] .

لذلك تجد الدقة في أخْذ العهد من الأنصار للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن الرسول للأنصار ، فلما قابلوا رسول الله قالوا : خُذْ لنفسك . قال : تحمونني مما تحمون منه أنفسكم وأعراضكم وأموالكم .

فقالوا : فما لنا إنْ فعلنا؟ كان من الممكن أن يقول لهم : ستملكون الأرض أو ستنشر دعوة الله بكم وتنتصرون على عدوكم ، لكن هذه الوعود قد يراها بعضهم ، ويموت بعضهم قبل أنْ تتحقق ، فلا يرى منها شيئاً؛ لذلك ذكر لهم جزاءً يستوي فيه الجميع مَنْ يعيش منهم ، ومَنْ يموت ، فقال : « لكم الجنة » .

وأيضاً حين يصرفهم عن دنيا الناس إلى أمر يكون في الدنيا أيضاً ، فهي صفقة خاسرة ، إنما أراد أنْ يصرفهم عن دنيا الناس إلى شيء أعظم مما في دنيا الناس ، وليس هناك أعظم من دنيا الناس إلا الجنة .

والصحابي الذي أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بأن الجنة جزاء الشهيد ، وكان يمضغ تمرة في فمه فقال : يا رسول الله ، أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أُقتل في سبيل الله؟ قال : بلى ، فألقى التمرات وبادر إلى ساحة القتال يستعجل هذا الجزاء .

إذن : فسوف صالحة للزمن المستقبل كله ، أمّا السين فللقريب؛ لذلك يستخدمها القرآن في مسائل الدنيا ، كما في قوله تعالى : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ . . . } [فصلت : 53] .

وهذه الرؤية ممتدة من زمن رسول الله ، وإلى أنْ تقوم الساعة ، فكل يوم يجدُّ في ظواهر الكون أمور تدل على قدرة الله تعالى ، فمستقبل أسرار الله في كونه لا تنتهي أبداً إلا بالسر الأعظم في الآخرة ، ففي زمن رسول الله قال

{ سَنُرِيهِمْ . . . } [فصلت : 53] وستظل كذلك { سَنُرِيهِمْ . . . } [فصلت : 53] إلى أنْ تقوم الساعة .

ونلحظ أن المصاحف ما زال في رسمها كلام حتى الآن ، فهنا { وَلِيَتَمَتَّعُواْ . . . } [العنكبوت : 66] تجد تحت اللام كسرة ، مع أنها ساكنة ، وهذا يعني أن كتاب الله غالب ، وليس هناك محصٍ له .

وأذكر أن سيدنا الشيخ عبد الباقي رضي الله عنه وجزاه الله عَمَّا قدَّم للإسلام خير الجزاء – أعدَّ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وحاول أن يحصي ألفاظه لا سيما لفظ الجلالة (الله) الذي من أجله أعدَّ هذا الكتاب ، ومع ذلك نسي لفظ الجلالة في البسملة ، وبدأ من { الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين } [الفاتحة : 2] ؛ لذلك نقص العدد عنده واحداً . وما ذلك إلا لأن كتاب الله أعظم وأكبر من أنْ يُحاط به .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً . . . } .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67)

(رأى) قلنا : تأتي بصرية ، وتأتي بمعنى عَلِم ، ومنه قولنا في الجدال مثلاً أرى في الموضوع الفلاني كذا وكذا ، ويقولون : (وَلِرَأىَ الرؤْيا انْمِ ما لِعَلِمَا) ، وتجد في أساليب القرآن كلاماً عن الرؤيا المخاطب بها غير راء للموضوع ، كما في قوله سبحانه مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل } [الفيل : 1] .

ومعلوم أن النبي لم يَرَ ما حدث من أمر الفيل؛ لأنه وُلِد في هذا العام فرأى هنا بمعنى علم ، لكن لماذا عدل عن (ألم تعلم) إلى (ألم تر) ؟ قالوا : لأن المتكلم هنا هو الله تعالى ، فكأنه يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : إذا أخبرتُك بشيء ، فإن إخباري لك به أصدق من رؤيتك .

يقول سبحانه : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ . . . } [العنكبوت : 67] فالحرم آمِن رغم ما حدث له من ترويع قبل الإسلام حين فزّعه أبرهة ، وفي العصر الحديث لما فزَّعه (جهيمان) ، وعلى مَرِّ العصور حدثتْ تجاوزات في الحرم تتناقض في ظاهرها مع هذا الأمن .

ونقول : كلمة { حَرَماً آمِناً . . . . } [العنكبوت : 67] في القرآن بالنسبة للكعبة فيها ثلاث إطلاقات : فالذين يعيشون فيه وقت نزول هذه الآيات يرَوْنَ أنه حرم آمن ، وهذا الأمن موهوب لهم منذ دعوة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – .

فحين دعا ربه : { رَّبَّنَآ إِنِي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . . . } [إبراهيم : 37] كان مكاناً خالياً ، لا حياة فيه وغير مسكون ، ومعنى ذلك أنه لم تكُنْ به مُقوِّمات الحياة ، فالإنسان لا يبني ولا يستقر إلا حيث يجد مكاناً يأمن فيه على نفسه ، ويتوفر له فيه كل مُقوِّمات حياته .

لذلك دعا إبراهيم ربه أنْ يجعل هذا المكان بلداً آمناً يعني يصلح لأنْ يكون بلداً ، فقال : { رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً } [البقرة : 126] .

وبلد هنا نكرة تعني : أيْ بلد لمؤمنين أو لكافرين ، فلما استجاب الله له ، وجعلها بلداً كأيِّ بلد

تتوفر له مُقوِّمات الحياة دعا مرة أخرى : { رَبِّ اجعل هذا البلد آمِناً . . . } [إبراهيم : 35] أي : هذه التي صارت بلداً أريد لها مَيْزة على كل البلاد ، وأمناً أزيد من أمن أيّ بلد آخر ، أمناً خاصاً بها ، لا الأمن العام الذي تشترك فيه كل البلاد ، لماذا؟ لأن فيها بيتك .

لذلك يرى فيها الإنسان قاتلَ أبيه ، ولا يتعرَّض له حتى يخرج ، فالجاني مؤمَّن إنْ دخل الحرم ، لكن يُضيق عليه أسباب الحياة حتى يخرج ، حتى لا يجترئ الناس على بيت الله ويفسدون أمنه ، ومن هذا الأمن الخاص ألاَّ يصاد فيه ، ولا يُعْضَد شجرة ، ولا يُروَّع ساكنه .

وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يقول للمشركين : لماذا لا تؤمنون بهذا الدين الذي جعل لكم بلداً آمناً ، في حين يُتخطف الناس من حولكم؟ لماذا لا تحترمون وجودكم في هذا الأمن الذي وهبه الله لكم .

وعجيب منهم أن يقولوا كما حكى القرآن عنهم : { وقالوا إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ . . . } [القصص : 57] كيف وقد حَمَيْناكم أيام كنتم مشركين تعبدون الأصنام ، أنترككم بعد أنْ تؤمنوا مع رسول الله .

وقصة هذا الأمن أولها في حادثة الفيل ، لما جاء أبرهةُ ليهدم بيت الله ويُحوِّل الناس إلى بيت بناه باليمن ، فردَّ الله كيدهم ، وجعلهم كعصف مأكول ، وحين نقرأ هذه السورة على الوَصْل بما بعدها تتبين لنا العِلَّة من هذا الأمن ، ومن هذه الحماية ، اقرأ : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } [الفيل : 1–5] لماذا؟ { لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف } [قريش : 1–2] .

فالعلة في أن جعلهم الله كعصف مأكول { لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ } [قريش : 1] لأن اللام في (لإيلاَف) للتعليل ، وهي في بداية كلام فالعلة في أن الله لم يُمكِّن الأعداء من هدم البيت لتظلّ لقريش مهابتها ومكانتها بين العرب ، ومهابتها مرتبطة بالبيت الذي يقصده الناس من كل مكان .

وهذه المكانة تُؤمِّن تجارة قريش في رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، لا يتعرَّض لهم أحد بسوء ، وكيف يجترىء أحد عليهم أو يتعرّض لتجارتهم وهم حُماة البيت؟

فمعنى { لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ } [قريش : 1] أن الله أهلك أبرهة وجنوده ولم يُمكِّنهم من البيت لتظل لقريش ، وليُديم الله عليها أنْ يُؤْلَفوا وأنْ يُحبُّوا من الناس جميعاً ، ويواصلوا رحلاتهم التجارية الآمنة .

لذلك يقول تعالى بعدها { فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 3–4] فكان من الواجب عليهم أن يعبدوا رب البيت الذي وهبهم هذه النعم ،

فما هم فيه من أمن وأمان وطعام وشراب ليس بقوتهم ، إنما بجوارهم لبيت الله ، ولبيت الله قداسته عند العرب ، فلا يجرؤ أحد منهم على الاعتداء على تجارة قريش .

فقولهم لرسول الله : { ان نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ . . . } [القصص : 57] حجة لله عليهم ، ففي الوقت الذي يُتخطّف الناس فيه من حولهم كانوا هم في أمان ، فهي حجة عليهم .

ثم إن الشرط هنا { إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ . . . } [القصص : 57] غير مناسب للجواب { نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ . . . } [القصص : 57] فما دمتم قلتم عن الدين الذي جاءكم به محمد أنه هدى – يعني هدى لله – فكان يجب عليكم أنْ تؤمنوا به لو تأكد لديكم أنه هدى ، وإلا فأنتم كاذبون في هذا القول ، ولِمَ لا وأنتم تُكذِّبون القرآن وتقولون عنه افتراءوكذب وسحر ، والآن تقولون عنه هدى ، وهذا تناقض عجيب .

ألم يقولوا { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] ومعنى هذا أن القرآن لا غبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على هذا الرجل بالذات .

وقوله تعالى { أفبالباطل يُؤْمِنُونَ .

. . } [العنكبوت : 67] أي : بالأصنام { وَبِنِعْمَةِ الله يَكْفُرُونَ } [العنكبوت : 67] قال { وَبِنِعْمَةِ الله } [العنكبوت : 67] ولم يقل مثلاً : وبعبادة الله ، أو بالإيمان بالله يكفرون؛ لأن إيمانهم لو لم يكُنْ له سبب إلا نِعمَ الله عليهم أنْ يُطعِمهم من جوع ، ويُؤمنهم من خوف لكان واجباً عليهم أنْ يؤمنوا به .

والباطل مقابل الحق ، وهو زَهُوق لا دوامَ له ، فسرعان ما يفسد وينتهي ، فإنْ قلتَ ما دام أن الباطل زهوق وسينتهي ، فما الداعي للمعركة بين حَقٍّ وباطل؟

نقول : لولا عضة الباطل للمجتمع لما استشرفَ الناس للحق ينقذهم ، فالباطل نفسه جُنْد من جنود الحق ، كما أن الكفر جُنْد من جنود الإيمان ، فلولا الكفر وما يفعله الكافرون بالناس لما اشتاق الناس للإيمان ، الذي يُوفِّر لهم الأمن والطمأنينة والراحة والمساواة .

كما أن معنى كَفَرَ يعني ستر الإله الواجب الوجود ، والسَّتْر يحتاج إلى مستور ، فما هو المستور بالكفر؟ المستور بالكفر الإيمان ، فكلمة كفر نفسها دليلُ وجود الإيمان .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان قد يكره بعض الأشياء ، وهي لمصلحته ولحكمة خلقها الله ، ومثَّلْنا لذلك بالألم الذي يتوجّع منه الإنسان ، وهو في الحقيقة تنبيه له واستنهاض ليعلم سبب هذ الألم ويتنبه ، فيدفع المرض عن نفسه ، ويطلب له الدواء .

فالألم بهذا المعنى جُنْد من جنود العافية ، وإلاَّ فأفتَكُ الأمراض بالبشر ما ليس له ألم يُنبّه إليه ، فيظل كامناً في الجسم حتى يستفحل أمره ، وتعزّ مداواته؛ لذلك يصفونه بالمرض الخبيث؛ لأنه

يتلصَّص في الجسم دون أنْ يظهر له أثر يدل عليه .

فالحق – سبحانه وتعالى – خلق الألم لحكمة؛ ليُنبِّهك أن في موضع الالم عطباً ، وأن الجارحة التي تألم غير صالحة لأداء مهمتها؛ لذلك يقولون في تعريف العافية : العافية ألاَّ تشعر باعضائك ، لك أسنان تأكل بها ، لكن لا تدري بها ، وربما لا تتذكر هذه النعمة إلا إذا أصابها عَطَب فآلمتك .

إذن : حين تعلم جارحتك وتتألم ، فاعلم أنها غير طبيعية ، وأنها لا تؤدي مهمتها كما ينبغي ، فعليك أنْ تبادر بعلاجها .

وأيضاً حين يزدهر الباطل ، وتكون هل صَوْلة ، فإنما ذلك ليُشعرك بحلاوة الحق ، فتستشرف له وتتمناه . لذلك انتشر الإسلام في البلاد التي فيها أغلبية إسلامية ، لا بالسيف كما يحلو للبعض أن يقول ، إنما انتشر برؤية الناس لمبادئه وسماحته .

ففي بلاد فارس والروم ذاق الناسُ هناك كثيراً من المتاعب من دياناتهم ومن قوانينهم ، فلما سمعوا عن الإسلام ومبادئه وسماحة تعاليمه أقبلوا عليه .

فلولا أن الباطل عضَّهم لما لجأوا للإيمان ، فالإسلام انتشر انتشاراً عظيماً في نصف قرن من الزمان ، ولم يكن هذا نتيجة الاندفاع الإيماني ليدخل الناس في الإسلام ، إنما لجذْب الضلال للإيمان ، فكأن الإسلام مدفوع بأمرين : أهله الحريصون على انتشاره ، وباطل يجذب الناس إليه .

والحق – سبحانه وتعالى – يعطينا مثلاً للحق وللباطل في قوله تعالى :

{ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال } [الرعد : 17] .

فالزبَد : هو القشّ والفُتات الذي يحمله الماء ، فيكون طبقة على سطح الماء ، ثم يزيحه الهواء إلى الجوانب ، ويظل الماء بعده صافياً ، فالزبَد مثلٌ للباطل؛ لأنه يعلو على سطح الماء ، لكن إياك أن تظن أنه ذو شأن ، أو أن عُلوه سيدوم؛ لأنه غثاء لا قيمة له ، وسرعان ما يزول ويبقى الماء النافع ، وكما يتكون الزبَد على سطح الماء كذلك يتكوَّن عند صَهْر المعادن ، فحين يصهر الصائغ مثلاً الذهب أو الفضة يخرج المعدن الأصيل تاركاً على الوجه الخبَث الذي خالطه .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الله تعالى لا يترك الحق ، ولا يُسْلِمه أبداً للباطل ، إنما يتركه لحين ليبلو غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا على الحق غار هو سبحانه عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افترى عَلَى الله . . . } .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (68)

هذا استفهام يريد منه الحق – سبحانه وتعالى – قضية يُقرها المقابل ، فلم يوردها بصيغة الخبر : لا أظلم؛ لأن الخبر في ذاته يحتمل الصدق أو الكذب ، فجاء بصيغة الاستفهام لتنطق أنت بالقضية ، كما تقول لمن ينكر معروفك : مَنْ أعطاك هذا الثوب؟ فلا يملك إلا أنْ يعترف بفضلك ، لكن إنْ قلت له إخباراً : أنا أعطيتُك هذا الثوب ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وربما ينكر فيقول : لا لم تعطني شيئاً .

إذن : إيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى في تقرير واقع من أسلوب الخبر؛ لأن الخبر يأتي من المتكلم ، أمّا الإقرار فمن السامع ، وأنت لا تُلقِي بالاستفهام إلا وأنت واثق أن الجواب سيأتي على وَفْق ما تريد .

فمعنى { وَمَنْ أَظْلَمُ . . . } [العنكبوت : 68] لا أحد أظلم ، والظلم : نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره ، والظلم قد يكون كبيراً وعظيماً ، وهو الظلم في القمة في العقيدة ، كما قال سبحانه : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

وقد يكون الظلم بسيطاً هيّناً ، فالذي افترى على الله الكذب ، لا أحدَ أظلم منه؛ لأنه لو افترى على مثله لكان أمره هيناً ، لكنه افترى على مَنْ؟ على الله ، فكان ظلمه عظيماً ، ومن الحمق أن تفتري على الله؛ لأنه سبحانه أقوى منك يستطيع أن يُدلل ، وأنْ يبرهن على كذبك ، ويستطيع أن يدحرك ، وأن يُوقفك عند حدِّك ، فمَنِ اجترأ على هذا النوع من الظلم فإنما ظلم نفسه .

وقلنا : إن الافتراء كذب ، لكنه متعمد؛ لأن الإنسان قد يكذب حين يخبر على مقتضى علمه ، إنما الواقع خلاف ما يعلم ، لذلك عرَّف العلماء الصدق والكذب فقالوا : الصدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ ، والكذب أن يخالف الكلامُ الواقعَ ، فلو قلتُ خبراً على مقتضى علمي ، ولم أقصد مخالفة الواقع ، فإن خالف كلامي الواقع فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس بكاذب .

وقوله سبحانه : { أَوْ كَذَّبَ بالحق لَمَّا جَآءَهُ . . . } [العنكبوت : 68] فيا ليته افترى على الله كذباً ابتداءً ، إنما صعَّد كذبه إلى مرحلة أخرى فعمد إلى أمر صِدْق وحقٍّ فكذَّبه ، ثم يقرر جزاء هذا التكذيب بأسلوب الاستفهام أيضاً { أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ } [العنكبوت : 68] يعني : أضاقتْ عنهم النار ، فليس بها أمكنة لهؤلاء؟ بلى بها أمكنة لهم ، بدليل أنها ستقول وهي تتشوق إليهم حين تسأل : { هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ } [ق : 30] .

وكأن الحق سبحانه يقول : لماذا يفتري هؤلاء على الله الكذب؟ ولماذا يُكذّبون الحق؟ اعلموا أن جهنم ليس بها أماكن لهم؟ فالاستفهام في { أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ } [العنكبوت : 68] استفهام إنكاري يُنكر أن يظن المكذبون الكافرون أنه لا مكان لهم في جهنم .

فالحق سبحانه في إرادته أزلاً أن يخلق الخَلْق من لَدُن آدم – عليه السلام – وإلى أنْ تقوم الساعة ، وأنْ يعطيهم الاختيار

{ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . . } [الكهف : 29] وقدر أن يؤمنوا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم في الجنة ، وقدر أن يكفروا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم في النار .

فإذا كان يوم القيامة يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النارَ ، يورث الله المؤمنين في الجنة أماكن الكافرين فهيا فيتقاسمونها بينهم ، وكذلك يتقاسم أهل النار أماكن المؤمنين في النار بالرد ، فمَنْ كان له في النار مكان واحد يصير له مكانان .

كما أن الاستفهام { أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ } [العنكبوت : 68] يجعل السامع يشاركك الكلام ، وفيه معنى التقريع والتوبيخ ، كما في قوله تعالى : { إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [المطففين : 29-36] .

يلتفت الله إلى المؤمنين الذين اسْتُهزئ بهم في الدنيا : هل قدرنا أنْ نجازي هؤلاء الكافرين ، ونردّ إليكم حقوقكم – وفي هذا إيناسٌ للمؤمنين وتقريعٌ للكافرين – فيقولون : نعم يا رب ، نعم يا رب ، نعم يا رب ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحرش المؤمنين بهم ، فلا يلينون لهم ، ولا يعطفون عليهم ، لأنهم طَغَوْا وتكبَّروا ، وعرضت عليهم الحجج والأدلة فكذَّبوها وأصرُّوا على عنادهم ، فبالغوا في الظلم .

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

نقول : جَهدَ فلان يجهد أي أتعب نفسه واجتهد : ألح في الاجتهاد وجاهد غيره ، فجاهد تدل على المفاعلة والمشاركة ، وهي لا تتم إلا بين طرفيْن ، وفي هذه الصيغة (المفاعلة) نغلب الفاعلية في أحدهما والمفعولية في الآخر ، مع أنهما شركاء في الفعل ، فكلٌّ منهما فاعل في مرة ، ومفعول في الأخرى ، كأنك تقول : شارك زيدٌ عمراً ، وشارك عمرو زيداً . أو : أن الذي له ضِلع أقوى في اشركة يكون فاعلاً والآخر مفعولاً .

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه أن مثوى الكافرين المكذِّبين في جهنم وحرَّش المؤمنين بهم ، وما داموا قد ظَلموا هذا الظلم العظيم لا بُدَّ أن يوجد تأديب لهم ، هذا التأديب لا لإرغامهم على الإيمان ، { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . . } [الكهف : 29] إنما التأديب أن نجهر بدعوتنا ، وأن نعلي كلمة الحق ، فمن شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليظل على حاله ، إذن : فالآية تبين موقف المؤمنين أمام هؤلاء المكذبين : { فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . } [العنكبوت : 69] .

معنى (جاهدوا فينا) أي : من أجلنا ولنصرة ديننا ، والخصومات التي نجاهدها في الله كثيرة : خصمة في مسألة القمة الإيمانية ووجود الإله الواحد كالملاحدة الذين يقولون بعدم وجود إله في

الكون ، وهؤلاء لهم جهاد ، وأهل الشرك الذين يقرون بوجود الله لكن يدَّعُون أن له شريكاً ، وهؤلاء لهم جهاد آخر .

فجهاد الملاحدة بالمنطق وبالحجة ليقولوا هم بأنفسهم بوجود إله واحد ، ونقول لهم : هل وُجِد مَن ادعى أنه خلق ذاته أو خلق غيره؟ بل تأملوا في أتفه الأشياء التي تستخدمونها في حياتكم : هذا الكوب الزجاجي وهو ترف ليس من ضروريات الحياة هل تقولون : إنه وُجد هكذا دون صانع؟ إذن : كيف وُجِد؟ هل لدينا شجرة مثلاً تطرح لنا هذه الأكواب؟

إذن : هي صنعة لها صانع ، استخدم العقل الذي منحه الله إياه ، وأعمله في المواد التي جعلها الله في الكون ، واستنبط منها هذه المادة (الزجاج) .

مصباح الكهرباء الذي اخترعه (إديسون) كم أخذ منه من جهد وبحث ودراسة ، ثم يحتاج في صناعته إلى معامل ومهندسين وصيانة ، ومع ذلك حصاة صغيرة تكسره فينطفيء ، وقد أخذ (أديسون) كثيراً من الشهرة وخلِّدنا ذكراه ، وما زالت البشرية تذكر له فضله .

أفلا ينظرون في الشمس التي تنير الدنيا كلها منذ خلقها الله وإلى قيام الساعة دون أنْ تحتاج إلى صيانة ، أو إلى قطعة غيار؟ وهل يستطيع أحد أن يتناولها ليصلحها؟ وهل تأبَّتْ الشمس عن الطلوع في يوم من الأيام ، وما تزال تمدكم بالحرارة والأشعة والدفء والنور؟

أتعرف مَنْ صنع المصباح ، ولا تعرف مَنْ صنع الشمس؟ لقد فكرتم في أتفه الأشياء وعرفتم مَنْ صنعها ، وأرَّخْتُم لهم ، وخلدتم ذكراهم ، ألم يكن أَوْلَى بكم التفكُّر في عظمة خلق الله والإيمان به؟

ثم قُلْ لي أيها الملحد : إذا غشيك ظلام الليل ، كيف تضيئه؟ قالوا : كل إنسان يضيء ظلام ليله على حَسْب قدرته ، ففي الليل ترى الإضاءات مختلفة ، هذا يجلس في ضوء شمعة ، وهذا في ضوء لمبة جاز ، وهذا في ضوء لمبة كهرباء ، وآخر في ضوء لمبة نيون ، فالأضواء في الليل متباينة تدل على إمكانات أصحابها ، فإذا ما طلعتْ الشمس ، وأضاء المصباح الرباني أطفئت كل هذه الأضواء ، ولم يَعُدْ لها أثر مع مصباح الخالق الأعظم سبحانه .

أليس في هذا إشارة إلى أنه إذا جاءنا حكم من عند الله ينبغي أنْ نطرح أحكامنا جميعاً لنستضيء بحكم الله؟ أليس في صدق المحسوس دليل على صدق المعنويات؟

وأنت يا مَنْ تدّعي أن لله شريكاً في مُلكه : مَنِ الذي قال إن لله شريكاً؟ لقد قلتها أنت من عند نفسك؛ لأن الله تعالى حين قال : أنا إله واحد لا شريك لي لم يعارضه أحد ، ولم يدَّعِ أحد أنه شريك لله .

فهذا دليل على أن الشريك غير موجود ، أو أنه موجود ولم يَدْرِ ، أو درى ولم يقدر على المواجهة ، وفي كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

ثم على فرض أنه موجود ، ما منهجه؟ بماذا أمرك وعَمَّ نهاك؟ ماذا أعدَّ لك من النعيم إنْ عبدته؟

وماذا أعد لك من العذاب إنْ كفرتَ به؟ إذن : فهذا الإله المزعوم إله بلا منهج ، فعبادته باطلة .

أما هؤلاء الذين يؤمنون بدين سماوي ولا يؤمنون بالرسول صلى الله عليه وسلم فنقول لهم : يكفي من جوانب العظمة في شخصية محمد بن عبد الله أنه لا يتعصب لنفسه؛ لأن قلبه مع كل مَنْ يؤمن بالله حتى وإنْ كفر به ، محمد يحب كل مَنْ آمن بربه ، وإنْ كفر بمحمد ، إنه يتعصب لربه حتى فيمن كذبه .

ثم أنتم يا أصحاب الديانات اليهودية أو المسيحية الذين عاصرتم ظهور الإسلام فأنكرتموه ، مع أن دينكم جاء بعد دين ، ورسولكم جاء بعد رسول سابق ، فلماذا لما جاءكم محمد كذَّبتموه وكفرتم به؟ لماذا أبْتم أنْ يأتي عيسى بعد موسى عليهما السلام ، وأنكرتُم أنْ يأتي بعد عيسى محمد؟

إذن : لكل خصومة في دين الله جدل خاص ومنطق للمناقشة نقوم به في ضوء : { والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . } [العنكبوت : 69] وعليك أن تنظر أولاً ما موقع الجهاد الذي تقوم به ، فجهاد الملاحدة بأسلوب ، وجهاد المشركين بأسلوب ، وجهاد أهل الكتاب بأسلوب ، وجهاد المسلم للمسلم كذلك له منطق إنْ دبَّ بينهما الخلاف ، مع أن الله تعالى قال : { إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ . . . } [الأنعام : 159] .

فساعةَ ترى كلاً منهما في طرف ، بحيث لا تستطيع أن تتبع أحدهما ، فاعلم أنهما على باطل؛ لأن الإسلام شيء واحد سبق أنْ شبَّهناه بالماء الأبيض الصافي الذي لم يخالطه لون ولا رائحة ولا طعم ، فإنْ لوَّنته الأهواء وتحزَّب الناس فيه كما يُلوِّنون العصائر فقد جانبهم الصواب وأخطأوا الدين الصحيح .

لأن ما جاء فيه حكم صريح من عند الله اتفقنا عليه ، وما تركه الله لاجتهادنا فينبغي على كُلٍّ منا أن يحترم اجتهاد الآخر ، وأن يقول : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب ، وبهذا المنطق تتعايش الآراء .

والحق – سبحانه وتعالى – يعطينا المثل على ذلك ، فما أراده سبحانه في المنهج مُحكماً يأتي محكماً في قول واحد لا خلاف فيه ، وضربنا مثلاً لذلك بآية الوضوء : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المرافق . . . } [المائدة : 6] .

فلم يحدد الوجه؛ لأنه لا خلاف في تحديده بين الناس ، إنما حدد الأيدي لأنها محل خلاف . إذن : فالقضايا التي تُثار بين المسلمين ينبغي أن يكون لها جدل خاص في هذا الإطار دون تعصُّب ، فما جاءك مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأي التزم به الجميع ، وما تُرِك بلا تنصيص لا يحتمل الخلاف ، فليذهب كل واحد إلى ما يحتمله النص .

فالباء في لغتنا مثلاً تأتي للتبعيض ، أو للاستعانة ، أو للإلصاق ، فإنْ أخذتَ بمعنىً فلا تحجر على غيرك أنْ يأخذ بمعنى آخر .

فإنِ استعر القتال بين طائفتين من المسلمين ، فيجب أن تكون هناك طائفة معتدلة تتولى أمر الإصلاح ، كما قال سبحانه : { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل وأقسطوا إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين } [الحجرات : 9] .

نلحظ أن الله تعالى سماهم مؤمنين ، ومعنى ذلك أن الإيمان لا يمنع أن نختلف ، وهذا الإيمان الذي لا يمنع أن نختلف هو الذي يُوجب علينا أن يكون منا طائفة معتدلة على الحياد لا تميل هنا أو هناك ، تقوم بدورْ الإصلاح وبدوْر الردع للباغي المعتدي حتى يفيىء إلى الجادة وإلى أمر الله .

فإنْ فاءت فلا نترك الأمور تُخيّم عليها ظلال النصر لفريق ، والهزيمة لفريق آخر ، إنما نصلح بينهما ، ونزيل ما في النفوس من غِلٍّ وشحناء ، فقد تنازل القوي عن كبريائه لما ضربنا على يده ، وَقوي الضعيف ، بوقوفنا إلى جانبه ، فحدث شيء من التوازن وتعادلتْ الكِفّتان ، فليعُدْ الجميع إلى حظيرة الأمن والسلام .

بقي لنا أن نتحدث عن جهاد آخر أهم ، هو جهاد النفس البشرية؛ « لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما عاد من إحدى الغزوات قال : » رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر « فوصف جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر ، لماذا؟ لأنك في ساحة القتال تجاهد عدواً ظاهراً ، يتضح لك عدده وأساليبه ، أمّا إنْ كان عدوك من نفسك ومن داخلك ، فإنه يعزّ عليك جهاده ، فأنت تحب أنْ تحقق لنفسك شهواتها ، وأنْ تطاوعها في أهوائها ونزواتها ، وهي في هذا كله تُلِح عليك وتتسرَّب من خلالك .

فعليك أنْ تقف في جهاد النفس موقفاً تقارن فيه بين شهوات النفس العاجلة وما تُورِثك إياه من حسرة آجلة باقية ، وما تضيعه عليك من ثواب ربك في جنة فيها من النعيم ، ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ضع ربك ونفسك في هذه المقابلة وتبصّر ، واعلم أن لربك سوابقَ معك ، سوابق خير أعدّها لك قبل أن توجد ، فالذي أعدَّ لك كل هذا الكون ، وجعله لخدمتك لا شكَّ مأمون عليك ، وأنت عبده وصنعته ، وهل رأيت صانعاً يعمد إلى صنعته فيحطمها؟

أما إن رأيت النجار مثلاً يمسك (بالفارة) وينحت في قطعة الخشب ، فاعلم أنه يُصلحها لأداء مهمتها ، وأذكر قصة الطفل (أيمن) الذي جاء أمه يبكي؛ لأن الخادمة تضرب السجادة ، فأخذتْه أمه وأرتْه التراب الذي يتساقط من السجادة في كل ضربة من ضربات الخادمة ، ففهم الطفل على قدر عقله .

وكذلك الحق سبحانه حين يبتلي خَلْقه ، فإنما يبتليهم لا كَيْداً فيهم ، بل إصلاحاً لهم . ألم نسمع كثيراً أماً تقول لوحيدها (إلهي أشرب نارك) ؟ بالله ما حالها لو استجاب الله لها؟ وهي في الحقيقة لا تكره وحيدها وفلذة كبدها ، إنما تكره فيه الخصلة التي أغضبتها منه .

وكذلك الحق – سبحانه وتعالى – لا يكره عبده ، إنما يكره فيه الخصال السيئة فيريد أنْ يُطهّره منها بالبلاء حتى يعود نقياً كيوم ولدته أمه ، فأحسن أيها الإنسان ظنك بربك .

إذن : نقول : إن من أعظم الجهاد جهادك لنفسك ، لأنها تُلِح عليك أن تُشبع رغباتها ، كما أنها عُرْضة لإغراء الهوى ووسوسة الشيطان الذين يُزيّن لها كل سوء ، ويُحبّب إليها كل منكر .

وسبق أنْ بيَّنا : كيف نُفرّق بين تزيين الشيطان وتزيين النفس؛ لأن النفس مدخلاً في المعصية بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين » .

فلو كانت الذنوب كلها بسبب الشيطان لم نجد من يذنب في رمضان ، إنما هناك كثير من الذنوب تُرتكب في رمضان ، وهذا يعني أنها من تزيين النفس ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يكشف ابن آدم : ها أنا قد صفَّدْت الشياطين ومع ذلك تذنبون .

فإنْ أردتَ أنْ تعرف هل المعصية من النفس أم من الشيطان ، فإن النفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد سواها ، ولا تنتقل بك إلى غيرها ، وتظل تُلح عليك إلى أنْ تُوقِعك فيها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً بأية صورة وعلى أية حال ، فإنْ تأبَّيْتَ عليه نقلك إلى معصية أخرى .

وعلى العاقل أن يتأمل ، فالمعصية تعطيك لذة عاجلة ومتعة فانية ، لا تليق أبداً بهذا الإنسان الذي كرَّمه الله ، وجعله خليفة له في الأرض ، وسيداً لهذا الكون ، والكون كله بأرضه وسمائه خادم له ، فهل يُعقل أنْ يكون الخادم أطول عمرا من المخدوم؟

إنك تموت بعد عام أو بعد مائة عام ، في حين أن الشمس التي تخدمك تعمر ملايين السنين :

إذن : لا بُدَّ أن لك حياة أخرى أبقى وأدوم من حياة خادمك ، فإنْ كنتَ الآن في حياة تُوصَف بأنها دنيا ، فهذا يعني أنها تقابلها حياة أخرى تُوصَف بأنها عليا ، وهي حياتك في الآخرة ، حيث لا موتَ فيها أبداً .

والقرآن الكريم حينما يُحدِّثنا عن الجهاد يقول مرة : { وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ الله . . . } [التوبة : 41] ويقول : { والذين جَاهَدُواْ فِينَا . . . } [العنكبوت : 69] .

الجهاد في سبيل الله أي في الطريق إلى الله لإثبات الإيمان بالإله الواحد ، وصدق البلاغ من الرسول المؤيَّد بالمعجزة وبالمنهج ، فإذا وضح لك السبيل فآمنت بالله الواحد الأحد قال لك : اجعل كل حركة حياتك في إطار { والذين جَاهَدُواْ فِينَا . . . } [العنكبوت : 69] يعني : من

أجلنا مخلصين لله لا ينظرون إلى غيره .

والإنسان مهما تحرَّى الإخلاص في عمله ، وقصد به وجه الله لا يأمن أن يخالطه شيء من رياء أو سمعة ، حتى أن المعصوم محمداً صلى الله عليه وسلم ليقول : « اللهم إني استغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطني فيه ما ليس لك » .

وهذا معنى (جاهدوا فينا) أن يكون العمل كله لله خالصاً ، وإلاَّ فما الفَرْق بين المؤمن والكافر ، وكلاهما يعمل ويسعى في الدنيا لكسب لقمة العيش له ولأولاده ، فهما في السعي سواء ، فما مزية المؤمن إذن؟

الميزة أن الكافر يعمل على قَدْر حاجته فحسب ، أمّا المؤمن فيعمل على قدر طاقته ، فيأخذ ما يكفيه ويعود بالفضل على مَنْ لا طاقةَ عنده للعمل ، ففي نيته أن يعمل له وللمحتاج غير القادر .

ونمثل لذلك بالبقال الذي فتح الله عليه ، فباع كثيراً في أول النهار وأخذ كفايته ، ثم أغلق محله فلم ينظر إلى الذين يعاملونه على الشهر ، ويأخذون حاجتهم لأجَل ، ولم ينظر إلى ربة البيت التي تنتظر عودة زوجها لتشتري ما يلزمها ، فقد نظر إلى حظ نفسه ، ونسي حظ الآخرين .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * والذين هُمْ عَنِ اللغو مُّعْرِضُونَ * والذين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } [المؤمنون : 1-4] ولم يقل مُؤدُّون إنما : فاعلون من أجل الزكاة أي : يعملون على قَدْر طاقتهم ، لا على قدْر حاجتهم . فالذين يعملون في إطار { والذين جَاهَدُواْ فِينَا . . . } [العنكبوت : 69] لا يغيب الله أبداً عن بالهم .

ولكي نفقه هذه المسألة انظر إلى عمل أو جميل قدَّمته لغير وجه الله ترى أن صاحبه أنكره ، بل ربما لا ينالك منه إلا الذمّ ، وساعتها لا تلومنّ إلا نفسك ، لأنك أخطأت التوجه ، وقد عملت للناس فخُذْ أجرك منهم ، إنما إنْ عملتَ لوجه الله فثِقْ أن جميلك محفوظ عند الله وعند الناس .

والحق – سبحانه وتعالى – حينما أعطى للإنسان الاختيار في أن يؤمن أو أنْ يكفر يلفت بهذا أنظارنا أنه إذا صنعتَ جميلاً في إنسان ، ثم أنكر جميلك وكفر به ، فلا تحزن؛ لأن الناس فعلوا ذلك مع الله – عز وجل – فقد خلقهم ورزقهم ثم كفروا به .

ثم يأتي جزاء الجهاد في ذات الله : { والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . } [العنكبوت : 69] أي : ندلّهم على الطرق الموصِّلة إلينا ، كأن الطريق إلى الله ليس واحداً ، إنما سبل شتى؛ لذلك لا تحقرنَّ من الطاعة شيئاً مهما كان يسيراً ، فإن الله تعالى غفر لرجل سقى كلباً يلهث من العطش ، ولا تحقرن من المعصية شيئاً ، فإن الله أدخل امرأة النار لأنها حبست قطة ، ولا تحتقرن عبداً مهما كان ، فإن الله تعالى أخفى أسراره في خَلْقه؛ فرُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرّه .

فإذا علمتَ من نفسك ميزة على الآخرين فانظر فيم يمتازون به عنك ، ودَعْك من نظرة تُورثك كبراً ، واستعلاء على الخَلْق ، فإنْ كنت أفضل في شيء فأنت مفضول في أشياء كثيرة ، وسبق أن قلنا : إن الله نثر المواهب بين الخَلْق ليظلوا ملتحمين بحاجة بعضهم إلى بعض .

فقوله تعالى { لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . } [العنكبوت : 69] أي : السبل الموصِّلة لنعيم الآخرة ، سبل الارتقاء في اليقين الإيماني الذي قال الله عنه : { يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم . . . } [الحديد : 12] .

ويقول سيدنا عمر بن عبد العزيز : ما قصَّر بنا في علم ما جهلناه ، إلا تقصيرنا في العمل بما علمناه فالذي جعلنا لا نعرف أسرار الله أننا قصرنا في العمل بما أمرنا به ، إذن : فلماذا يعطينا ونحن لا نعمل بما أخذنا من قبل ، لكن حين تعمل بما علمتَ ، فأنت مأمون على منهج الله ، فلا يحرمك المزيد ، كما قال سبحانه : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .

وقوله تعالى : { يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً . . . } [الأنفال : 29] والفرقان من أسماء القرآن ، فحين تتقي الله على مقتضاه ، وبمدلول منهجه في القرآن ، يمنحك فرقاناً آخر ونوراً آخر تبصر به حقائق الأشياء ، وتهتدي به إلى الحكم الصحيح ، هذا النور الذي وهبه الله للإمام علي – رضي الله عنه – حينما دخل على عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فوجده يريد أنْ يقيم الحَدَّ على زوجة ولدتْ لستة أشهر ، والشائع أن فترة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : لكن الله قال غير ذلك يا أمير المؤمنين ، قال عمر : وماذا قال يا علي؟ قال علي : قال الله تعالى : { والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة . . . } [البقرة : 233] يعني : أربعة وعشرون شهراً .

وقال في موضع آخر : { وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . } [الأحقاف : 15] وبطرح العددين يكون الباقي ستة أشهر ، وهي أقل مدة للحمل .

هذا هو الفرقان الذي يمنحه الله للمؤمنين الذين عملوا بما عملوا؛ لذلك كان عمر بن الخطاب وما أدراك ما عمر؟ عمر الذي كان ينزل الوحي على وَفْق رأيه ، كان يقول : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

ومعلوم أن علياً – رضي الله عنه – تربَّى في حجرْ رسول الله ، وشرب من معينه ، فكل معلوماته إسلامية ، وله في الحق حجة ومنطق . فمثلاً في موقعه صِفّين التي دارتْ بين علي ومعاوية كان عمار بن ياسر في صفوف علي ، فقتله جنود معاوية ، فتذكر الصحابة قول رسول الله لعمار « وَيْح عمار ، تقتله الفئة الباغية » فعلموا أنها فئة معاوية .

فأخذ الصحابة يتركون صفوف معاوية إلى صفوف علي ، فأسرع عمرو بن العاص وكان في جيش

معاوية ، فقال له : يا أمير المؤمنين فَشَتْ فاشيةٌ في الجيش ، إنْ هي استمرت فلن يبقى معنا أحد ، قال : وما هي؟ قال : تَذَكَّر الناس قول رسول الله « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » قال معاوية : فأفْشِ فيهم ، إنما قتله مَنْ أخرجه للقتال – أي علي – فلما بلغ علياً هذه المقالة قال بما عنده من الفرقان والحجة : إذن قولوا له مَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب؟

فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ومثَّلْنا لذلك قلنا : هب أن لك ولداً متعثراً غير مُوفَّق في حياته العملية ، فنصحك إخوانك بأنْ تعطيه فرصة ، وتجربه ولو بمشروع صغير في حدود مائة جنيه ، فلما فعلتَ بدَّد هذا المبلغ ولم ينتفع به ، أتجرؤ على منحه مبلغاً آخر؟ وإنما لو ثَمَّر هذا المبلغ ونماه لأعطيته أضعافاً .

ثم يقول سبحانه : { وَإِنَّ الله لَمَعَ المحسنين } [العنكبوت : 69] الإحسان من الإنسان أن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، والإحسان في الأداء أن تزيد عما فرض الله عليك ، لكن من جنس من فرض ، فإذا أنت أحسنتَ أحسن الله إليك بأنْ يزيدك إشراقاً ، ويزيدك نورانية ، ويُخفِّف عنك أعباء الطاعة ، ويُقبّح في نفسك المعاصي .

لذلك بلغت محبة أحد العارفين للطاعة حتى قال : اللهم إني أخاف ألاّ تثيبني على طاعتي؛ لأنني أصبحتُ أشتهيها . يعني : لو لم تكن هناك جنة ولا نار لفعلتُ الطاعة؛ لأنها أصبحتْ بالنسبة لي شهوة نفس ، وقد أمرتنا يا ربّ أن نخالف شهوة النفس لذلك أخاف ألاَّ تثيبني عليها ، ولمثل هذا نقول .

{ وَإِنَّ الله لَمَعَ المحسنين } [العنكبوت : 69] .

كملة (مع) تفيد المعية ، والمعية في أعراف البشر أنْ يلتقي شيء بشيء ، لكن إذا كانت المعية مع الله فافهم أنها معية أخرى غير التي تعرفها مع زميلك أو صديقك ، خُذْها في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : 11] فلك وجود ولله وجود ، لكن أوجودك كوجود الله؟ الله يعلم أننا نسجل الآن في مسجد أبي بكر الصديق ، لكن هل علْمنا كعِلْمه تعالى؟ الله يعلم هذا قبل أن ينشأ المسجد ، وقبل أنْ نُولد نحن .

لذلك يضرب الله لنا مثلاً فيقول : { وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } [الذاريات : 21] هذا مَثَل للرد على الذين يطلبون رؤية الله عز وجل وهو غَيْب ، مثل للذين قالوا لنبيهم { أَرِنَا الله جَهْرَةً . . } [النساء : 153] .

لكن كيف يرونه والعظمة في الإله ألاَّ يُرى ، ولا تدركه الحواس ، والحق سبحانه يعطينا الدليل في أنفسنا { وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } [الذاريات : 21] فتأمل في أقرب شيء إليك في نفسك ، لا في الآفاق من حولك ، أليست فيك روح تُحرِّك جسمك ، وبها تحيا وتنفعل أعضاؤك ، أليست فيك روح تُحرِّك جسمك ، وبها تحيا وتنفعل أعضاؤك ، بدليل إذا خرجتْ منك هذه

الروح تصير جثة هامدة؟ أرأيت هذه الروح وهي بين جنبيك؟ أأدركتها بأيّ حاسة من حواسك؟ إذن : هي معك ، لكن ليست تحت إدراكك ، وهي خَلْق بسيط من خَلْق الله ، فكيف تتطلع إلى أن ترى الخالق سبحانه وأنت لا تقدر على رؤية المخلوق؟ لكن إن قُلْت : فرؤية المؤمنين لله في الآخرة؟ ففي الآخرة يخلقني الله خَلْقاً آخر أستطيع أن أراه سبحانه ، حيث سيكون للخَلْق معايير أخرى ، ألستَ تأكل وتشرب في الآخرة ، ومع ذلك لا تتغوَّط في الجنة؟

لذلك لما سأل حاكم الروم أحد علماء المسلمين : كيف تأكلون وتشربون في الجنة ولا تتغوطون؟ فقال له : وما العجيب في ذلك؟ ألم تر إلى الطفل في بطن أمه يتغذى وينمو وهو لا يتغوط ، ولو تغوَّط في مشيمته لاحترق .

ثم سأله : وتقولون إن نعيم الجنة تأخذون منه ولا ينتهي ولا ينقص؟ فقال : هَبْ أن لك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها ، وقبستْ من مصباحك ناراً ، أينقص منه شيء؟

فسأله : فأين تذهب الأرواح التي كانت فينا بعد أن نموت؟ فقال : تذهب حيث كانت قبل أنْ تسكن فينا .

هذه مسائل ونماذج للتوفيق والهداية للحق في إطار : { جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . } [العنكبوت : 69] وهي فَيْض مما قال الله فيه : { إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً . . . } [الأنفال : 29] .

الم (1)

{ الم } [الروم : 1] سبق أن تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة في بدايات السور ، ولا أريد إعادة ما قُلْته ، لكن أريد من العلماء أنْ يلتفتوا إلى هذه المسألة لفتة إشراقية تُرينا جميعاً ، وتكشف لنا الحكمة والأسرار في هذه الحروف .

وقلنا : إن هذه الحروف (الم) بنيت على الوقف ، كل حرف منها على حِدَة ، مع أن القرآن في مجملة مبني على الوصل في آياته وفي سوره ، فآخر حرف في السورة موصول بأول حرف في التي تليها – فهنا نقول : (وَإِنَّ اللهَ لَمعَ المْحْسِنينَ بسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحيمِ . . .)

بل أعجب من هذا ، نجد أن آخر سورة الناس مبنيٌّ على الوصل بأول الفاتحة ، فنقول : (. . . مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ بسْم اللهِ الرحْمَنِ الرَّحيم الْحَمدُ لله رَبِّ العَالمين) .

فالقرآن إذن موصول ، لا انقطاعَ فيه . فلماذا بُنيت الحروف المقطعة في أوائل السور على الوقْف ، لماذا لا نقول : ألفٌ لامٌ ميمٌ؟ قالوا : لأن الله تعالى لم يشأ أنْ يجعلها كلمة واحدة ، فجاءت على القطع ، ويؤنسنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » فنريد وننتظر من يدركه الله ليكون من المحسنين ،

ويدلُّنا على ما في هذه الحروف من سِرٍّ يُوقف عنده ، ولا يُوصل بغيره .
قال الحق سبحانه : { غُلِبَتِ . . . } .

غُلِبَتِ الرُّومُ (2)

كلمة { غُلِبَتِ . . . } [الروم :] تدل على وجود معركة غلب فريقٌ ، وغُلب فريق ، فالذي غُلب هنا الروم ، وكانوا أهل كتاب ومقرهم الشام وعراق العرب ، فالعراق منها قسم ناحية العرب ، وقسم ناحية فارس ، والروم نسبة إلى روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم .

فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3)

قوله { أَدْنَى . . . } [الروم : 3] يعني : أقرب لأرض العرب ، كما في { إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدنيا وَهُم بالعدوة القصوى } [الأنفال : 42] فالعُدْوة الدنيا أي : القريبة من المدينة ، والقُصْوى البعيدة عنها . فالمعنى { في أَدْنَى الأرض . . . } [الروم : 3] أقرب أرض للجزيرة العربية .
وفي قوله سبحانه : { وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } [الروم : 3] بشرى للمسلمين ، فالفرس قوم كانوا يعبدون النار ، أما الروم فأهل كتاب ، إذن : فالخلاف بيننا وبين الفرس في القمة الإلهية ، أمَّا الخلاف بيننا وبين الروم ففي القمة الرسالية ، فَهُم أقرب إلينا؛ لأنهم يؤمنون بإلهنا ، وإنْ كانوا لا يؤمنون برسولنا .
وهذا من عظمة الإسلام ، فالذي يؤمن بالإله أقرب إلى نفوسنا من الذي لا يؤمن بالإله؛ لأنه على الأقل موصول بالسماء؛ لذلك لما غُلِبت الروم فرح كفار قريش وحزن المؤمنون ، وفرح كفار قريش لأن في هزيمة الروم دليلاً على أن محمداً وأصحابه سينهزمون كأصحابهم .
وكلمة { غَلَبِهِمْ . . . } [الروم : 3] مصدر يُضاف للفاعل مرة ، ويُضاف للمفعول مرة أخرى ، تقول أعجبني ضَرْبُ الأمير مذنباً ، فأضفت المصدر للفاعل . وتقول : أعجبني ضَرْب المذنب فأضفتَ المصدر للمفعول ، وكذلك هنا { غَلَبِهِمْ . . . } [الروم : 3] مصدر أضيف إلى المفعول .
لكن لماذا قال سبحانه : { سَيَغْلِبُونَ } [الروم : 3] وجاء بالسين الدالة على الاستقبال ، ثم قال بعدها { فِي بِضْعِ سِنِينَ } [الروم : 4] وهي أيضاً دالة على الاستقبال؟ قالوا : لأن الغلبة لا تأتي فجأة ، إنما لا بُدَّ لها من إعداد طويل وأَخْذ بأسباب النصر ، وتجهيز القوة اللازمة له ، فكأنهم في مدة البضع سنين يُعدون للنصر ، فكلما أعدوا عُدَّة أخذوا جزءاً من النصر ، فالنصر إذن لا يأتي في بضع سنين ، إنما من عمل دائم على مدى بضع سنين .
فهتلر مثلاً لما انهزم في الحرب العالمية ، وتألَّبتْ عليه كل الدول ، جاء في عام 1939 وهدد

العالم كله بالحرب ، فهل سقطت عليه القوة التي يهدد بها فجأة؟ لا ، بل ظل عدة سنوات يُعد العدة ويُجهِّز الجيش والأسلحة والطرق إلى أنْ توفرتْ له القوة التي يهدد بها .

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)

أثارت فرحة الكفار حفيظة المؤمنين ، إلى أنْ نزلت { وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ . . . } [الروم : 3-4] ففرح المؤمنون حتى قال أبو بكر : والله لا يسرُّ الله هؤلاء ، وسينصر الروم على فارس بعد ثلاث سنين .

لأن كلمة بضع تعني من الثلاثة إلى العشرة ، فأخذها الصِّدِّيق على أدنى مدلولاتها ، لماذا؟ لأنه الصِّديق ، والحق – سبحانه وتعالى – لا يُحمِّل المؤمنين مشقة الصبر مدة التسع سنين ، وهذه من الصديقية التي تميز بها أبو بكر رضي الله عنه .

« لذلك قال أبو بكر لأُبيّ بن خلف : والله لا يقرّ الله عيونكم – يعني : بما فرحتم به من انتصار الكفار – وقد أخبرنا الله بذلك في مدة بضع سنين ، فقال أُبيٌّ : أتراهنني؟ قال : أراهنك على كذا من القلائص – والقلوص هي الناقة التي تركب – في ثلاث سنين عشر قلائص إن انتصرت الروم ، وأعطيك مثلها إن انتصرت فارس .

فلما ذهب أبو بكر إلى رسول الله ، وأخبره بما كان قال : » يا أبا بكر زِدْه في الخطر ومادِّه « ، يعني زِدْ في عدد النوق من عشرة إلى مائة وزده في مدة من ثلاث سنين إلى تسع ، وفعلاً ذهب الصِّديق لأبيٍّ وعرض عليه الأمر ، فوافق في الرهان على مائة ناقة .

فلما اشتدّ الأذى من المشركين ، وخرج الصَّدِّيق مهاجراً رآه أُبيُّ بن خلف فقال : إلى أين أبا فصيل؟ وكانوا يغمزون الصِّدِّيق بهذه الكلمة ، فبدل أن يقولوا : يا أبا بكر . والبَكْر هو الجمل القوي يقولون : يا أبا فصيل والفصيل هو الجمل الصغير – فقال الصِّديق : مهاجر ، فقال : وأين الرهان الذي بيننا؟ فقال : إن كان لك يكفلني فيه ولدي عبد الرحمن ، فلما جاءت موقعة بدر رأى عبد الرحمن أُبياً فقال له : إلى أين؟ فقال : إلى بدر ، فقال : وأين الرهان إنْ قتلْتَ؟ فقال : يعطيك ولدي .

وفي بدر أصيب أُبيٌّ بجرح من رسول الله مات فيه ، وقدَّم ولده الجُعْل لعبد الرحمن ، فذهبوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : » تصدقوا به « » .

وهنا وقفة إعجازية إيمانية عقدية : سبق أنْ تكلمنا عن الغيب وعن المشهد . وقلنا : إن الغيب أنواع : غيب له مقدمات تُوصِّل إليه ، كما تعطي التلميذ تمريناً هندسياً ، وكالأسرار الكونية التي يتوصَّل إليها العلماء ويكتشفونها من معطيات الكون ، كالذي اكتشف الآلة البخارية ، وأرشميدس لما اكتشف قانون الأجسام الطافية . . إلخ ولا يقال لهؤلاء : إنهم علموا غيباً ، إنما

أخذوا مقدمات موجودة واستنبطوا منها معدوماً .

أمّا الغيب المطلق فهو الذي ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، فهو غيب عن كل الناس ، وفيه يقول تعالى : { عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ . . . }

[الجن : 26-27] .

ومن الغيب ما يغيب عنك ، لكن لا يغيب عن غيرك ، كالشيء الذي يُسرق منك ، فهو غيب عنك لأنك لا تعرف مكانه ، وليس غيباً عَمَّنْ سرقه منك .

وآفة الإنسان أنه لا يستغل المقدمات للبحث في أسرار الكون ليرتقي في الكونيات ، إنما يستغلها لمعرفة غيب الآخرين ، ونقول له : إن كنت تريد أن تعلم غيب الآخرين ، فاسمح لهم أنْ يعلموا غيبك وأعتقد أن أحداً لا يرضى ذلك .

إذن : سَتْر الغيب عن الخَلْق نعمة كبرى لله تعالى؛ لأنه سبحانه رب الناس جميعاً ، ويريد سبحانه أن ينتفع خَلْقه بخَلْقه ، ألا ترى أنك إنْ علمتَ في إنسان سيئة واحدة تزهدك في كل حسناته ، وتجعلك تكرهه ، وتكره كل حسنة من حسناته ، فستر الله عنك غَيْب الآخرين لتنتفع بحسناتهم .

والغيب حجزه الله عنا ، إما بحجاب الزمن الماضي ، أو الزمن المستقبل ، أو بحجاب المكان ، فأنت لا تعرف أحداث الماضي قبل أنْ تُولد إلى أنْ يأتي مَنْ تثق به ، فيخبرك بما حدث في الماضي ، وكذلك لا تعرف ما سيحدث في المستقبل ، أما حاجز المكان فأنت لا تعرف ما يوجد في مكان آخر غير مكانك ، وقد يكون الشيء في مكانك ، لكن له مكين فلا تطلع عليه .

ومن ذلك قوله تعالى : { وَيَقُولُونَ في أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ . . . } [المجادلة : 8] .

فمَنِ الذي أخبر رسول الله بما في نفوسهم؟ لقد خرق الله له حجاب المكان ، وأخبره بما يدور في نفوس القوم ، وأخبرهم رسول الله به ، أَمَا كان هذا كافياً لأن يؤمنوا بالله الذي أخرج مكنون صدورهم؟ إذن : المسألة عندهم عناد ولجاجة وإنكار .

وكذلك ما كان من رسول الله في غزوة مؤتة التي دارتْ على أرض الأردن ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة – ونعلم أن أهل السيرة لا يطلقون اسم الغزوة إلا على التي حضرها رسول الله ، وكل حدث حربي لم يحضره رسول الله نسميه سرية إلا مؤتة هي التي انفردتْ بهذه التسمية ، فلماذا مع أن رسول الله لم يشهدها؟

قالوا : بل شهدها رسول الله وهو بالمدينة ، بما كشف الله له من حجاب المكان وأطلعه على ما يدور هناك حتى كان يخبر صحابته بما يدور في الحرب كأنه يراها ، فيقول : أخذ الراية فلأن فقُتِل ، فأخذها فلان فقُتِل ، فلما جاءهم الخبر وجدوا الأمر كما أخبر به سيدنا رسول الله .

كما خَرق له حجاب الماضي ، فأخبره بحوادث في الأمم السابقة كما في قوله سبحانه : { وَمَا

كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر . . . } [القصص : 44] { وَمَا كُنتَ ثَاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . . . } [القصص : 45] .

كما خرق له صلى الله عليه وسلم حجاب المستقبل ، كما في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها : { وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ .

. . } [الروم : 3-4] فأروني أيّ قوة (كمبيوتر) في الدنيا تُنبئنا بنتيجة معركة ستحدث بعد ثلاث إلى تسع سنين .

فمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو النبي الأمي المقيم في جزيرة العرب ولا يعرف شيئاً عن قوة الروم أو قوة الفرس – يخبرنا بهذه النتيجة؛ لأن الذي يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون هو الذي أخبره ، وكون محمد صلى الله عليه وسلم يعلنها ويتحدَّى بها في قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة دليل على تصديقه بمنطق الله له ، وأنه واثق من حدوث ما أخبر به .

ولهذه الثقة سُمِّي الصِّديق صدِّيقاً ، فحين أخبروه بمقالة رسول الله عن الإسراء ما كان منه إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بهذه النتيجة ، ويراهن المشركين عليها ، ويتمسك بها ، وما ذاك إلا لثقته في صدق هذا البلاغ ، وأنه لا يمكن أبداً أنْ يتخلف .

وقوله تعالى { لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ . . . } [الروم : 4] يعني : إياكم أنْ تفهموا أن انتصار الفرس على الروم أو انتصار الروم على الفرس خارج عن مرادات الله ، فلله الأمر من قبل الغلب ، ولله الأمر من بعد الغلب .

فحين غَلبت الروم لله الأمر ، وحين انتصرت الفرس لله الأمر؛ لأن الحق سبحانه يهيج أصحاب الخير بأن يُغلِّب أصحاب الشر ، ويُحرِّك حميتهم ويُوقظ بأعدائهم مشاعرهم ، ويُنبّههم إلى أن الأعداء لا ينبغي أن يكونوا أحسن منهم .

إذن : فنصر المكروه لله على المحبوب لله جاء بتوقيت من الله؛ لذلك إياك أن تحزن حين تجد لك عدواً ، فالأحمق هو الذي يحزن لذلك ، والعاقل هو الذي يرى لعدوه فَضْلاً عليه ، فالعدو يُذكِّرني دائماً بأن أكون قوياً مستعداً ، يُذكِّرني بأن أكون مستقيماً حتى لا يجد مني فرصة أو نقيصة . العدو يجعلك تُجنِّد كل ملكاتك للخير لتكون أفضل منه؛ لذلك يقول الشاعر :

عدايَ لَهُمْ فَضْلٌ عليَّ ومِنَّةٌ ... فَعِنْدي لهُم شُكْرٌ على نَفْعهم ليَا

فَهُمْ كدَواءٍ والشِّفاء بمُرِّهِ ... فَلا أَبْعَد الرحمنُ عنِّي الأعَادِيَا

وهُم بحثُوا عَنْ زَلَّتي فَاجْتنبتُها ... وهُمْ نافسُوني فاكتسبْتُ المعَاليَا

إذن : لله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الحكمة في أنْ ينتصر الباطل ، أَلاَ ترى غزوة أحد ، وكيف هُزِم المسلمون لما خالفوا أمر رسول الله وتركوا مواقعهم طمعاً في مغنم ، انهزموا في أول

الأمر ، مع أن رسول الله معهم؛ لأن سنة الله في كونه تقضي بالهزيمة حين نخالف أمر رسول الله ، وكيف يكون الحال لو انتصر المسلمون مع مخالفتهم لأمر رسولهم؟ لو انتصروا الفقد أمر الرسول مصداقيته ، ولما أطاعوا له أمراً بعد ذلك .

وفي يوم حنين : { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ . . . } [التوبة : 25] حتى إن أبا بكر نفسه ليقول : لن نُغلب اليوم عن قِلّة ، فلما نظروا إلى قوتهم ونسُوا تأييد الله هُزِموا في بداية الأمر ، ثم يحنّ الله عليهم ، وتتداركهم رحمته تعالى ، فينصرهم في النهاية .

إذن : فلله الأمر من قبل ومن بعد ، فإياك أن تظن أن انتصار الباطل جاء غصْباً عن إرادة الله ، أو خارجاً عن مراده ، إنما أراده الله وقصده لحكمة .

ثم يقول سبحانه : { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله . . . } [الروم : 4-5] أيّ نصر الذي يفرح به المؤمنون؟ أيفرحون لانتصار الروم على الفرس؟ قالوا : بل الفرح هنا دوائر متشابكة ومتعالية ، فهم أولاً يفرحون لانتصار أهل دين وأهل كتاب على كفار وملاحدة ، ويفرحون أن بشرى رسول الله تحققتْ ، ويفرحون لأنهم آمنوا برسول الله ، وصدَّقوه قبل أن ينطق بهذه البشرى .

إنهم يفرحون لأنهم أصابوا الحق ، فكلما جاءت آية فرح كل منهم بنفسه؛ لأنه كان محقاً حينما آمن بالإله الواحد الذي يعلم الأمور على وفق ما ستكون واتبع رسوله صلى الله عليه وسلم .

إذن : لا تقصر هذه الفرحة على شيء واحد ، إنما عَدِّها إلى أمور كثيرة متداخلة .

كما أن اليوم الذي انتصر فيه الروم صادف اليوم الذي انتصر فيه المسلمون في بدر .

وقوله تعالى { يَنصُرُ مَن يَشَآءُ . . . } [الروم : 5] الفرس أو الروم ، ما دام أن له الأمر من قبل ومن بعد { وَهُوَ العزيز الرحيم } [الروم : 5] الحق سبحانه وصف نفسه بهاتين الصفتين : العزيز الرحيم ، مع أن العزيز هو الذي يغلب ولا يُغْلب ، فقاهريته سبحانه عالية في هذه الصفة – ومع ذلك أتبعها بصفة الرحمة ليُحِدث في نفس المؤمن هذا التوازن بين صفتي القهر والغلبة وبين صفة الرحمة .

كما أننا نفهم من صفة العزة هنا أنه لا يحدث شيء إلا بمراده تعالى ، فحين ينتصر طرف وينهزم طرف آخر حتى لو انتصر الباطل لا يتم ذلك إلا لمراده تعالى؛ لأن الله تعالى لا يُبقي الباطل ولا يُعلي الكفر إلا ليظهر الحق ، فحين يُعَضُّ الناس بالباطل ، ويشقَوْن بالكفر يفزعون إلى الإيمان ويتمسكون به .

واقرأ قوله تعالى : { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كَفَرُواْ السفلى وَكَلِمَةُ الله هِيَ العليا . . . } [التوبة : 40] ولم يقل : وجعل كلمة الله هي العليا؛ لأنها ليستْ جَعْلاً لأن الجَعْل تحويل شيء إلى شيء ،

أما كلمة الله فهي العليا بداية ودائماً ، وإنْ علت كلمة الباطل إلى حين .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله . . . } .

وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6)

الوعد : هو الإخبار بما يسرُّ قبل أنْ يكون { لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ . . . } [الروم : 6] وفرْقٌ بين وعد الله ووعد الناس؛ لأنك قد تعد إنساناً بخير ، وتحول الأسباب بينك وبين إنفاذ ما وعدتَ به ، كأن يتغير رأيك أو تضعف إمكاناتك ، أو يتغير السبب الذي كنت ستفعل من أجله .
إذن : أنت لا تملك عناصر الوفاء وأسبابه ، أمّا وعد الحق سبحانه وتعالى فوعد محقق ، حيث لا توجد قوة تُخرجه عما وعد ، وهو سبحانه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فما دام الوعد وعدَ الله فثِقْ أنه محقق .
لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . } [الكهف : 23-24] والمعنى : اجعل لنفسك مَخرجَاً من الكذب إنْ حالت الأسباب بينك وبين ما وعدتَ به ، بأن تجعل أمرك تحت مشيئة ربك ، لا مشيئتك ، لأنك لا تملك من عناصر إتمام الفعل شيئاً .
إذن : أدرِكْ نفسك ، وقُلْ إنْ شاء الله ، حتى إذا حالتْ الأسباب بينك وبين ما أردتَ قلت : شِئْت ، ولكن الله تعالى لم يشَأ .
والله تعالى لا يُخلف وعده؛ لأنه سبحانه يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون ، ولا توجد قوة تُحوِّله عن مراده ، وليس له شريك يراجعه ، أو يُخرِجه عن مراده .
وإنْ شئت فاقرأ : { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وامرأته حَمَّالَةَ الحطب * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ } [المسد : 1-5] .
ألم يكُنْ من الممكن وقتها أنْ يُسلِم أبو لهب كما أسلم حمزة وعمر وخالد وعكرمة وغيرهم؟
أليست له حرية الاختيار كهؤلاء؟ بل ألم يسمع هذه السورة؟ ومع هذا كله كفر وأصرَّ على كفره ، ولم ينطق بكلمة الإيمان ، ولو حتى للكيد لرسول الله فيقول في نادي قريش ولو نفاقاً : قال محمد كذا وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . أليس هذا دليلاً على غبائه؟
إذن : ما دام أن القرآن أخبر فلا بُدَّ أن يتم الأمر على وَفْق ما أخبر به .
ونلحظ هنا أن كلمة الوعد تعني البشارة بالخير القادم في المستقبل والكلام هنا عن فريقين : فريق منتصر يفرح بالنصر ، وفريق منهزم يحزن للهزيمة ، فكيف يستقيم الوعد في حَقِّه؟ فالفرح للمؤمن غَمٌّ لغير المؤمن .
ولتوضيح هذه المسألة نذكر أن المستشرقين وقفوا عند قوله تعالى من سورة الرحمن : { خَلَقَ

الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار * وَخَلَقَ الجآن مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 14-16]

وقالوا : هذا الكلام معقول بالخلق من نعم الله ، لكن ماذا عن قوله : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 35-36] فأيُّ نعمة في النار وفي الشواظ؟

وفات هؤلاء أنه من النعمة أن ننبهك إلى الخطر قبل أنْ تقع فيه ، ونحذرك من عاقبة الكفر لتنتهي عنه كالوالد الذي يقول لولده : إنْ أهملتَ دروسك ستفشل ، وساعتها سأفعل بك كذا وكذا .

إذن : فذِكْر النار والعذاب نعمة لكل من خالف منهج الحق ، فلعله حين يسمع الإنذار يعود ويرعوي .

وقوله تعالى : { ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [الروم : 6] نفى عنهم العلم أي : ببواطن الأمور وحقيقتها .

ثم أخبر عنهم : { يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة . . . } .

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7)

إذا رأيت فعلاً نُفِي مرة ، وأُثبت مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة منفكة ، فهم لا يعلمون بواطن الأمور ، إنما يعلمون ظواهرها ، وليتهم يعلمون ظواهر كل شيء ، إنما ظواهر الدنيا فحسب ، ولا يعلمون بواطنها ، فما بالك بالآخرة؟

حين تتأمل أمور الدنيا والقوانين الوضعية التي وضعها البشر ، ثم رجعوا عنها بعد حين ، تجد أننا لا نعلم من الدنيا إلا الظاهر ، فمثلاً قانون الإصلاح الزراعي الذي نعمل به منذ عام 1952 ، وكنا مُتحمّسين له نُمجّده ولا نسمح بالمساس به يناقشونه اليوم ، ويطلبون إعادة النظر فيه ، بل إلغاءه؛ لأنه لم يَعُدْ صالحاً للتطبيق في هذا العصر ، روسيا التي تبنتْ النظام الشيوعي ودافعتْ عنه بكل قوة هي التي نقضتْ هذا النظام وأسقطته .

ما أسقطته أمريكا مثلاً ، ولو أسقطته أمريكا لانتقلت إليها قوة الشيوعية وغطرستها؛ لذلك يقولون : ما اندحرت الشيوعية إنما انتحرت على أيدي أصحابها . ومن الممكن أن ينتحر هؤلاء كما انتحرتْ نُظمهم فأوْلَى بهم أنْ يستقيموا لله ، وأن يُخلصوا للناس .

إذن : لا نعرف من الدنيا إلا ظواهر الأشياء ، ولا نعرف حقيقتها ، كما نشقى الآن بسبب المبيدات الحشرية التي ظننا أنها ستُريحنا وتُوفر علينا الجهد والوقت في المقاومة اليدوية؟

كم يشقى العالم اليوم من استخدام السيارات مثلاً من تلوث في البيئة وقتْل للأرواح كل يوم ، ولك أن تقارن بين وسائل المواصلات في الماضي ووسائل المواصلات اليوم ، فإن كان للوسائل

الحديثة نفع عاجل ، فلها ضرر آجل ، ويكفي أن عادم المخلوق لله يصلح الأرض ، وعادم المخلوق للبشر يفسدها ، لماذا؟ لأننا نعلم ظواهر الأشياء . ولو علم الذي اكتشف السولار مثلاً حقيقته لما استخدمه فيما نستخدمه نحن فيه الآن .

هذا عن عِلْمنا بأمور الدنيا ، أمّا الآخرة فنحن في غفلة عنها؛ لذلك يقول سيدنا الحسن : أعجب للرجل يمسك الدينار بأنامله فيعرف وزنه ، و (يرنه) فيعرف زيوفه من جيده ، ولا يحسن الصلاة .

ومن ذلك قوله تعالى : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى . . . } [الأنفال : 17] فنفى الرمي ، وأثبته في آية واحدة؛ لأن الجهة منفكة ، فالإثبات لشيء ، والنفي لشيء آخر . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذي تجبره على المذاكرة فيفتح الكتاب ويُقلِّب صفحاته ويهزّ رأسه ، كأنه يقرأ ، فإذا ما أخبرته فيما قرأ تجده لم يفهم شيئاً ، فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ؛ لأنه فعل فِعْل المذاكرة ، ومع ذلك هو في الحقيقة لم يذاكر؛ لأنه لم يُحصِّل شَيئاً مما ذاكره .

كذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى حين أخذ حفنة من الحصى ورمى بها ناحية جيش الكفار ، لكن { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ . . . } [الأنفال : 17] هذه الحفنة؛ لأن قدرتك البشرية لا توصل هذه الرمية إلى كل الجيش ، فهذه إذن قدرة الله .

ونلحظ في قوله تعالى :

{ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [الروم : 6] أنه استثنى من عدم العلم فئة قليلة ، فلماذا استثنى هذه الفئة مع أننا نُغيِّر الدنيوية والقوانين على الجميع؟ قالوا : لأنه حين وُضِعت هذه القوانين وشُرِّعت هذه النظم كانت هناك فئة ترفضها ولا تقرها ، لذلك لم يتهم الكل بعدم العلم .

والظاهر الذي يعلمونه من الحياة الدنيا فيه مُتَع وملاذ وشهوات ، البعض يعطي لنفسه فيها الحرية المطلقة ، وينسي عاقبة ذلك في الآخرة ، لذلك فإن أهل الريف يقولون فيمن لا يحسب حساباً للعواقب : (الديب بلع منجل ، فيقول الآخر : ساعة خراه تسمع عواه) .

واقرأ قوله تعالى : { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء والبنين والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المآب } [آل عمران : 14] .

فذكر الناس متاع الحياة الدنيا ونسُوا الباقيات الصالحات في الآخرة ، والعاقل هو الذي يستطيع أنْ يُوازن بينهما ، وسبق أنْ قُلْنا عن الدنيا بالنسبة لك : هي مدة بلقائك فيها ، هي عمرك أنت لا عمر الدنيا كلها ، كما أن عمرك فيها محدود مظنون لا بُدَّ أن ينتهي بالموت .

أما الآخرة فدار باقية دائمة ، دار نعيم لا ينتهي ، ولا يفوتك بحال ، فلماذا تشغلك الفانية عن

الباقية؟ لماذا ترضى لنفسك بصفقة خاسرة؟

لذلك لما سُئِل الإمام علي : أريد أن أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟ فقال : لم يدع الله الجواب لي ، إنما الجواب عندك أنت ، فإنْ دخل عليك اثنان : واحد جاء بهدية ، والآخر جاء يسألك عطية ، فإنْ كنت تهشُّ لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنت تهشُّ لمن يطلب العطية فأنت من أهل الآخرة .

لماذا؟ لأن الإنسان يحب مَنْ يُعمِّر ما يحب ، فإنْ كنتَ تحب الآخرة فإنك تحب الدنيا فإنك تحب مَنْ يعمرها لك؛ لذلك كان أحد الصالحين إنْ جاءه سائل يطرق بابه يهشُّ في وجهه ، ويبَشُّ ويقول : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة .

لكن ، لماذا أعاد الضمير في { وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ } [الروم : 7] لماذا لم يقل : وهم عن الآخرة غافلون؟

لو قال الحق سبحانه وهم عن الآخرة غافلون لَفُهم أن الغفلة مسيطرة عليهم ، وليست هناك أدلة تُوقِظهم ، إنما { وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ } [الروم : 7] يعني : الغفلة واقعة منهم أنفسهم ، وإلاَّ فالأدلة واضحة ، لكن ما جدوى الأدلة مع قوم هم غافلون .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ . . . } .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8)

المعنى : أن يكون ذلك منهم : لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، ويغفلون عن الآخرة ، ولم يتفكروا في أنفسهم ، فيأتي لهم بالدليل مرة في أنفسهم ، ومرة في السماوات والأرض .

الدليل في الأنفس يقول لك : فكِّر في نفسك . أي : اجعلها موضوع تفكيرك ، وتأمل ما فيها من أسرار دالة على قدرة الخالق عز وجل ، فإلى الآن ومع ما توصَّل إليه العلم ما زال في الإنسان أسرار لم تُكشف بعد .

تأمل في مقومات حياتك : الأكل والشرب والتنفس ، وكيف أنك تصبر على الطعام حتى شهر ، تتغذى من المخزون في جسمك ، وتصبر على الماء من ثلاثة إلى عشرة أيام على مقدار ما في جسمك من مائية ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير .

لذلك من حكمته تعالى حين أمَّن للبشر هذه المقوِّمات أنْ جعل مدة صبرك على الطعام أطول ، لأن طعامك قد يحتكره غيرك ، فتحتاج إلى طلبه والسَّعْي إليه ، أما الماء فمدة الصبر عليه أقل ، لذلك جعل الحق سبحانه احتكار الماء قليلاً .

أما الهواء الذي لا تصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ، فمن حكمة الله تعالى ألاَّ يُملِّك لأحد أبداً ، وإلا لو احتكر الناسُ الهواء لما استقامت الحياة ، فلو منعك صاحب الهواء هواءه لمتَّ قبل أنْ

يرضى عنك .

تأمل في نفسك حين تأكل الطعام ، وفيك مدخلان متجاوران : القصبة الهوائية ، وهي مجرى الهواء للرئتين ، والبلعوم وهو مجرى الطعام للمعدة ، تأمل ما يحدث لك إنْ دخلتْ حبة أرز واحدة في القصبة الهوائية ، فبلا شعور تشرَق بها ، وتظل تقاومها حتى تخرج ، وتأمل حركة لسان المزمار حين يسد القصبة الهوائية أثناء البلع ، هذه الحركة التلقائية التي لا دخلَ لك فيها ، ولا قدرة لك عليها بذاتك .

تأمل وضع المعدة ، وكيف أن الله جعل لها فتحة يُسمونها فتحة الفؤاد ، هي التي تُغلق المعدة بإحكام بعد الطعام ، حتى لا تؤذيك رائحته بأنْ تتسرب عصارة المعدة إلى الفم فتؤلمك ، فمن أصابه خلل في إغلاق هذه الفتحة تجد رائحة فمه كريهة يسمونه (أبخر) .

كذلك تأمل في عملية إخراج الطعام وكيف تكون طبيعياً مستريحاً؟ وفجأت تحتاج إلى الحمام وإلى قضاء الحاجة ، ماذا حدث؟ والأمر كذلك في شربة الماء ، ذلك لأن لجسمك طاقة تحمُّل في الأمعاء وفي المثانة ، ففي لحظة يريد الحمل عن الطاقة ، فتشعر بالحاجة إلى الإخراج .

وهذا مجال لا حصرَ له مهما تقدمتْ العلوم ، ومهما بحثنا في أنفسنا ، ويكفي أن نقرأ : { وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } [الذاريات : 21] فدعانا ربنا إلى البحث في أنفسنا قبل البحث فيما حولنا من آيات السماء والأرض؛ لأن أنظارنا قد تقصر عن رؤية ما في السماوات والأرض من آيات ، أما نفسي فهي أقرب دليل منك وأقوى دليل عليك .

{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ . . . } [الروم : 8] أي : فكِّروا في أنفسكم بعيداً عن ضجيج الناس وجدالهم ومِرائهم ، فحين تجادل الناس تجد لجاجة وحرصاً على الظهور ، ولو بالباطل ، إنما حينما تكون مع نفسك تسألها وتتأمل فيها ، فلا مُهيج ولا مُعاند ، لا تخجل أنْ ينتصر عليك خَصْمك ، ولا تطمع في مكانة أو منزلة؛ لذلك تصل بالنظر في نفسك إلى الحقيقة .

لذلك يخاطب القرآن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : { قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ . . . } [سبأ : 46] يعني : يا مَنْ تفكِّرون في صدق هذا الرسول ، وتتهمونه بالكذب والافتراء والسحر . . الخ أريد منكم شيئاً واحداً { أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى . . . } [سبأ : 46] أي : مثنى مثنى ، أو منفردين ، كلٌّ على حدة { ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ : 46] .

إذن : الطريق إلى الحقيقة لا يكون بالمجادلة الجماهيرية ، إنما بتأمل الإنسان مع نفسه ، أو مع مثله ، فمع الجماعة تتحرك في النفس الرغبة في العُلُو والانتصار؛ لذلك حين تناقش العاقل يقول لك (حسيبك تراجع نفسك) يعني : تفكَّر وحدك بحيث لا تُحرج من أحد ، فتكون أقرب للموضوعية وللوصول إلى الحق .

وبعد أنْ أمرنا ربنا بالتفكّر في أنفسنا يلفتنا إلى التأمل فيما حولنا من السماوات والأرض { مَّا خَلَقَ الله السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . } [الروم : 8] .

وهناك آية أخرى تقدم التفكُّر في السماء والأرض على التفكّر في النفس ، هي قوله تعالى : { لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . . } [غافر : 57] .

لماذا؟ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يُولد ، ويموت بعد عدة سنوات ، أو حتى بعد مئات السنين ، أما السماوات والأرض بما فيهما من أرض وسماء وشمس وقمر . . إلخ فهي كما هي منذ خلقها الله لم تتغير ، وهي تؤدي مهمتها دون تخلُّف ، ودون صيانة ، ودون أعطال ، فهي بحقٍّ أعظم من خَلْق الناس وأكبر .

إذن : الآية والأدلة في أنفسكم وفي السماوات والأرض ، لكن أيهما الآية الأقوى؟ قالوا : ما دامت السماوات والأرض أكبر من خَلْق الناس فهي الأقوى ، فإن لم تقنع بها فانظر في نفسك؛ لذلك يقول العلماء بالمفيد والمستفيد ، المفيد هو الله – عز وجل – فحينما يضرب لي مثلاً يضرب لي بالأقوى ، فإنْ لم أُطِقْه يأتي لي بالأقل ، والمستفيد هو الذي ينتقل من الأقل للأكبر .

ومعنى { وَمَا بَيْنَهُمَآ . . . } [الروم : 8] أي : من الكواكب والأفلاك والنجوم التي نشاهدها في جَوِّ السماء ، وكانوا في الماضي لما أرادوا أنْ يُقرّبوا أمور الدين لعقول الناس يقولون : الكواكب السبعة هي السماوات السبع ، ووقع فيها علماء كبار ، لكن الحقيقة أن هذه الكواكب السبعة كلها دون السماء الدنيا ، واقرأ قول الله تعالى : { وَزَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ . . . } [فصلت : 12] .

فأين السماء من الكواكب التي نشاهدها؟! أتعلم كم ثانية ضوئية بينك وبين الشمس ، أو بينك وبين القمر؟ بيننا وبين الشمس ثماني دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة مائة سنة ضوئية ، وبيننا وبين المجرة مليون سنة ضوئية .

ولك أن تضرب مليون سنة في 365يوماً ، وتضرب الناتج في 24 ساعة ، وتضرب الناتج في ستين دقيقة ، ثم في ستين ثانية ، ثم تضرب الناتج من ذلك في 300 ألف كيلو ، ثم تأمل الرقم الذي وصلتَ إليه .

وما أسكتَ القائلين بأن الكواكب السبعة هي السماوات السبع إلا أن العلماء اكتشفوا بعدها كوكباً جديداً حول الشمس ، وبعد سنوات اكتشفوا آخر . كذلك حين صعد رواد الفضاء إلى سطح القمر أسرع هؤلاء (الفاحشة) يقولون : لقد سبق القرآن ، وأخبر بهذا في قوله تعالى : { يامعشر الجن والإنس إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ } [الرحمن : 33] .

وقالوا : إن السلطان هو سلطان العلم الذي مكّننا من اعتلاء سطح القمر ، وعجيب أن يقول

هذا الكلام علماء كبار ، فأين القمر من السماء؟ القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحي الأرض كمصر الجديدة بالنسبة للقاهرة ، ثم إنْ كان السلطان هنا هو سلطان العلم ، فماذا تقولون في قوله تعالى بعدها : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ } [الرحمن : 35]

لقد حدث هذا التخبط نتيجة الخلط بين علوم الدين والشريعة ، وبين علوم الكونيات ، وهذه آفة علماء الدين أنْ يتدخلوا فيما لا علمَ لهم به ، فالكونيات يُؤخَذ منها الدليل على عظمة الصانع وقدرته سبحانه ، إنما لا يُؤخذ منها حكم شرعي .

ورأينا من هؤلاء مَنْ ينكر كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، ومنهم مَنْ ظن أن علماء الكونيات – مع أنهم كفرة – يعلمون الغيب لأنهم توصَّلوا بحسابات دقيقة لحركة الأرض إلى موعد الخسوف والكسوف ، وجاء الواقع وَفْق ما أخبروا به بالضبط .

وهذه المسألة – كما سبق أنْ قُلْنا – ليست من الغيب المطلق ، بل من الغيب الذي أعطانا الله المقدمات التي توصل إليه ، وقد توصّل العلماء إليه بالبحث ودراسة معطيات الكون ، ونفهم هذا في ضوء قوله تعالى : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق . . } [فصلت : 53] .

وهذه أيضاً من الآيات التي تُقدّم فيها أدلة السماوات والأرض على أدلة النفس . إذن : فالكونيات تُبنَى على علوم ودراسات ، لا دخلَ للدين بها ، الدين جاء ليقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ثم ترك الكونيات إلى أنْ تتسع العقول لفهمها .

وقوله سبحانه : { إِلاَّ بالحق . . } [الروم : 8] لأن السماوات والأرض وما بينهما من الكواكب والأفلاك تسير على نظام ثابت لا يتخلف ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير أبداً ، وتأمل حركة الكواكب والأفلاك تجد أنها تسير وَفْق نظام دقيق منضبط تماماً .

فالشمس لم تتخلف يوماً فتقول مثلاً : لن أطلع اليوم على هؤلاء الناس؛ لأنهم ظالمون ، لأن لها قانوناً تسير به ، وهي مخلوقة بحق ثابت لا يتغير ، وما دامتْ هذه الكونيات خلقت بحق وبشيء ثابت فلك أن ترتب عليها حساباتك وتضبط بها وقتك ، وأنت لا تضبط وقتك على ساعة إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة .

لذلك يقول سبحانه : { الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ } [الرحمن : 5] أي : مخلوقة بحساب؛ ولأنه سبحانه خلقها بحساب جعلها آلة للحساب ، فقال : { والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون القديم * لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : 39–40] .

ويقول سبحانه : { وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب } [يونس : 5] وهل تعلمون بالقمر عدد السنين والحساب ، إلا إذا كان هو مخلوقاً بحساب؟

ومع ذلك ، ومع أن الكون خلقه الله بالحق الثابت إياك أن تظن أن ثباته دائم باقٍ؛ لأن الله تعالى خلقه على هيئة الثبات لأجل { إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . } [الروم : 8] فبعد أن ينقضي هذا الأجل الذي أجَّلَه الله تُكوّر الشمس وتنكدر النجوم ، وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات ، فالأمر ليس مجرد أنْ يتغير الشيء الثابت ، إنما يزول وينتهي .

ثم يقول سبحانه { وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } [الروم : 8] كنا نجادل الشيوعيين نقول لهم : لقد بالغتم في تعذيب مخالفيكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وتعديتم في عقابكم ، قالوا : لأنهم ظلموا وأفسدوا في المجتمع ، فقلنا لهم : فما بال الذين ظلموا قبل هؤلاء وماتوا ولم ينالوا ما يستحقون من العقاب؟ أليس من العدل أن تقولوا بدار أخرى يُعاقبون فيها على ما اقترفوه؟

ألا يلفتكم هذا إلى ضرورة القيامة ، ووجوب الإيمان بها؟ فمن أفلت من أيديكم في الدنيا عاقبه الله تعالى في الآخرة ، ثم أنتم ترَوْنَ مبدأ الثواب والعقاب في كل شيء ، فالذي أطلق لنفسه العَنان في الدنيا ، وسار فيها على هواه ، وعَاثَ في الأرض فساداً ، ولم تنلْه يد العدالة فهو الفائز إنْ لم تكُنْ له دار أخرى يُحاسَب فيها .

إذن : فالإيمان بالآخرة وبلقاء الله ضرورة يقتضيها المنطق السليم ، ومع ذلك يكفر بها كثير من الناس { وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } [الروم : 8] .

فالمؤمن يجب أن يكون على ثقة بهذا اللقاء؛ لأن قوانين الأرض إنما تَحْمي من ظاهر المنكر ، وأما باطن المنكر فلا يعلمه إلا الله ، فلا بُدَّ من فترة يُعاقب فيها أصحاب باطن المنكر .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9)

المعنى : أيكفرون بلقاء ربهم ولم يسيروا في الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم – خُذْ فقط أمور الدنيا ، فهي كافية لمن اعتبر بها – فهؤلاء لم يسيروا في الدنيا ، ولم ينظروا فيها بعين الاعتبار بمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة ، ولم يتعظوا بما وقع في الدنيا فضلاً عما سيقع في الآخرة .

فإنْ كُنَّا صدَّقنا ما وقع للمكذِّبين في الدنيا وشاهدناه بأعيننا ، فينبغي أن نُصدِّق ما أخبر به الله عن الآخرة؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلم ما تجهل فخُذْ له وسيلة مما تعلم . إذن : سيروا في الأرض ، وانظروا بعين الاعتبار لمصير الذين كذَّبوا ، وماذا فعل الله بهم؟

والسَّيْر : قَطْع المسافات من مكان إلى مكان { أَوَلَمْ يَسيرُواْ فِي الأرض . . . } [الروم : 9] لكن أنسير في الأرض أم على الأرض؟ هذا من دقة الأداء القرآني ، ومظهر من مظاهر إعجازه ،

فالظاهر أننا نسير على الأرض ، لكن التحقيق أننا نسير في الأرض؛ لأن الذي خلقنا وخلق الأرض قال : { سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ } [سبأ : 18] .

ذلك لأن الأرض ليست هي مجرد اليابسة التي تحمل الماء ، والتي نعيش عليها ، إنما الأرض تشمل كل ما يحيط بها من الغلاف الجوي؛ لأنها بدونه لا تصلح للعيش عليها ، إذن : فغلاف الأرض من الأرض ، فحين نسير لا نسير على الأرض إنما في الأرض .

والسير في الأرض نظر له الدين من ناحيتين : سير يُعَدُّ سياحة للاعتبار ، وسيْر يُعَدُّ سياحة للاستثمار ، فالسير للاعتبار أن تتأمل الآيات في الأرض التي تمر بها ، فالجزيرة العربية مثلاً صحراء وجبال يندر فيها الزرع ، فإنْ ذهبتَ إلى أسبانيا مثلاً تجدها بلاداً خضراء لا تكاد ترى سطح الأرض من كثرة النباتات بها .

وفي كل منها خيرات؛ لأن الخالق سبحانه وزَّع أسباب الفضل على الكون كله ، وترى أن هذه الأرض الجرداء القاحلة والتي كانت يشقُّ على الناس العيش بها لما صبر عليها أهلها أعطاهم الله خيرها من باطن الأرض ، فأصبحت تمد أعظم الدول وأرقاها بالوقود الذي لا يُسْتغنى عنه يوماً واحداً في هذه البلاد ، وحينما قطعناه عنهم في عام 1973ضجُّوا وكاد البرد يقتلهم .

حين تسير في الأرض وتنظر بعين الاعتبار تجد أنها مثل (البطيخة) ، لو أخذتَ منها قطاعاً طولياً فإنه يتساوى مع باقي القطاعات ، كذلك الأرض وزَّع الله بها الخيرات على اختلاف ألوانها ، فمجموع الخير في كل قطاع من الأرض يساوي مجموع الخيرات في القطاعات الأخرى .

الجبال التي هجرناها في الماضي وقُلْنا إنها جَدْب وقفر لا حياةَ فيها ، هي الآن مخازن للثروات وللخيرات قد اتجهت إليها الأنظار لإعمارها والاستفادة منها ، وانظر مثلاً إلى ما يحدث من نهضة عمرانية في سيناء .

إذن : فالخالق سبحانه وزَّع الخيرات على الأرض ، كما وزَّع المواهب على الخَلْق ليظل الجميع مرتبطاً بعضه ببعض برباط الحاجة لا يستغني الناس بعضهم عن بعض ، ولا البلاد بعضها عن بعض ، وهنا لفتة إيمانية : أن الخلق كلهم عباد الله وصنعته ، والبلاد كلها أرض الله وملكه ، وليس لله ولد ، وليس بينه وبين أحد من عباده قرابة ، فالجميع عنده سواء ، لذلك سبق أن قلنا : لا ينبغي لك أنْ تحقد على صاحب الخير أو تحسده؛ لأن خيره سيعود عليك حتماً .

ومعنى { الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . } [الروم : 9] أي : الأمم التي كذَّبَتْ الرسل ، وفي آية أخرى يوضح سبحانه عاقبة هؤلاء المكذبين : { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت : 40] .

ويخاطب سبحانه كفار قريش : { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [

الصافات : 137-138] .

أي : في أسفاركم ورحلات تجارتكم تروْنَ مدائن صالح وغيرها من القرى التي أصابها العذاب مازالت شاخصة لكل ذي عينين .

ويقول سبحانه : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد } [الفجر : 6-8] وكانوا في رمال الأحقاف { وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ } [الفجر : 9-13] .

لقد كان لكل هؤلاء حضارات ما زالت حتى الآن تبهر أرقى حضارات اليوم ، فيأتون إليها ليتأملوا ما فيها من أسرار وعجائب ، ومع ذلك لم تستطع هذه الحضارات أنْ تحمي نفسها من الدمار والزوال ، وما استطاعت أنْ تمنع نفسها من عذاب الله حين حَلَّ بها ، إذن : لكم في هؤلاء عِبْرة .

وكأن الحق سبحانه في قوله : { أَوَلَمْ يَسيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . } [الروم : 9] يقول لكفار قريش : أنتم يا مشركي قريش أقلّ الأمم ، لا قوةَ لكم ، ولا مال ولا حضارة ولا عمارة ، فمن اليسير علينا أن نأخذكم كما أخذنا مَنْ هم أقوى منكم ، إنما سبق أنْ أخذتم العهد في قوله سبحانه : { وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال : 33] .

لذلك يقول بعدها : { كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا . . . } [الروم : 9] فالأمم المكذّبة التي أخذها الله وجعلها لكم عبرة كانت أقوى منكم ، وأخصب أرضاً ، لذلك أثاروا الأرض . أي : حرثوها للزراعة وللإعمار ، وأنتم بواد ذي ذرع ، والحرث يُطلَق على الزرع كما في قوله سبحانه : { وَيُهْلِكَ الحرث والنسل . . . } [البقرة : 205] .

ذلك لأن الأرض لا تنبت النبات الجيد إلا إذا أثارها الفلاح ، وقلَّبها ليتخلل الهواء تربتها ، فتجود عليه وتؤدي مهمتها كما ينبغي ، أما إنْ تركتها هامدة متماسكة التربة والذرات ، فإنها تمسك النبات ولا تعطي فرصة للجذور البسيطة لأنْ تمتد في التربة ، خاصة في بداية الإنبات .

وفي موضع آخر يقول – سبحانه وتعالى – عن النبات : { أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون } [الواقعة : 63-64] .

وفي قصة البقرة مع بني إسرائيل لما تلكئوا في ذبحها وطلبوا أوصافها ، قال لهم الحق سبحانه : { إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرض وَلاَ تَسْقِي الحرث . . . } [البقرة : 71] .

يعني : بقرة مُرفهة غير سهلة الانقياد ، فلا تُستخدم ، لا في حَرْث الأرض وإثارتها ، ولا في سَقْيها بعد أنْ تُحرَث؛ لذلك تجد أن الفلاح الواعي لا بُدَّ أن يثير الأرض ويُقلِّب تربتها قبل

الزراعة ، ويتركها فترة ليتخللها الهواء والشمس ، ففي هذا إحياء للتربة وتجديد لنشاطها ، كما يقولون أيضاً : قبل أن تزرع ما تحتاج إليه انزع ما لا تحتاج إليه .

إذن : فهؤلاء القوم كانت لهم زروع وثمار تمتعوا بها وجمعوا خيراتها .

ومعنى { عَمَرُوهَا . . . } [الروم : 9] أي : بما يسَّر الله لهم من الطاقات والإمكانات ، وأعملوا فيها الموهبة التي جعلها الله فيهم ، فاستخرجوا من الأرض خيراتها ، كما قال سبحانه : { هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا . . . } [هود : 61] .

وإعمار الأرض يكون بكل مظهر من مظاهر الرقي والحياة ، إما بالزرع أو الغَرْس ، وإما بالبناء ، وإما بشقّ الأنهار والمصارف وإقامة الطرق وغير ذلك مما ينفع الناس ، ونُفرّق هنا بين الزرع والغَرْس : فالزرع ما تزرعه ثم تحصده مرة واحدة كالقمح مثلاً ، أما الغرس فما تغرسُه ، ويظل فترة طويلة يُدر عليك ، فمحصوله مُتجدِّد كحدائق الفاكهة ، والزرع يكون ببذْر الحبِّ ، أما الغرس فنبتة سبق إعدادها تُغرس .

ثم يقول سبحانه : { وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات . . . } [الروم : 9] فبعد أنْ أعطاهم مقوِّمات الحياة وإمكانات المادة وطاقاتها ، وبعد أنْ جَنَوْا ثمارها لم يتركهم للمادة إنما أعطاهم إمكانات القيم والدين ، فأرسل لهم الرسل { بالبينات . . . } [الروم : 9] أي : الآيات الواضحات الدالة على صِدْق الرسول في البلاغ عن ربه وهذه التي نسميها المعجزات .

وسبق أنْ ذكرنا أن كلمة الآيات تُطلَق على معانٍ ثلاثة : آيات كونية دالة على قدرة الصانع سبحانه كالشمس والقمر ، وآيات تُؤيِّد الرسل وتُثبت صِدْقهم في البلاغ عن الله وهي المعجزات ، وآيات القرآن التي تحمل الأحكام والمنهج ، وكلها أمور واضحة بينة .

وقوله تعالى : { فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [الروم : 9] نعم ، ما ظلمهم الله؛ لأنه سبحانه أمدهم بمقوِّمات الحياة وإمكانات المادة ، ثم أمدهم بمقومات الروح والقيم ، فإنْ حادوا بعد ذلك عن منهجه سبحانه فما ظلموا إلا أنفسهم .

ثم نقول : كيف يتأتَّى الظلم من الله تعالى؟ الظلم يقع نعم من الإنسان لأخيه الإنسان؛ لأنه يحقد عليه ، ويريد أنْ يتمتع بما في يده ، فالظالم يأخذ حقَّ المظلوم الذي لا قدرةَ له على حماية حقه . فكيف إذن نتصور الظلم من الله – عز وجل – وهو سبحانه مالك كل شيء ، وغني عن كل شيء؟ إذن : ما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم حينما حادوا عن طريق الله ومنهجه .

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)

الإساءة ضدها الإحسان ، وسبق أن قلنا : إن الإحسان : أن تترك الصالح على صلاحه ، أو أن تزيده صلاحاً ، ومثَّلْنا لذلك ببئر الماء الذي يشرب منه الناس ، فواحد يأتي إليه فيردمه أو يُلوث ماءه ، وآخر يبني حوله سياجاً يحميه أو يجعل له آلة تُخرج الماء وتُريح الناس ، فهذا أحسن وذاك

أساء ، فإذا لم تكُنْ محسناً فلا أقلَّ من أنْ تكفَّ إساءتك ، وتدع الحال على ما هو عليه .
والحق – سبحانه وتعالى – خلق الكون على هيئة الصلاح ، ولو تركناه كما خلقه ربه لَظلَّ على صلاحه ، إذاً لا يأتي الفساد إلا من تدخُّل الإنسان؛ لذلك يقول سبحانه { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض قالوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * ألا إِنَّهُمْ هُمُ المفسدون ولكن لاَّ يَشْعُرُونَ } [البقرة : 11-12] .
وينبغي على الإنسان أنْ يأخذ من ظواهر الكون ما يفيده ، أذكر أننا حينما سافرنا إلى مكة سنة 1950 كنا ننتظر السَّقاء الذي يأتي لنا بقربة الماء ، ويأخذ أجرة حملها ، وكنا نضعها في (البزان) وهو مثل (الزير) عندنا ، فإذا أراد أحدنا أن يتوضأ يأخذ من الماء كوزاً واحداً ويقول : نويت نية الاغتراف ، ولا يزيد في وضوئه عن هذا الكوز؛ لأننا نشتري الماء ، أما الآن فالواحد منا لا تكفيه (صفيحة) لكي يتوضأ من حنفية الماء . وفي ترشيد استعمال الماء ترشيد أيضاً للصرف الصحي وللمياه الجوفية التي تضر بالمباني وبالتربة الزراعية .
لذلك يحذرنا النبي صلى الله عليه وسلم من الإسراف في استعمال الماء حتى لو كنَّا على نهر جارٍ .
فمعنى الذين أساءوا : أي الذي جاء إلى الصالح فأفسده أو أنشأ إفساداً جديداً ، وطبيعي أن تكون عاقبته من جنس فِعْله { عَاقِبَةَ الذين أَسَاءُواْ السواءى } [الروم : 10] والسُّوأى : مؤنث سيء مثل : حسن للمذكر ، وحُسْنى للمؤنث . وأصغر وصُغْرى ، فهي أفعل تفضيل من السُّوء .
ثم يقول سبحانه : { أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ } [الروم : 10] فالأمر لم يقف عند حَدِّ التكذيب بالآيات ، إنما تعدّى التكذيب إلى الاستهزاء ، فما فلسفة أهل الاستهزاء حينما يستهزئون بالآخرين؟ كثيراً ما نلاحظ أن التلميذ الفاشل يستهزيء بالمجتهد ، والمنحرف يستهزيء بالمستقيم ، لماذا؟
لأن حظ الفاشل أنْ يزهد المجتهد في اجتهاده ، وحظ المنحرف أن يصير المستقيم منحرفاً مثله ، ومن هنا نسمع عبارات السخرية من الآخرين كما حكاها القرآن : { إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ } [المطففين : 29-32] .
لكن لا تتعجل ، وانتظر عاقبة ذلك حينما يأخذ هؤلاء المؤمنون أماكنهم في الجنة ، ويجلسون على سُرُرها وأرائكها : { فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [المطففين : 34-36] .
والخطاب هنا للمؤمنين الذين تحملوا السخرية والاستهزاء في الدنيا : أقدرنا أنْ نجازيهم على ما فعلوه بكم؟

إذن : فلسفة الاستهزاء أن الإنسان لم يقدر على نفسه ليحملها على الفضائل ، فيغيظه كل صاحب فضيلة ، ويؤلمه أنْ يرى مستقيماً ينعم بعزِّ الطاعة ، وهو في حمئة المعصية؛ لذلك يسخر منه لعله ينصرف عما هو فيه من الطاعة والاستقامة .

ثم يقول الحق سبحانه : { الله يَبْدَأُ الخلق . . . } .

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11)

هل بدأ الله الخلق بالفعل ، أم مازال يبدأ الخلق؟ الأسلوب هنا أسلوب ربٍّ يتكلم ، فهو سبحانه بدأ الخَلْق أصوله أولاً ، وما يزال خالقاً سبحانه ، وما دام هو الذي خلق بَدْءاً ، فهو الذي يعيد { الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ . . . . } [الروم : 11] .

وفي أعراف البشر أن إعادة الشيء أهون من ابتدائه؛ لأن الابتداء يكون من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، لذلك يقول الحق سبحانه : { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . } [الروم : 27] أي : بمقاييسكم وعلى قَدْر فَهْمكم ، لكن في الحقيقة ليس هناك هَيِّن وأهون في حقه تعالى؛ لأنه سبحانه لا يفعل بمزاولة الأشياء وعلاجها ، إنما بكُنْ فيكون ، لكن يخاطبنا سبحانه على قَدْر عقولنا .

فالحق سبحانه بدأ الخلق وما يزال سبحانه يخلق ، وانظر مثلاً إلى الزرع تحصده وتأخذ منه التقاوي للعام القادم ، وهكذا في دورة مستمرة بين بَدْء وإعادة { الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ . . . } [الروم : 11] .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالوردة الغضَّة الطرية بما فيه من جمال في المنظر والرائحة ، فإذا ما قُطِفتْ جفَّتْ ، لأن المائية التي بها تبخرتْ ، وكذلك رائحتها ولونها انتشر في الأثير ، ثم يتفتت الباقي ويصير تراباً ، فإذا ما زرعت وردة جديدة أخذت من المائية التي تبخرت ومن اللون ومن الرائحة التي في الجو .

وهكذا تبدأ دورة وتنتهي أخرى؛ لأن مُقوِّمات الحياة التي خلقها الله هي هي في الكون ، لا تزيد ولا تنقص ، فالماء في الكون كما هو منذ خلقه الله : هَبْ أنك شربت طوال حياتك عشرين طناً من الماء ، هل تحمل معك هذا الماء الآن؟ لا إنما تَمَّ إخراجه على هيئة عرق وبول ومخاط وصماخ أذن . . إلخ ، وهذا كله تبخَّر ليبدأ دورة جديدة .

ثم يقول سبحانه : { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [الروم : 11] نلحظ أن الكلام هنا عن الخَلْق { الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ . . . } [الروم : 11] لكن انتقل السياق من المفرد إلى الجمع { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [الروم : 11] ولم يقل يرجع أي : الخَلْق ، فلماذا؟

قالوا : لأن الناس جميعاً لا يختلفون في بَدْء الخلق ولا في إعادته ، لكن يختلفون في الرجوع إلى الله ، فهذا مؤمن ، وهذا كافر ، هذا طائع ، وهذا عاصٍ ، وهذا بين بين ، ففي حال الرجوع إلى الله

ستفترق هذه الوحدة إلى طريقين : طريق للسعداء ، وطريق للأشقياء ، لذلك لزم صيغة الإفراد في البَدْء وفي الإعادة ، وانتقل إلى الجمع في الرجوع إلى الله لاختلافهم في الرجوع
ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة . . . } .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12)

معنى { يُبْلِسُ المجرمون } [الروم : 12] أي : يسكتون سُكوتَ اليائس الذي لا يجد حجة ، فينقطع لا يدري ما يقول ولا يجد مَنْ يدافع عنه ، حتى قادتهم وكبراؤهم قد سبقوهم إلى العذاب ، فلم يعُدْ لهم أمل في النجاة ، كما قال تعالى : { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة . . . } [هود : 98] ، ومن ذلك سُمِّي (إبليس) ؛ لأنه يئس من رحمة الله .
وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ } [الأنعام : 44] .
أي : لما نسوا منهج الله أراد سبحانه أن يعاقبهم في الدنيا ، وحين يعاقبهم الله في الدنيا لا يأخذهم على حالهم إنما يُرخي لهم العَنان ، ويُزيد لهم في الخيرات ، ويُوسِّع عليهم مُتَع الدنيا وزخارفها ، حتى إذا أخذهم على هذه الحال كان أَخْذه أليماً ، وكانت سقطتهم من أعلى .
كما أنك مثلاً لا تُوقع عدوك من على الحصيرة ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون الانتقام أبلغَ ، أمّا إنْ أخذهم على حال الضِّيق والفقر ، فالمسألة إذن هيِّنة ، وما أقرب الفقر من العذاب!
ولنا ملحظ في قوله تعالى { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ . . . . } [الأنعام : 44] فمادة فتح إنْ أراد الحق سبحانه الفتح لصالح المفتوح عليه يقول { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً } [الفتح : 1] وإن أراد الفتح لغير صالحه يقول { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ . . . } [الأنعام : 44] والفرق بيّن بين المعنيين ، لأن اللام هنا للملك { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً } [الفتح : 1] إنما على { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ . . . } [الأنعام : 44] فتعني ضدهم وفي غير صالحهم ، كما نقول في المحاسبة : له وعليه ، له في المكسب وعليه في الخسارة .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13)

نعم ، لم يجدوا من شركائهم مَنْ يشفع لهم؛ لأن الشركاء قد تبرأوا منهم ، كما قال سبحانه : { إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب } [البقرة : 166] .
وكذلك يقول التابعون : { رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين } [فصلت : 29] .
وما أشبه هذين : التابع والمتبوع بتلميذين فاشلين تعوَّدا على اللعب وتضييع الوقت ، وشغَل كل

منهما صاحبه عن دروسه ، وأغواه بالتسكّع في الطرقات ، إلى أنْ داهمهما الامتحان وفاجأهما الحقيقة المرّة ، فراح كل منهما يلعن الآخر ويسبُّه ، ويلقي عليه بالمسئولية .

إذن : ساعة الجد تنهار كل هذه الصلات الواهية ، وتتقطع كل الحبال التي تربط أهل الباطل في الدنيا { وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ } [الروم : 13] ولِمَ لا وقد تكشفتْ الحقائق ، وظهر زيفهم وبان ضلالهم؟

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة . . . } .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)

أي : الذين اجتمعوا في الدنيا على الشر وعلى الضلال يتفرقون يوم القيامة ، ويصيرون أعداءً وخصوماً بعد أنْ كانوا أخلاء ، فيمتاز المؤمنون في ناحية والكافرون في ناحية ، حتى العصاة من المؤمنين الذين لهم رائحة من الطاعة لا يتركهم المؤمنون ، إنما يشفعون لهم ويأخذونهم في صفوفهم .

والتنوين في { يَوْمَئِذٍ . . } [الروم : 14] بدل من جملة { وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة . . . } [الروم : 14] أي : يوم تقوم الساعة يتفرقون .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15)

ما دام الخلق سيمتازون يوم القيامة ويتفرقون ، فلا بُدَّ أن نرى هذه القسمة : الذين آمنوا والذين كفروا ، وها هي الآيات تُرينا هذا التفصيل : { فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . } [الروم : 15] فما جزاؤهم { فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ } [الروم : 15] الروضة : هي المكان المليء بالخضرة والأنهار والأشجار والنضارة ، وكانت هذه عادة نادرة عند العرب؛ لأنهم أهل صحراء تقلُّ في بلادهم الحدائق والرياض .

لذلك ، فالرياض والبساتين عندهم شيء عظيم ونعمة كبيرة ، ومعنى { يُحْبَرُونَ } [الروم : 15] من الحبور ، وهو الفرحة حينما يظهر عليك أثر النعمة ، هذا عن المؤمنين ، فماذا عن الكافرين؟

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ . . . } .

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16)

المحضر بالفتح : الذي يحضره غيره ، ولا تُقَال إلا في الشر ، وفيها ما يدلُّ على الإدانة ، وإلا لحضر هو بنفسه ، ونحن نفزع لسماع هذه الكلمة؛ لأن المحضر لا يأتيك إلا لشر ، كذلك حال

الكفار والمكذِّبين يوم القيامة تجرُّهم الملائكة ، وتجبرهم ، وتسوقهم للحضور رَغْماً عنهم .
ثم يقول الحق سبحانه : { فَسُبْحَانَ الله حِينَ . . . } .

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17)

هنا تتجلى عظمة الإيمان ، وتتجلى محبة الله تعالى لخَلْقه ، حيث يدعوهم إليه في كل أوقات اليوم والليلة ، في الصباح وفي المساء ، في العشية والظهيرة .
والحق سبحانه حين يطلب من عباده أن يؤمنوا به ، إنما لحبه لهم ، وحرصه عليهم ليعطيهم ، ويفيض عليهم من آلائه ، وإلا فهو سبحانه بصفات الكمال والجلال غنيٌّ عنهم ، فإيمان المؤمنين لا يزيد في مُلكه سبحانه شيئاً ، كذلك كُفْر الكافرين لا ينقص من مُلكه سبحانه شيئاً .
إذن : المسألة أنه سبحانه يريد أنْ يبرَّ صنعته ، ويُكرم خَلْقه وعباده؛ لذلك يستدعيهم إلى حضرته ، وقرَّبنا هذه المسألة بمثل – ولله تعالى المثل الأعلى – ، قلنا : إذا أردتَ أنْ تقابل أحد العظماء ، أو أصحاب المراكز العليا ، فدون هذا اللقاء مشاقّ لا بُدَّ أن تتجشمها .
لا بُدَّ أن يُؤْذَن لك أولاً في اللقاء ، ثم يُحدَّد لك الزمان والمكان ، بل ومدة اللقاء وموضوعه ، وربما الكلمات التي ستقولها ، ثم هو الذي يُنهي اللقاء ، لا أنت .
هذا إنْ أردتَ لقاء الخَلْق ، فما بالك بلقاء الخالق عز وجل؟ يكفي أنه سبحانه يستدعيك بنفسه إلى حضرته ، ويجعل ذلك فرضاً وحتماً عليك ، ويطلبك قبل أنْ تطلبه ، ويذكرك قبل أن تذكره ، لا مرة واحدة ، إنما خمس مرات في اليوم والليلة ، فإذا لَبَّيْتَ طلبه أفاض عليك من رحمته ، ومن نعمه ، ومن تجلياته ، وما بالك بصنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيصيبها عطب؟
ثم يترك لك ربك كل تفاصيل هذه المقابلة ، فتختار أنت الزمان والمكان والموضوع ، فإنْ أردتَ أنْ تطيل أمد المقابلة ، فإن ربك لا يملّ حتى تمل؛ لذلك فإن أهل المعرفة الذين عرفوا الله تعالى قَدْره ، وعرفوا عطاءه ، وعرفوا عاقبة اللجوء إليه سبحانه يقولون :

حَسْبُ نفسِي عِزّاً بأنِّيَ عَبْدٌ ... يَحْتَفِي بي بلاَ مَواعيدَ رَبّ
هُوَ في قُدْسِهِ الأعَزّ ولكن ... أنا ألقي كيفما وأين أحب

والعبودية كلمة مكروهة عند البشر؛ لأن العبودية للبشر ذُلٌّ ومهانة ، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فهي قمة العزّ كله ، وفيها يأخذ العبد غير سيده؛ لذلك امتنّ الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه العبودية في قوله سبحانه : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . } [الإسراء : 1] .
وكلمة { فَسُبْحَانَ الله . . . } [الروم : 17] هي في ذاتها عبادة وتسبيح لله تعني : أُنزِّه الله عن أنْ يكون مثله شيء؛ لذلك يقول أهل المعرفة : كل ما يخطر ببالك فالله غير ذلك؛ لأنه سبحانه

{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11] .
فالله سبحانه مُنزَّه في ذاته ، مُنزَّه في صفاته ، مُنزَّه في أفعاله ، فإنْ وجدنا صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق سبحانه نفهمها في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11] .
وقلنا : إنك لو استقرأت مادة سبح ومشتقاتها في كتاب الله تجد في أول الإسراء : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . }

[الإسراء : 1] وفي أول سورة الحديد : { سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض . . . } [الحديد : 1] ثم { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض . . . } [الجمعة : 1] .
فكأن الله تعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، فالتسبيح ثابت لله أولاً ، وبعد ذلك سبَّحَتْ له السماوات والأرض ، ولم ينقطع تسبيحها ، إنما ما زالت مُسبِّحة لله .
فإذا كان التسبيح ثابتاً لله تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، وحين خلق السماوات والأرض سبَّحتْ له السماوات والأرض وما زالت ، فعليك أنت أيها الإنسان ألاَّ تشذَّ عن هذه القاعدة ، وألاَّ تتخلف عن هذه المنظومة الكونية ، وأن تكون أنت كذلك مُسبِّحاً؛ لذلك جاء في القرآن : { سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى } [الأعلى : 1] .
فاستح أنت أيها الإنسان ، فكل شيء في الوجود مُسبِّح { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . } [الإسراء : 44] .
لكن أراد بعض العلماء أنْ يُقرِّب تسبيح الجمادات التي لا يسمع لها صوتاً ولا حِسّاً ، فقال : إن تسبيحها تسبيح دلالة على الله . ونقول : إنْ كان تسبيحَ دلالة كما تقول فقد فهمته ، والله يقول { ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . } [الإسراء : 44] .
إذن : ففهْمُك له غير حقيقي ، وما دام أن الله أخبر أنها تُسبِّح فهي تسبِّح على الحقيقة بلغة لا نعرفها نحن ، ولِمَ لا والله قد أعطانا أمثلة لأشياء غير ناطقة سبَّحتْ؟ ألم يقُلْ عن الجبال أنها تُسبِّح مع داود عليه السلام : { ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ والطير . . . } [سبأ : 10] ألم يُثبت للنملة وللهدهد كلاماً ومنطقاً؟ وقال في عموم الكائنات : { كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . } [النور : 41] .
إذن : فالتسبيح لله تعالى من كل الكائنات ، والحق سبحانه يعطينا المثل في ذواتنا : فأنت إذا لم تكُنْ تعرف الإنجليزية مثلاً ، أتفهم مَنْ يتكلم بها؟ وهي لغة لها أصوات وحروف تُنطق ، وتسمعها بنفس الطريقة التي تتكلم أنت بها .
لذلك تأتي كلمة (سبحان الله) في الأشياء التي يجب أنْ تُنزه الله فيها ، واقرأ إنْ شئت قوله تعالى في الإسراء : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . } [الإسراء : 1] كأنه سبحانه يقول لنا : نزِّهوا الله عن مشابهة البشر ، وعن قوانين البشر في هذه المسألة ، إياك أنْ تقول : كيف ذهب

محمد من مكة إلى بيت المقدس ، ثم يصعد إلى السماء ، ويعود في ليلة واحدة .
فبقانون البشر يصعُب عليك فَهْم هذه المسألة ، وهذا ما فعله كفار مكة حيث قالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وتدَّعي أنك أتيتها في ليلة؟ فقاسوا المسألة والمسافات على قدرتهم هم ، فاستبعدوا ذلك وكذَّبوه .
ولو تأملوا الآية { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . } [الإسراء : 1] وهم أهل اللغة لَعرفوا أن الإسراء لم يكُنْ بقوة محمد ، فلم يقُلْ أسريتُ ، ولكن قال : « أُسرِي بي » ، فلا دخلَ له في هذه المسألة وقانونه فيها مُلْغى ، إنما أسرى بقانون مَنْ أسرى به .
إذن : عليك أن تُنزه الله عن قوانينك في الزمان وفي المسافة ، وإنْ أردتَ أن تُقرب هذه المسألة للعقل ، فالمسافة تحتاج إلى زمن يتناسب مع الوسيلة هذه المسألة للعقل ، فالمسافة تحتاج إلى زمن يتناسب مع الوسيلة التي ستقطع بها المسافة ، فالذي يسير غير الذي يركب دابةً ، غير الذي يركب سيارة أو طائرة أو صاروخاً وهكذا .

فإذا كان في قوانين البشر : إذا زادت القوة قَلَّ الزمن ، فكيف لو نسَبْتَ القوة إلى الله عز وجل؟ عندها نقول : لا زمن فإنْ قُلْتَ : إن ألغينا الزمن مع قوة الله وقدرته تعالى ، فلماذا ذكر الزمن هنا وقُدِّر بليلة؟
قالوا : لأن الرحلة لم تقتصر على الذهاب والعودة ، إنما تعرَّض فيها النبي صلى الله عليه وسلم لَمَراء كثيرة ، وقابل هناك بعض الأنبياء ، وتحدَّث معهم ، فهذه الأحداث لرسول الله هي التي استغرقتْ الزمن ، أمّا الرحلة فلم تستغرق وقتاً .
كذلك جاءت كلمة (سبحان) في قوله تعالى : { سُبْحَانَ الذي خَلَق الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } [يس : 36] لماذا؟ لأن مسألة الخَلْق من المسائل التي يقف عندها العقل ، وينبغي أنْ تُنزِّه الله عن أنْ يشاركه فيها أحد .
ولما نزلت هذه الآية كان الناس يعرفون الزوجية في النبات لأنهم كانوا يُلقِّحون النخل ، ويعرفونها في الإنسان؛ لأنهم يتزوجون وينجبون ، وكذلك يعرفونها في الحيوان ، هذه حدود العقل في مسألة الزوجية .
لكن الآية لم تقتصر على ذلك ، إنما قال سبحانه { وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } [يس : 36] لأن المستقبل سيكتشف لهم عن أشياء أخرى تقوم على نظرية الزوجية ، وقد عرفنا نحن هذه النظرية في الكهرباء مثلاً حيث (السالب) و (الموجب) ، وفي الذرات حيث (الإلكترونات) ، و (البروتونات) . . إلخ .
إذن : ساعةَ تسمع كلمة التسبيح فاعلم أنك ستستقبل حدثاً فريداً ، ليس كأحداث البشر ، ولا

يخضع لقوانينهم .
ثم يقول سبحانه : { وَلَهُ الحمد فِي السماوات . . . } .

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18)

نلحظ أن قوله تعالى { وَلَهُ الحمد فِي السماوات والأرض . . . } [الروم : 18] فصلَتْ بين الأزمنة المذكورة ، فجعلت { تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } [الروم : 17] في ناحية ، و { وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ } [الروم : 18] في ناحية ، مع أنها جميعاً أوقات وأزمنة في اليوم والليلة ، لماذا؟
قالوا : لأنه سبحانه يريد أنْ يُشعرنا أن له الحمد ، ويجب أنْ تحمده على أنه مُنزَّه عن التمثيل؛ لأنها في مصلحتك أنت ، وأنت الجاني لثمار ها التنزيه ، فإنْ أرادك بخير فلا مثيلَ له سبحانه يمنعه عنك ، وله وحده الكبرياء الذي يحميك أن يتكبر أحد عليك ، وله وحده تخضع وتسجد ، لا تسجد لغيره ، فسجودك لوجه ربك يكفيك كل الأوجه ، كما قال الشاعر :
فَالسُّجُودُ الذي تَجْتويهِ فيه ... مِنْ أُلُوف السُّجُودِ نَجَاةُ
إذن : من مصلحتك أن يكون الله تعالى هو الواحد الذي لا مثيلَ له ، والقوى الذي لا يوجد أقوى منه ، والمتكبِّر بحقٍّ؛ لأن كبرياءه يحمي الضعيف أنْ يتكبّر عليه القوي ، يجب أنْ تحمد الله الذي تعبَّدنا بالسجود له وحده ، وبالخضوع له وحده؛ لأنه أنجاك بالسجود له أنْ تسجد لكل قوي عنك ، وهذا من عظمته تعالى ورحمته بخَلْقه؛ لذلك تستوجب الحمد .
لذلك نقول في العامية (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) لماذا؟ لأنه لا يعيش عزيزاً مُكرّماً إلا إذا كان له كبير يحميه ، ويدافع عنه ، كذلك أنت لا تكون عزيزاً إلا في عبوديتك لله .
والخَلْق جميعاً بالنسبة لله تعالى سواء ، فليس له سبحانه من عباده ولد ولا قريب ، فلا مؤثرات تؤثر عليه ، فيحابي أحداً على أحد ، فنحن جميعاً شركة في الله؛ لذلك يقول سبحانه { مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً } [الجن : 3] أي : لا شيء يؤثر عليه سبحانه .
وقال بعد التسبيح { وَلَهُ الحمد . . . } [الروم : 18] لأن التسبيح ينبغي أنْ يُتبَع بالحمد فتقول : سبحان الله والحمد لله ، أي : الحمد لله على أنني سبَّحت مسبِّحاً .
وحين نتأمل هذه الأوقات التي أمرنا الله فيها بالتسبيح ، وهي المساء والصباح والعشي ، وهي من العصر إلى المغرب ، ثم الظهيرة نجد أنها أوقات عامة سارية في كَوْن الله لا تنقطع أبداً ، فأيّ صباح وأيّ مساء؟ صباحي أنا؟ أم صباح الآخرين؟ مسائي أم مساء غيري في أقصى أطراف المعمورة؟
إن المتأمل في دورة الوقت يجد أن كل لحظة فيه لا تخلو من صباح ومساء ، وعشية وظهيرة ، وهذا يعني أن الله تعالى مُسبِّح معبود في كل لحظة من لحظات الزمن .
وفي ضوء هذا نفهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب

مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » فالكون لا يخلو في لحظة واحدة من ليل أو نهار ، وهذا يعني أن يد الله سبحانه مبسوطة دائماً لا تُقبَض : { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ . . . } [المائدة : 64] .

ثم يقول الحق سبحانه : { يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت . . . } .

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19)

أولاً : ما مناسبة الحديث عن البعث ، وإخراج الحيّ من الميت ، وإخراج الميت من الحيّ بعد الحديث عن تسبيح الله وتحميده؟ قالوا : لأنه تكلَّم عن المساء والصباح ، وفيهما شبه بالحياة والموت ، ففي المساء يحلُّ الظلام ، ويسكُن الخَلْق وينامون ، فهو وقت للهدوء والاستقرار ، والنوم الذي هو صورة من صور الموت؛ لذلك نسميه الموت الأصغر ، وفي الصباح وقت الحركة والعمل والسعي على المعاش ، ففيه إذن حياة ، كما يقول سبحانه : { وَجَعَلْنَا اليل لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً } [النبأ : 10-11] .

ويُمثَّل الموت والبعث بالنوم والاستيقاظ منه ، كما جاء في بعض المواعظ : « لتموتُن كما تنامون ، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون » .

وما دُمْنا قد شاهدنا الحالَيْنِ ، وعايَنا النوم واليقظة ، فلنأخذ منهما دليلاً على البعث بعد الموت ، وإنْ أخبرنا القرآن بذلك ، فعلينا أنْ نُصدِّق ، وأنْ نأخذ من المشاهد دليلاً على الغَيْب ، وهذا ما جاءتْ به الآية :

{ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي . . . } [الروم : 19] .

وقوله تعالى هنا (الحي والميت) أي : في نظرنا نحن وعلى حَدِّ عِلْمنا وفَهمنا للأمور ، وإلا فكُلُّ شيء في الوجود له حياة تناسبه ، ولا يوجد موت حقيقي إلا في الآخرة التي قال الله فيها : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . } [القصص : 88] .

فضدُّ الحياة الهلاك بدليل قوله تعالى : { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . } [الأنفال : 42]

وما دام كلُّ شيء هالكاً إلا وجهه تعالى ، فكل شيء بالتالي حَيٌّ ، لكنه حي بحياة تناسبه . وأذكر أنهم كانوا يُعلِّمونا كيفية عمل المغناطيس وانتقال المغناطيسية من قطعة مُمغنطة إلى قطعة أخرى بالدَّلْك في اتجاه واحد ، وفعلاً شاهدنا أن قطعة الحديد تكتسب المغناطيسية .

وتستطيع أنْ تجذب إليها قطعة أخرى ، أليس هذا مظهراً من مظاهر الحياة؟ أليست هذه حركة في الجماد الذي نراه نحن جماداً لا حياةَ فيه ، وهو يؤثر ويتأثر بغيره ، وفيه ذرات تتحرك بنظام ثابت ولها قانون .

إذن : نقول لكل شيء موجود حياته الخاصة به ، وإنْ كُنَّا لا ندركها؛ لأننا نفهم أن الحياة في

الأحياء فحسب ، إنما هي في كل شيء وكَوْنك لا تفقه حياة هذه الأشياء ، فهذه مسألة أخرى .
لذلك سيدنا سليمان – عليه السلام – لما سمع كلام النملة ، وكيف أنها تفهم وتقف ديدباناً لقبيلتها ، وتفهم حركة الجيش وعاقبة الوقوف في طريقه ، فتحذر جماعتها ادخلوا مساكنكم ، وكيف كانت واعية ، وعادلة في قولها . { لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } [النمل : 18] فهي تعلم أن الجيش لو حطَّم النمل ، فهذا عن غير مقصد منهم ، وعندها أحسَّ سليمان بنعمة الله عليه بأنْ يعلم ما لا يعلمه غيره من الناس ، فقال : { رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ . . . } [النمل : 19] .
فمعنى { يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت .

. . . } [الروم : 19] أي : في عُرْفنا نحن ، وعلى قَدْر فَهْمنا للحياة وللموت ، والبعض يقول : يعني يُخرج البيضة من الدجاجة ، ويُخرج الدجاجة من البيضة ، وهذا الكلام لا يستقيم مع منطق العقل ، وهل كل بيضة بالضرورة تُخرج دجاجة؟ لا بل لا بُدَّ أنْ تكون بيضة مُخصَّبة . إذن : لا تقُلْ البيضة والدجاجة ، ولكن قُلْ يُخرج الحي من الميت من كل شيء موجود .
ثم يقول سبحانه : { وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي . . . } [الروم : 19] وفي موضع آخر يقول تعالى : { يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي . . . } [الأنعام : 95] فأتى باسم الفاعل (مُخْرِج) بدلاً من الفعل المضارع .
لذلك وقف عندها المشككون في أسلوب القرآن ، يقولون : إنْ كانت إحداهما بليغة ، فالأخرى غير بليغة ، وهذا منهم نتيجة طبيعية لعدم فَهْمهم للغة القرآن ، وليستْ لديهم المَلَكة العربية التي تستقبل كلام الله .
وهنا نقول : إن الذي يتكلم ربٌّ يعطي لكل لفظة وزنها ، ويضع كل كلمة في موضعها الذي لا تُؤدِّيه كلمة أخرى .
فقوله تعالى { يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت . . . } [الروم : 19] هذه في مصلحة مَنْ؟ في مصلحتنا نحن؛ لأن الإنسان بطَبْعه يحب الحياة ، وربما استعلى بها ، واغترَّ بهذا الاستعلاء ، كما قال ربنا : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6-7] .
لذلك يُذكِّره ربه تعالى بالمقابل : فأنا كما أُخرج الحيَّ من الميت أُخرِج الميت من الحيِّ فانتبه ، وإياك أنْ تَتعالى أو تتكبَّر ، وافهم أن الحياة موهوبة لك من ربك يمكن أنْ يسلبها منك في أيِّ لحظة .
وعبَّر عن هذا المعنى مرة بالفعل المضارع (يُخرِج) الدالّ على الاستمرار والتجدُّد ، ومرة باسم الفاعل (مُخرِج) الدال على ثبوت الصفة وملازمتها للموصوف ، لا مجرد حدث عارض .
لذلك تأمل قول الله تعالى : { تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الذي خَلَقَ

الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . . } [الملك : 1-2] وفي نظرنا أن الحياة تسبق الموت ، لكن الحق سبحانه يريد أن يقتل في الإنسان صفة الاغترار بالحياة ، فجعله يستقبل الحياة بما يناقضها ، فقال { الذي خَلَقَ الموت والحياة . . . } [الملك : 2] .

فقدَّم الموت على الحياة ، فقبل أنْ تفكر في الحياة تذكّر الموت حتى لا تغترّ بها ولا تَطْغى .

ويتجلى هذا المعنى أيضاً في سورة الواقعة : { أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ } [الواقعة : 58-60] .

يعني : خذوا بالكم ، وافهموا أنني واهب الحياة ، وأستطيع أنْ أسلبها فلا تغترَّ بها ولا (تتفرعن) ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يَدُكَّ في الإنسان صفة الكبرياء والتعالي ، فيُحدث هذه المقابلة دائماً بين ذِكْر الحياة في آيات القرآن الكريم .

ثم أَلاَ ترى أن الخالق سبحانه لم يجعل للموت سبباً من أسباب العمر والسنين ، فواحد يموت قبل أنْ يُولَد ، وواحد يموت بعد يوم أو بعد شهر ، وآخر يموت بعد عدة أعوام ، وآخر بعد مائة عام .

إذن : مسألة لا ضابط لها إلا أقدار الله وأجله الذي أجلَّه سبحانه ، وفي هذا إشارة للإنسان : احذر فقد تُسلْبَ منك الحياة التي تنشأ منها غرورك في أيِّ لحظة ، ودون أنْ تدري ودن سابق إنذار أو مقدمات ، فاستقِمْ إذن على منهج ربك ، ولا تجتريء على المعصية؛ لأنك قد تموت قبل أنْ تتدارك نفسَك بالتوبة .

لذلك يقولون : إن الحق سبحانه حين أبهم وقت الموت بيَّنه بالإبهام غايةَ البيان ، كيف؟ قالوا : لأنه سبحانه لو حدَّد لك موعد الموت لكنتَ تستعد له قبل أوانه ، إنما حين أبهمه جعلك تستعدّ له كل لحظة من لحظات حياتك .

ثم يقول سبحانه : { وَيُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا . . . } [الروم : 19] وفي موضع آخر : { وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج : 5] .

فالأرض كانت ميتة هامدة جامدة جرداء ، لا أثرَ فيها لحياة ، فلما نزل عليها الماء وسقاها المطر تحركت وأنبتتْ من كل زوج بهيج ، فهي نموذج حيٌّ مُشَاهد للخَلْق وللحياة .

وفي آية أخرى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً . . . } [الحج : 63] فهل أخضرتْ الأرضُ ساعةَ نزل عليها المطر؟ لا ، إنما بعد فترة ، كأنه سبحانه يقول لك : لاحظ الحدث ساعة يوجد ، واستحضر صورته ، فبعد نزول الماء ترى الأرض تخضرّ تدريجياً ، وإنْ لم تبذر فيها شيئاً ، ففيها بذور شتَّى حملتْها الرياح ، ثم استقرتْ في التربة ولو لسنوات طوال تظل صالحة للإنبات تنتظر الماء لتؤدي مهمتها .

والذي عاش في الصحراء يشاهد هذه الظاهرة ، وقد رأيناها في عرفة بعد أنْ نزل عليها المطر ، وعُدْنا بعد عدة أيام ، فإذا الأرض تكتسي باللون الأخضر . لذلك إياك أن تظن أن كل زرع زرعه الإنسان ، وإلاَّ فمنْ أين جاءت أول بذرة زرعها الإنسان . إذن : هناك زراعات لا دخلَ للإنسان بها .

ولنقرأ قصة مريم عليها السلام : { يامريم إِنَّ الله اصطفاك وَطَهَّرَكِ واصطفاك على نِسَآءِ العالمين } [آل عمران : 42] فالاصطفاء الأول لم يقُلْ على مَنْ . فالمعنى : اصطفاكِ على الخَلْق جميعاً ، بأن طَهَّرَكِ وجعلك صالحة تقية قوَّامة . . . إلخ .

أما الاصطفاء الآخر فليس على الخَلْق جميعاً ، إنما على النساء؛ لأنها تفردتْ عن نساء العالمين بأنْ تلِدَ بغير ذكورة .

والشاهد الذي نريده هنا أن يوسف النجار لما لاحظ على مريم علامات الحمل وهو يعلم مَنْ هي مريم ، وأنها لم تفارق المحراب طوال عمرها ، فلم يرِدْ على ذِهْنه المعنى الثاني ، ويريد أن يستفهم عَمَّا يراه ، فسألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بدون بذرة؟ فقالت وقد لقَّنها الحق سبحانه : نعم ، الشجرة التي أنبتت أول بذرة .

إذن : الحق سبحانه يمتُّ علينا بالشيء ، ثم يُذكِّرنا بقدرته تعالى على سَلْبه ، وعلى نقيضه حتى لا نغترَّ به ، ليس في مسألة الموت والحياة فحسب ، إنما في الزرع وفي الماء وفي النار ، واقرأ قوله تعالى :

{ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ المنشئون } [الواقعة : 58-72] .

ونلحظ في الأداء القرآني في هذه الآيات الدقة في استخدام لام التوكيد في { لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً . . . } [الواقعة : 65] في الحديث عن الزرع؛ لأن للإنسان دوراً فيه ، حيث يحرث ويغرس ويسقي ، وربما ظَنَّ لنفسه قدرة عليه .

لكن لما تحدَّث عن الماء ذكر في نقضه { لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً . . . } [الواقعة : 70] بدون توكيد ، لماذا؟ لأن الماء لا دخلَ لأحد فيه ، ولا يدعيه أحد ، فلا أنت بخرتَ الماء ، ولا أنت أنزلتَ المطر ، لذلك قال : { جَعَلْنَاهُ . . . } [الواقعة : 70] بدون توكيد .

أما عند ذكْر النار كنعمة من نِعَم الله لم يذكر ما ينقضها ، فقال : { أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ

المنشئون } [الواقعة : 72] ولم يقُلْ مثلاً : لو نشاء لأطفأناها ، تُرى لماذا؟ قالوا : لتظل النارُ ماثلة أمامنا على حال اشتعالها لا تخمد أبداً ، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يُلوِّح بها لكل عَاصٍ علَّه يعود إلى الجادّة .

ثم يقول سبحانه : { وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } [الروم : 19] كذلك : إشارة إلى ما سبق ذِكْره من إحياء الأرض بعد موتها ، كمثْل ذلك تُخرجون وتُبعثون ، فمَنْ أنكر البعث فلينظر عملية إحياء الأرض الجامدة بالنبات بعد نزول المطر عليها .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20)

الكلام هنا عن بَدْء الخلق ، قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ . . . } [الروم : 20] بصيغة الجمع ، والمراد آدم ثم حواء ، ثم بثَّ الله منهما رجالاً كثيراً ونساء ، فالعالم اليوم الذي يُعَدُّ بالمليارات حين تعود به إلى الماضي لا بُدَّ أنْ تعود إلى اثنين هما آدم وحواء ، فلما التقيا نشأ منهما النسل ، لكن هل نشأ النسل من أبعاض ميتة خرجتْ من آدم ، أم من أبعاض حيّة هي الحيوانات المنوية؟

لو أن الحيوان المنويَّ كان ميتاً لما حدث الإنجاب . إذن : جاء أولاد آدم من ميكروب أبيهم آدم ، وانتشروا في الأرض وأنجبوا ، وكل منهم يحمل ذرة من أبيه الأول آدم عليه السلام . وبالتالي فكُلٌّ مِنّا فيه ذرة حية من عهد آدم ، وحتى الآن لم يطرأ عليها فناء أبداً ، وهذا هو عَالَمَ الذَّرّ الذي شهد خَلْق الله لآدم ، إنها أبعاضنا التي شهدتْ هذا العهد الأول بين الخَلْق والخالق سبحانه : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ } [الأعراف : 172] .

إذن : في كل مِنّا الآن وحتى قيام الساعة ذرةٌ حيَّة من أبيه آدم ، هذه الذرة الحية هي التي شهدتْ هذا العهد ، وهي التي تمثل الفطرة الإيمانية في كل نفس بشرية ، لكن هذه الفطرة قد تُطمس أو تُغلَّف بالغفلة والمعاصي . . . إلخ .

والحق – سبحانه وتعالى – أخبرنا أنه يخلق الأشياء ويُوجِدها بكُنْ { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] إلا الإنسان ، فقد بلغ من تكريمه أنْ سوَّاه ربه بيده ، وجعله خليفة له في الأرض ، وتجلَّى عليه بصفات من صِفاته ، فأعطاه من قدرته قدرةً ، ومن عِلْمه عِلْماً ، ومن حكمته حكمة ، ومن غِنَاه غِنىً .

وربنا سبحانه حينما يخلقنا هذا الخَلْق يريد مِنَّا أنْ نستعمل هذه الصفات التي وهبها لنا ، كما يستعملها هو سبحانه ، فالله تعالى بقدرته خلق لنا ما ينفعنا ، فعليك أنت بما وهبك الله من القدرة أنْ تعمل ما ينفع ، والله بحكمته رتَّبَ الأشياء ، فعليك بما لديْك من حكمة أنْ تُرتِّب الأشياء . . وهكذا .

ونشير إلى أن القدرة تختلف ، فقدرة تفعل لك ، وقدرة عُلْيا تجعلك تفعل بنفسك ، هَبْ أنك قابلتَ رجلاً ضعيفاً لا يَقْوَى على حَمْل متاعه مثلاً ، فتحمله أنت له ، فأنت إذن عدَّيْتَ إليه أثرَ قوتك ، إنما ظلَّ هو ضعيفاً .

أما الحق – تبارك وتعالى – فلا يُعدِّي أثر قوته إلى عبده فحسب ، إنما يُعدِّي له القدرة ذاتها ، فيُقوِّي الضعيف؛ فيحمل متاعه بنفسه .

إذن : أعظم تكريم للإنسان أنْ يقول الخالق سبحانه : إنني خلقتُه بيدي في قوله سبحانه لإبليس : { قَالَ ياإبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . . . }

[ص : 75] .

ثم لك أيها الإنسان بعد هذا التكريم أنْ تكون كريماً على نفسك كما كرَّمك الله ، ولك أنْ تنزل بها إلى الحضيض ، فنفسك حيث تجعلها أنت .

يقول تعالى : { لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . } [التين : 4–5] فانظر لنفسك منزلة من المنزلتين .

وكلمة { مِّن تُرَابٍ . . . } [الروم : 20] أي : الأصل الذي خُلِق منه آدم ، والتراب مع الماء يصير طيناً ، فإنْ تعطَّن وتغيَّرَتْ رائحته فهو حمأ مسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، إذن : هذه هي العناصر التي وردت ومراحل خَلْقِ الإنسان ، وكلها مُسمَّيات للتراب ، وحالات طرأتْ عليه .

فإنْ جاء مَنْ يقول في مسألة الخَلْق بغير هذا فلا نُصدّقه؛ لأن الذي خلق الإنسان أخبرنا كيف خلقه ، أما هؤلاء فلم يشهدوا من خَلْق الإنسان شيئاً ، وهم في نظر الدين مُضللون ، يجب الحذر من أفكارهم؛ لأن الله تعالى يقول في شأنهم :

{ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51] .

والله لو لم يَخُضْ العلماء في مسألة الخلق خلق الإنسان وخلق الشمس والقمر والأرض . . . الخ . لو لم نسمع بنظرية داروين أكانت تصدُق هذه الآية؟ وإلا لقالوا : أين المضللون الذين تكلَّم القرآن عنهم؟ فهم إذن قالوا وطلعوا علينا بنظرياتهم ، يريدون أنْ يُكذِّبوا دين الله ، وأنْ يُشكِّكوا فيه ، وإذا بهم يقومون جميعاً دليلاً على صِدْقه من حيث لا يشعرون .

وعلى شاكلة هؤلاء الذين نسمعهم الآن ينكرون أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ويُشككون في صحتها ، هذه في الحقيقة ظاهرة طبيعية جاءت لتثبت صدق رسول الله؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يغفل هذه المسألة ، إنما أخبر عنها ونبهنا إليها ، وأعطانا المناعة اللازمة – الثلاثي الذي نسمع عنه من رجال الصحة .

يقول صلى الله عليه وسلم : « يوشك رجل من أمتي يتكيء على أريكته يُحدَّث بالحديث عني

فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، أَلاَ وإنَّ ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله » .

لماذا؟ لأن الله تعالى أعطاه تفويضاً في أنْ يُشرِّع لأمته ، فقال تعالى : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . . } [الحشر : 7] فللرسول إيتاء ، وللرسول أمر ونهي يجب أنْ يُطاع بطاعتنا لله .

وتعالَ لمن ينكر السنة ويقول : علينا بالقرآن – عندما يصلي المغرب مثلاً واسأله : كم ركعة صليتَ المغرب؟ سيقول : ثلاث ركعات ، فمن أين علم أن المغرب ثلاث ركعات؟ أمن القرآن الذي يتعصَّب له ، أم من السنة التي يُنكرها . إذن : كيف يتعبد على قول رسول الله ثم ينكره؟ إذن : فالحق – سبحانه وتعالى – بيَّن مراحل خَلْق الإنسان من تراب ، صار طيناً ، ثم صار حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الله من روحه ، ونحن لم نشاهد هذه المسألة ، إنما أخبرنا بها ، ومن رحمته تعالى بخَلْقه ، ولكي لا تحار عقولهم حينما تبحث هذه العملية يعطينا في الكون المشَاهد لنا شواهد تُوضِّح لنا الغيب الذي لم نشاهده .

ففي أعرافنا أن هَدْم الشيء أو نَقْص البناء يأتي على عكس البناء ، فما بُني أولاً يُهْدَم آخراً ، وما بُني آخراً يُهدَم أولاً ، وأنت لم تشاهد عملية الخَلْق ، لكن شاهدتَ عملية الموت ، والموت نَقْض للحياة .

ولك أنْ تتأملَ الإنسان حينما يموت ، فأول نَقْض لبنيته أنْ تخرج منه الروح ، وكانت آخر شيء في بنائه ، ثم يتصلّب الجسد ويتجمد ، كما كان في مرحلة الصلصالية ، ثم يتعفَّن وتتغير رائحته ، كما كان في مرحلة الحمأ المسنون ، ثم تمتص الأرض ما فيه من مائية ليصير إلى التراب كما بدأه خالقه من تراب ، إذن : صدق الله تعالى في المشهد حين بيَّن لنا الموت ، فصدَّقنا ما قاله في الحياة .

وكما أن التراب والطين هما أصل الإنسان فهما أيضاً مصدر الخِصْب والنماء ، ومخازن للقوت وهما مُقوِّم من مُقوِّمات حياتنا : لذلك لما تكلم القرآن عن التراب قال سبحانه : { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا . . . } [فصلت : 9–10] يعني : في الجبال لأنها أقرب مذكور أو في الأرض عموماً؛ لأن الرواسي في الأرض { وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . . } [فصلت : 10] .

فالقوت يأتينا من طينة الأرض ، ومن التراب الذي يتفتت من الجبال مُكوِّناً الطمي أو الغرْيَن الذي يحمله إلينا ماء المطر ، فالأرض هي أمنا الحقيقية ، منها خُلِقْنا ، ومنها مُقوِّمات حياتنا .

وعجيب أن نرى من العلماء غير المؤمنين مَنْ يثبت صدْق القرآن في مسألة خَلْق الإنسان من طين حين حلَّلوا عناصر الأرض فوجدوها ستة عشر عنصراً هي نفسها التي وجدوها في جسم

الإنسان ، وكأن الحق سبحانه يُجنِّد مَنْ يثبت صِدْق آياته ولو من الكفار .
وصدق الله العظيم حين قال : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق . . . } [فصلت : 53] . وفي القرآن آيات تدلّ على معادلات لو بحثها (الكمبيوتر) الآن لا بُدَّ أن نؤمن بأن هذا الكلام من عند الله وأنه صِدْق .
تأمل ظاهرة اللغة ، وكيف نتكلم ونتفاهم ، فأنت إذا لم تتعلم الإنجليزية مثلاً لا تفهمها؛ وكذلك هو لا يفهم العربية . لماذا؟ لأ ن اللغة وليدة المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، وهي ظاهرة اجتماعية ، فلو عاش الإنسان وحده لما احتاج للغة؛ لأنه سيفعل ما يطرأ على باله وفقط .
أمّا حين يعيش في جماعة فلا بُدَّ له أن يتفاهم معهم ، يأخذ منهم ويأخذون منه ، يسمع منهم ويسمعون منه ، حتى الأخرس لا بُدَّ له من لغة يتفاهم بها مع مَنْ حوله ، ويستخدم فعلاً لغة الإشارة ، وقد أقدره الله على فهمها .
والله سبحانه يُبقي للإنسان المتكلم دلالات الإشارة في النفس الناطقة ، فمثلاً لو اضطررت للكلام وفي فمك طعام ، فإنك تشير لولدك أو لخادمك مثلاً ويفهم عنك ويفعل ما تريد .

إذن : فينا نحن الأسوياء بقايا خَرس نستعمله ، حينما لا يسعفنا النطق إذن : التفاهم أمر ضروري ، واللغة وليدة المحاكاة؛ لذلك نقول للولد الصغير : لا تخرج إلى الشارع ، لماذا؟ حتى لا تسمع أذنه كلاماً قبيحاً فيحكيه هو .
إذن : كيف تعلمتُ اللغة؟ تعلمتها من أبي ومن المحيط بي ، وتعلمها أبي من أبيه ، ومن المحيطين به ، وهكذا . ولك أن تسلسل هذه المسألة كما سلسلنا التكاثر في الإنسان ، وسوف نعود بالتالي إلى أبينا آدم عليه السلام ، وعندها نقول : ومَنْ علَّم آدم اللغة؟ يردُّ علينا القرآن : { وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأسمآء كُلَّهَا . . . } [البقرة : 31] هذا كلام منطقي استقرائي يدلُّ دلالة قاطعة على صِدْق آيات القرآن .
وقوله سبحانه : { ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ } [الروم : 20] ثم : أي بعد أنْ خلقنا الله من تراب تكاثر الخَلْق وتزايدوا بسرعة؛ لأن السياق استعمل هنا (إذا) الفجائية الدالة على الفجأة ، والتي يُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ، يعني : فاجأني ، فالمعنى أنكم تتزايدون وتنتشرون في الأرض بسرعة ، ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . } .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)

قلنا : إن الآية هي الشيء العجيب الذي يقف عنده العقل مندهشاً دهشةً تُورِث إعجاباً ، وإعجاباً يُورث يقيناً بحكمة الخالق . من هذه الآيات العجيبة الباهرة { أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً . . . } [الروم : 21] يعني : من جنسكم ونوعكم .

فلم يشأ سبحانه أنْ يحدث التكاثر مثلاً بين الإنسان وبقرة ، لا إنما إنسان مع إنسان ، يختلف معه فقط في النوع ، هذا ذكر وهذه أنثى ، والاختلاف في النوع اختلاف تكامل ، لا اختلاف تعاند وتصادم ، فالمرأة للرقة والليونة والحنان ، والرجل للقوة والخشونة ، فهي تفرح بقوته ورجولته ، وهو يفرح بنعومتها وأنوثتها ، فيحدث التكامل الذي أراده الله وقصده للتكاثر في بني الإنسان .

وعجيب أنْ يرى البعض أن الذكورة نقيض الأنوثة ، ويثيرون بينهما الخلاف المفتعل الذي لا معنى له ، فالذكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل الليل والنهار ، وهما آيتان يستقبلهما الناس جميعاً ، هل نُجري مقارنة بين الليل والنهار ، وهما آيتان يستقبلهما الناس جميعاً ، هل نُجري مقارنة بين الليل والنهار . . أيهما أفضل؟ لذلك تأمل دقة الأداء القرآني حينما جمع بين الليل والنهار ، وبين الذكر والأنثى ، وتدبّر هذا المعنى الدقيق : { والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى * وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى } [الليل : 1-4] أي : مختلف ، فلكُلٍّ منكما مهمته ، كما أن الليل للراحة ، والسكون والنهار للسعي والعمل ، وبتكامل سَعْيكما ينشأ التكامل الأعلى .

فلا داعي إذن لأنْ أطلب المساواة بالمرأة ، ولا أنْ تطلب المرأة المساواة بالرجل ، لقد صُدعت رءوسنا من هؤلاء المنادين بهذه المساواة المزعومة ، والتي لا معنى لها بعد قوله تعالى { إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى } [الليل : 4] أي : مختلف ، فلكُلٍّ منكما مهمته ، كما أن الليل للراحة ، والسكون والنهار للسعي والعمل ، وبتكامل سَعْيكما ينشأ التكامل الأعلى .

فلا داعي إذن لأنْ أطلب المساواة بالمرأة ، ولا أنْ تطلب المرأة المساواة بالرجل ، لقد صُدعت رءوسنا من هؤلاء المنادين بهذه المساواة المزعومة ، والتي لا معنى لها بعد قوله تعالى : { إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى } [الليل : 4] .

وعجيب أن نسمع من يقول – من الرجال – ينبغي للمرأة أن تحتل مكان الرجل ، وأنْ تؤدي ما يؤديه ، ونقول : لا نستطيع أن تُحمِّل المرأة مهمة الرجل إلا إذا حمَّلْتَ الرجل مهمة المرأة ، فيحمل كما تحمل ، ويلد كما تلد ، ويُرضِع كما تُرضِع ، فدعونا من شعارات (البلطجية) الذين يهرفون بما لا يعرفون .

ومثل هذا قوله تعالى : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . } [التوبة : 128] أي : من جنسكم وبشريتكم ، فهو نفس لها كل طاقات البشر ، ليكون لكم أسوة ، ولو جاء الرسول مَلَكاً لما تحققتْ فيه الأسوة ، ولَقُلْتم هذا ملَك ، ونحن لا نقدر على ما يقدر هو عليه . أو { مِّنْ

أَنفُسِكُمْ . . . } [التوبة : 128] يعني : من العرب ومن قريش .
والبعض يرى أن { مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . } [التوبة : 128] يعني : خَلْق حواء من ضلع آدم ، فهي من أنفسنا يعني : قطعة منا ، لكن الكلام هنا

{ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . } [التوبة : 128] مخاطب به الذكر والأنثى معاً ، كما أن الأزواج تُطلق عليهما أيضاً ، على الرجل وعلى المرأة ، والبعض يفهم أن الزوج يعني اثنين ، لكن الزوج مفرد معه مثله؛ لذلك يقول تعالى : { وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين . . . } [الرعد : 3] .
وفي الماضي كنا نعتقد أن نوع الجنين إنما يتحدد من ماء الرجل وماء المرأة ، لكن القرآن يقول غير ذلك : { أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى } [القيامة : 37] فماء المرأة لا دخلَ له في نوع الجنين ، ذكراً كان أم أنثى ، الذكورة والأنوثة يحددها ماء الرجل .
وهذا ما أثبته العلم الحديث ، وعلى هذا نقول { خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً . . . } [الروم : 21] يعني : من ذكور الأزواج ، خلق منك ميكروباً هو (الإكس أو الإكس واي) كما اصطلح عليه العلم الحديث ، وهو يعني الذكورة والأنوثة .
وسبق أنْ ذكرنا في هذه المسألة قصة أبي حمزة الرجل العربي الذي تزوج على امرأته؛ لأنها لا تنجب البنين ، وهجرها لهذا السبب فقالت بما لديها من سليقة عربية ، وقَوْلُها دليل على علم العرب قديماً بهذه الحقيقة التي أثبتها العلم مؤخراً ، قالت :
مَا لأبي حَمْزةَ لا يأْتينَا ... غَضْبان أَلاَّ نَلدَ البَنينَا
تَاللهِ مَا ذَلكَ في أَيْدينَا ... ونحن كالأَرْضِ لِزَارِعينا
نُعطي لَهُمْ مثْل الذي أُعْطينَا ... والحق سبحانه بهذا يريد أن يقول : إنني أريد خليفة متكاثراً ليعمر هذه الأرض الواسعة ، فإذا رأيتَ مكاناً قد ضاق بأهله فاعلم أن هناك مكاناً آخر خالياً ، فالمسألة سوء توزيع لخَلْق الله على أرض الله .
لذلك يقولون : إن سبب الأزمات أن يوجد رجال بلا أرض ، وأرض بلا رجال ، وضربنا مثلاً لذلك بأرض السودان الخصبة التي لا تجد مَنْ يزرعها ، ولو زُرِعَتْ لكفَت العالم العربي كله ، في حين نعيش نحن في الوادي والدلتا حتى ضاقتْ بنا ، فإنْ فكرت في الهجرة إلى هذه الأماكن الخالية واجهتْك مشاكل الحدود التي قيدوا الناس بها ، وما أنزل الله بها من سلطان .
ذلك لما أُتيح لنا الحديث في الأمم المتحدة قلت لهم : آية واحدة في كتاب الله لو عملتم بها لَحَلَّتْ لكم المشاكل الاقتصادية في العالم كله ، يقول تعالى : { والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ } [الرحمن : 10] فالأرض كل الأرض للأنام ، كل الأنام على الإطلاق .
واقرأ قوله تعالى في هذه المسألة : { أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا . . . } [النساء :

97] إذن : لا تعارض منهج الله وقدره في أحكامه ، ثم تشكو الفساد والضيق والأزمات ، إنك لو استقرأتَ ظواهر الكون لما وجدتَ فساداً أبداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان على غير القانون والمنهج الذي وضعه خالق هذا الكون سبحانه ، أما ما لا تتناوله يد الإنسان فتراه منضبطاً لا يختل ولا يتخلف .

إذن : المشاكل والأزمات إنما تنشأ حينما نسير في كون الله على غير هدى الله وبغير منهجه؛ لذلك تسمع مَنْ يقول : العيشة ضَنْك ، فلا يقفز إلى ذهنك عند سماع هذه الكلمة إلا مشكلة الفقر ، لكن الضنك أوسع من ذلك بكثير ، فقد يوجد الغِنَى والترف ورَغَد العيش ، وترى الناس مع ذلك في ضنك شديد .

فانظر مثلاً إلى السويد ، وهي من أغنى دول العالم ، ومع ذلك يكثر بها الجنون والشذوذ والعقد النفسية ، ويكثر بها الانتحار نتيجة الضيق الذي يعانونه ، مع أنهم أغنى وأعلى في مستوى دخل الفرد .

فالمسألة – إذن – ليست حالة اقتصادية ، إنما مسألة منهج لله تعالى غير مُطلَّق وغير معمول به ، وصدق الله : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى } [طه : 124] .

لذلك لو عِشْنا بمنهج الله لوجدنا لذة العيش ولو مع الفقر .

وقوله تعالى : { لتسكنوا إِلَيْهَا . . . } [الروم : 21] هذه هي العلة الأصيلة في الزواج ، أي : يسكن الزوجان أحدهما للآخر ، والسكن لا يكون إلا عن حركة ، كذلك فالرجل طوال يومه في حركة العمل والسعي على المعاش يكدح ويتعب ، فيريد آخر النهار أن يسكن إلى مَنْ يريحه ويواسيه ، فلا يجد غير زوجته عندها السَّكَن والحنان والعطف والرقة ، وفي هذا السكَن يرتاح ويستعيد نشاطه للعمل في غد .

لكن تصور إنْ عاد الرجل مُتْعباً فلم يجد هذا السكن ، بل وجد زوجته ومحلّ سكنه وراحته تزيده تعباً ، وتكدِّر عليه صَفْوه . إذن : ينبغي للمرأة أنْ تعلم معنى السَّكَن هنا ، وأن تؤدي مهمتها لتستقيم أمور الحياة .

ثم إن الأمر لا يقتصر على السَّكَن إنما { وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . . . } [الروم : 21] المودة هي الحب المتبادل في (مشوار) الحياة وشراكتها ، فهو يكدح ويُوفر لوازم العيش ، وهي تكدح لتدبر أمور البيت وتربية الأولاد؛ لأن الله يقول { إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى } [الليل : 4] هذا في إطار من الحب والحنان المتبادل .

أما الرحمة فتأتي في مؤخرة هذه الصفات : سكن ومودة ورحمة ، ذلك لأن البشر عامة أبناء أغيار ، وكثيراً ما تتغير أحوالهم ، فالقوي قد يصير إلى الضعف ، والغني قد يصير إلى فقر ، والمرأة

الجميلة تُغيِّرها الأيام أو يهدّها المرض . . . إلخ .
لذلك يلفت القرآن أنظارنا إلى أن هذه المرحلة التي ربما فقدتم فيها السكن ، وفقدتُم المودة ، فإن الرحمة تسعكما ، فليرحم الزوج زوجته إنْ قَصُرت إمكاناتها للقيام بواجبها ، ولترحم الزوجة زوجها إنْ أقعده المرض أو أصابه الفقر . . إلخ .
وكثير من كبار السن من الذين يتقون الله ويراعون هذه التعاليم يعيشون حياتهم الزوجية على هذا المبدأ مبدأ الرحمة ، لذلك حينما يَلمِّحون للمرأة التي أقعد المرض زوجها تقول : (أنا آكله لحم وأرميه عظم؟)
هذه هي المرأة ذات الدين التي تعيدنا إلى حديث رسول الله في اختيار الزوجة : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها – وهذه كلها أغيار – ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » فأنت وهي أبناء أغيار ، لا يثبت أحد منكما على حاله ، فيجب أنْ تردا إلى شيء ثابت ومنهج محايد لا هوى له ، يميل به إلى أحدكما ، منهج أنتما فيه سواء ، ولن تجدوا ذلك إلا في دين الله .

لذلك يحذرنا النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا جاءكم مَنْ ترضون دينه وخُلقه فزوِّجوه ، ألا تفعلوا تكُنْ فتنة في الأرض وفساد كبير » .
وإياك حين تكبر زوجتك أن تقول إنها لم تعد تملأ نظري ، أو كذا وكذا ، لأن الزوجة ما جعلها الله إلا سكناً لك وأنثى ووعاءً ، فإذا هاجتْ غرائزك بطبيعتها تجد مصرفاً ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته – أي : تعجبه وتحرّك في نفسه نوازع – فليأْتِ أهله ، فإنْ البُضْع واحد » .
وكلما طبَّق الزوجان المقاييس الدينية ، وتحلَّيا بآداب الدين وجد كل منهما في الآخر ما يعجبه ، فإنْ ذهب الجمال الظاهري مع الزمن فسيبقى جمال الروح ووقارها ، سيبقى في المرأة جمال الطبع والسلوك ، وكلما تذكرتَ إخلاصها لك وتفانيها في خدمتك وحِرْصها على معاشك ورعايتها لحرمة بيتك كلّما تمسكْت بها ، وازددتَ حباً لها .
وكذلك الحال بالنسبة للزوجة ، فلكل مرحلة من العمر جاذبيتها وجمالها الذي يُعوِّضنا ما فات .
ولما كان من طبيعة المرأة أنْ يظهر عليها علامات الكِبَر أكثر من الرجل؛ لذلك كان على الرجل أنْ يراعي هذه المسألة ، فلما سأل أحدهم الحسن : لقد تقدم رجل يخطب ابنتي وصِفَته كيت وكيت ، قال : لا تنكِحها إلا رجلاً مؤمناً ، إنْ أحبها أكرمها ، وإنْ كرهها لم يظلمها .
ثم يقول سبحانه : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الروم : 21] يتفكرون في هذه المسائل وفي هذه المراحل التي تمرُّ بالحياة الزوجية ، وكيف أن الله تعالى جعل لنا الأزواج من أنفسنا ، وليستْ من جنس آخر ، وكيف بنى هذه العلاقة على السَّكَن والحب والمودة ، ثم في

مرحلة الكِبَر على الرحمة التي يجب أنْ يتعايش بها الزوجان طيلة حياتهما معاً .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات . . . } .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22)

في خلق السماوات والأرض آيات أظهرها لنا كما قال في موضع آخر إنها تقوم على غير عمد : { خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . } [لقمان : 10] .
فالسماء التي تروْنها على امتداد الأفق تقوم بغير أعمدة ، ولكم أنْ تسيروا في الأرض ، وأنْ تبحثوا عن هذه العُمد فلن تروْا شيئاً . أو { بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . } [لقمان : 10] يعني : هي موجودة لكن لا ترونها .
والمنطق يقتضي أن الشيء العالي لا بُدَّ له إما من عُمُد تحمله من أسفل ، أو قوة تمسكه من أعلى؛ لذلك ينبغي أنْ نجمع بين الآيات لتكتمل لدينا هذه الصورة ، فالحق سبحانه يقول في موضع آخر : { إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ . . . } [فاطر : 41] .
إذن : ليست للسماء أعمدة ، إنما يمسكها خالقها – عز وجل – من أعلى ، فلا تقع على الأرض إلا بإذنه ، ولا تتعجب من هذه المسألة ، فقد أعطانا الله تعالى مثالاً مُشاهداً في قوله سبحانه : { أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السمآء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله . . . } [النحل : 79] .
فإنْ قُلْت : يمسكها في جو السماء حركة الجناحين ورفرفتها التي تحدث مقاومة للهواء ، فترتفع به ، وتمسك نفسها في الجو ، نقول : وتُمسك أيضاً في جو السماء بدون حركة الجناحين ، واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ . . . } [الملك : 19] .
فترى الطير في السماء مادّاً جناحيه ثابتاً بدون حركة ، ومع ذلك لا يقع على الأرض ولا يُمسكه في جَوِّ السماء إذن إلا قدرة الله .
إذن : خُذْ مما تشاهد دليلاً على صدْق ما لا تشاهد؛ لذلك يقول سبحانه : { لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . . } [غافر : 57] مع أنها خُلِقت لخدمة الإنسان .
فمع أنك أيها الإنسان مظهر من مظاهر قدرة الله ، وفيك انطوى العالم الأكبر ، إلا أن عمرك محدود لا يُعَدُّ شيئاً إذا قِيسَ بعمر الأرض والسماء والشمس والقمر . . الخ .
ثم يعود السياق هنا إلى آية من آيات الله في الإنسان : { واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . . . } [الروم : 22] اللسان يُطلَق على اللغة كما قال تعالى { بِلِسَانٍ عَرَبِيّ مُّبِينٍ } [الشعراء : 195] وقال : { لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } [النحل : 103] .
ويُطلَق أيضاً على هذه الجارحة المعروفة ، وإنما أُطلِق اللسان على اللغة؛ لأن أغلبها يعتمد

على اللسان وعلى النطق ، مع أن اللسان يُمثِّل جزءاً بسيطاً في عملية النطق ، حيث يشترك معه في النطق الفم والأسنان والشفتان والأحبال الصوتية . . إلخ ، لكن اللسان هو العمدة في هذه العملية . إذن : فاختلاف الألسنة يعني اختلاف اللغات .

وسبق أنْ قُلْنا : إن اللغة ظاهرة اجتماعية يكتسبها الإنسان من البيئة المحيطة به ، وحين نسلسلها لا بُدَّ أنْ نصلَ بها إلى أبينا آدم عليه السلام ، وقلنا : إن الله تعالى هو الذي علَّمه اللغة حين علَّمه الأسماء كلها ، ثم يتخذ آدم وذريته من بعده هذه الأسماء ليتفاهموا بها ، وليضيفوا إليها أسماء جديدة .

لذلك نرى أولادنا مثلاً حينما نريد أنْ نُعلِّمهم ونُرقِّيهم نُعلِّمهم أولاً أسماء الأشياء قبل أنْ يتعلموا الأفعال؛ لأن الاسم أظهر ، أَلاَ ترى أن الفِعْل والحدث يدل عليه باسم ، فكلمة (فِعْل) هي ذاتها اسم .

لكن ، كيف ينشأ اختلاف اللغات؟ لو تأملنا مثلاً اللغة العربية نجدها لغة واحدةً ، لكن بيئاتها متعددة : هذا مصري ، وهذا سوداني ، وهذا سوري ، مغربي ، عراقي . . الخ نشترك جميعاً في لغة واحدة ، لكن لكل بيئة لهجة خاصة قد لا تُفهَم في البيئة الأخرى ، أما إذا تحدَّثنا جميعاً باللغة العربية لغة القرآن تفاهم الجميع بها .

أما اختلاف اللغات فينشأ عن انعزال البيئات بعضها عن بعض ، هذا الانعزال يؤدي إلى وجود لغة جديدة ، فمثلاً الإنجليزية والفرنسية والألمانية و . . إلخ ترجع جميعها إلى أصل واحد هو اللغة اللاتينية ، فلما انعزلتْ البيئات أرادتْ كل منها أن يكون لها استقلالية ذاتية بلغة خاصة بها مستقلة بألفاظها وقواعدها .

أو { واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ . . . } [الروم : 22] يعني : اختلاف ما ينشأ عن اللسان وغيره من آلات الكلام من أصوات مختلفة ، كما نرى الآن في آخر صيحات علم الأصوات أنْ يجدوا للصوت بصمة تختلف من شخص لآخر كبصمة الأصابع ، بل بصمة الصوت أوضح دلالة من بصمة اليد .

ورأينا لذلك خزائن تُضْبط على بصمة صوت صاحبها ، فساعة يُصدر لها صوتاً تفتح له .

ومن العجيب والمدهش في مجال الصوت أن المصوِّتات كثيرة منها : الجماد كحفيف الشجر وخرير الماء ، ومنها : الحيوان ، نقول : نقيق الضفادع وصهيل الخيل ، ونهيق الحمار ، وثُغَاء الشاة ، ورُغَاء الإبل . . الخ لكن بالله أسألك : لو سمعت صوت حمار ينهق ، أتستطيع أن تقول هذا حمار فلان؟ لا ، لأن كل الأصوات من كُلِّ الأجناس خلا الإنسان صوتها واحد لا يميزه شيء .

أما في الإنسان ، فلكُلٍّ منّا صوته المميز في نبرته وحدّته واستعلائه أو استفاله ، أو في رقته أو في

تضخيمه . . الخ . فلماذا إذن تميَّز صوت الإنسان بهذه الميزة عن باقي الأصوات؟
قالوا : لأن الجماد والحيوان ليس لهما مسئوليات ينبغي أنْ تُضبط وأنْ تُحدَّد كما للإنسان ، وإلا كيف نُميز المجرم حين يرتكب جريمته ونحن لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شيئاً من أوصافه؟ وحتى لو عرفنا أوصافه فإنها لا تدلُّنا عليه دلالة قاطعة تُحدِّد المسئولية ويترتب عليها الجزاء .
وقال سبحانه بعدها { وَأَلْوَانِكُمْ . . . } [الروم : 22] فاختلاف الألسنة والألوان ليحدث هذا التميُّز بين الناس ، ولأن الإنسان هو المسئول خلق الله فيه اختلافَ الألسنة والألوان؛ لنستدل عليه بشكله : بطوله أو قِصَره أو ملابسة . . . إلخ .
وفي ذلك ما يضبط سلوك الإنسان ويُقوِّمه حين يعلم أنه لن يفلت بفِعْلته ، ولا بُدَّ أنْ يدل عليه شيء من هذه المميزات .
لذلك نرى رجال البحث الجنائي ينظمون خطة للبحث عن المجرم قد تطول ، لماذا؟ لأنهم يريدون أنْ يُضيِّقوا دائرة البحث فيُخرجون منها مَنْ لا تنطبق عليه مواصفاتهم ، وما يزالون يُضيِّقون الدائرة حتى يصلوا للجاني .

والحق – تبارك وتعالى – يقول : { ياأيها الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لتعارفوا . . . . } [الحجرات : 13] .
فالتميُّز والتعارف أمر ضروري لاستقامة حركة الحياة ، ألاَ ترى الرجل يضع لكل ولد من أولاده اسماً يُميِّزه ، فإن عشق اسم محمد مثلاً ، وأحب أن يسمى كل أولاده محمداً لا بد أن يميزه ، فهذا محمد الكبير ، وهذا محمد الصغير ، وهذا الأوسط . . إلخ .
إذن : لا بُدَّ أن يتميز الخَلْق لنستطيع تحديد المسئوليات .
ثم يقول سبحانه : { لِّلْعَالَمِينَ . . . } [الروم : 22] أي : الذين يبحثون في الأشياء ، ولا يقفون عند ظواهرها ، إنما يتغلغلون في بطونها ، ويَسْبرون أغوارها للوصول إلى حقيقتها .
لذلك يلوم علينا ربنا عز وجل : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] فلا يليق بأصحاب العقول أن يغفلوا عن هذه الآيات ، إنما يتأملونها ليستنبطوا منها ما ينفعهم في مستقبل حياتهم ، كما نرى في المخترعات والاكتشافات الحديثة التي خدمتْ البشرية ، كالذي اخترع عصر البخار ، والذي اخترع العجلة ، والذي اكتشف الكهرباء والجاذبية والبنسلين . . الخ ، إذن : نمر على آيات الله في الكون بيقظة ، وكل العلوم التجريبية نتيجة لهذه اليقظة .
والعَالمون : جمع عالم ، وكانت تطلق في الماضي على مَنْ يعرف الحلال والحرام ، لكن هي أوسع من ذلك ، فالعالم : كل مَنْ يعلم قضية كونية أو شرعية ، ويُسمَّى هذا « عالم بالكونيات » وهذا عالم بالشرع ، وإنْ شئتَ فاقرأ : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً

أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ . . . } [فاطر : 27-28] .

فذكر سبحانه النبات ، ثم الجماد ، ثم الناس ، ثم الحيوان .

ثم يقول سبحانه : { إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء . . . } [فاطر : 28] على إطلاقها فلم يُحَدِّد أي علماء : علماء النبات ، أو الحيوان ، أو الجمادات ، أو علماء الشرع ، إذن : العَالِم كل مَنْ يعلم حقيقة في الكون وجودية أو شرعية من عند الله .

لكن ، لماذا أطلقوا العالم على العالم بالشرع خاصة؟ قالوا : لأنه أول العلوم المفيدة التي عرفوها؛ لذلك رأينا من آداب العلم في الإسلام ألاَّ يُدخِل علماء الشرع أنفسهم في الكونيات ، وألاَّ يُدخل علماء الكونيات أنفسهم في علوم الشرع .

والذي أحدث الاضطراب بين هذه التخصصات أن يقول مثلاً علماء الكونيات بأن الأرض تدور حول الشمس ، فيقوم من علماء الدين مَنْ يقول : هذا مخالف للدين – هكذا عن غير دراسة ، سبحان الله ، لماذا تُقحِم نفسك فيما لا تعلم؟ وماذا يضيرك كعالم بالشرع أن تكون الأرض كرة تدور أو لا تدور؟ ما الحرام الذي زاد بدوران الأرض وما الحلال الذي انتقص؟ كذلك الحال لما صعد الإنسان إلى القمر ، اعترض على ذلك بعض رجال الدين .

كذلك نسمع مَنْ لا عِلْم له بالشرع يعترض على بعض مسائل الشرع يقول : هذه لا يقبلها العقل . إذن : آفة العلم أن يقحم العالم نفسه فيما لا يعلم ، ولو التزم كلٌّ بما يعلم لارتاح الجميع ، وتركت كل ساحة لأهلها .

وعجيب أن يستشهد رجال الدين على عدم كروية الأرض بقوله تعالى : { والأرض مَدَدْنَاهَا . . . } [الحجر : 19] ولو تأملوا معنى { مَدَدْنَاهَا . . . } [الحجر : 19] لما اعترضوا؛ لأن معنى مددناها يعني : كلما سِرْتُ في الأرض وجدتها ممتدة لا تنتهي حتى تعود إلى النقطة التي بدأت منها ، وهذا يعني أنها كرة لا نهاية لها ، ولو كانت مُسطحة أو مُثلثة مثلاً لكان لها نهاية .

إذن : نقول للعلماء عموماً : لا تُدخلوا أنوفكم فيما لا علْم لكم به ، ودَعُوا المجال لأصحابه ، عملاً بقوله تعالى : { قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ . . . } [البقرة : 60] .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل . . . } .

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23)

كذلك من الآيات العجيبة الدالة على قدرة الله { مَنَامُكُم . . } [الروم : 23] فحتى الآن لم يكشف علماء وظائف الأعضاء والتشريح عن سِرّ النوم ، ولم يعرفوا – رغم ما قاموا به من تجارب – ما هو النوم . لكن هو ظاهرة موجودة وغالبة لا يقاومها أحد مهما أُوتِي من القوة ،

ومهما حاول السهر دون أنْ ينام ، لا بُدَّ أن يغلبه النوم فينام ، ولو على الحصى والقتاد ، ينام وهو واقف وهو يحمل شيئاً لا بُدَّ أنْ ينام على أية حالة .

وفلسفة النوم ، لا أن نعرف كيف ننام ، إنما أن نعرف لماذا ننام؟ قالوا : لأن الإنسان مُكوَّن من طاقات وأجهزة لكل منها مهمة ، فالعين للرؤية ، والأذن للسمع . . الخ ، فساعة تُجهد أجهزة الجسم تصل بك إلى مرحلة ليستْ قادرة عندها على العمل ، فتحتاج أنت – بدون شعورك وبأمر غريزي – إلى أن يرتاح كأنها تقول لك كفى لم تَعُد صالحاً للعمل ولا للحركة فنم .

ومن عجيب أمر النوم أنه لا يأتي بالاستدعاء؛ لأنك قد تستدعي النوم بشتى الطرق فلا يطاوعك ولا تنام ، فإنْ جاءك هو غلبك على أيّ حال كنتَ ، ورغم الضوضاء والأصوات المزعجة تنام .

لذلك يقول الرجل العربي : النوم طيف إنْ طلبتَه أعْنَتك ، وإنْ طلبك أراحك .

ولأهل المعرفة نظرة ومعنى كوني جميل في النوم ، يقولون في قوله تعالى : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . . } [الإسراء : 44] فكل ما في الوجود يُسبِّح حتى أبعاض الكافر وأعضاؤه مُسبحة ، إنما إرادته هي الكافرة ، وتظل هذه الأبعاض خاضعة لإرادة صاحبها إلى أنْ تنفكّ عن هذه الإرادة يوم القيامة ، فتشهد عليه بما كان منه ، وبما أجبرها عليه من معصية الله .

وسبق أنْ مثَّلْنَا لذلك بقائد الكتيبة حين يطيعه جنوده ولو في الخطأ؛ لأن طاعته واجبة إلى أنْ يعودوا إلى القائد الأعلى فيتظلمون عنده ، ويخبرونه بما كان من قائدهم .

وذكرنا أن أحد قواد الحرب العالمية أراد أنْ يستخدم خدعة يتفوق بها على عدوه ، رغم أنها تخالف قانون الحرب عندهم ، فلما أفلحتْ خُطّته وانتصر على عدوه كرَّموه على اجتهاده ، لكن لم يَفُتهم أنْ يعاقبوه على مخالفته للقوانين العسكرية ، وإنْ كان عقاباً صُورياً لتظل للقانون مهابته .

كذلك أبعاض الكافر تخضع له في الدنيا ، وتشهد عليه يوم القيامة : { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النور : 24] .

مع أن هذه الجوارح هي التي نطقتْ بكلمة الكفر ، وهي التي سرقتْ . . الخ؛ لأن الله أخضعها لإرادة صاحبها ، أما يوم القيامة فلا إرادةَ له على جوارحه : { وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . . } [فصلت : 21] لذلك يُطمئننا الحق سبحانه بقوله : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

فإذا ما نام الكافر ارتاحتْ منه أبعاضه وجوارحه ، ارتاحتْ من مرادات الشر عنده؛ لذلك يُحدِّثنا إخواننا الذين يحجُّون بيت الله يقولون : هناك النوم فيه بركة ، ويكفيني أقلّ وقت لارتاح ، لماذا؟ لأن فكرك في الحج مشغول بطاعة الله ، ووقتك كله للعبادة ، فجوارحك في راحة واطمئنان لم ترهقها المعصية؛ لذلك يكفيها أقل وقت من النوم لترتاح .

وفي ضوء هذا الفهم نفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « تنام عيني ولا ينام قلبي » لأنه صلى الله عليه وسلم حياته كلها للطاعة ، فجوارحه مستريحة ، فيكفيه من النوم مجرد الإغفاءة .

وفي العامية يقول أهل الريف : نوم الظالم عبادة ، لماذا؟ لأنه مدة نومه لا يأمر جوارحه بشرٍّ ، ولا يُرغمها على معصية فتستريح منه أبعاضه ، ويستريح الناس والدنيا من شره ، وأيّ عبادة أعظم من هذه؟

ونلحظ في هذه الآية { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغآؤكم مِّن فَضْلِهِ . . . } [الروم : 23] فجعل الليل والنهار محلاً للنوم ، ولابتغاء الرزق ، وفي آية أخرى : { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ } [القصص : 73] فجمعهما معاً ، ثم ذكر تفصيل ذلك على الترتيب { لِتَسْكُنُواْ فِيهِ } [القصص : 73] أي : في الليل { وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ } [القصص : 73] أي : في النهار .

وهذا أسلوب يُعرف في اللغة باللفِّ والنشر ، وهو أنْ تذكر عدة أشياء محكوماً عليها ، ثم تذكر بعدها الحكمَ عليها جملة ، وتتركه لذكاء السامع لِيُرجِع كل حكم إلى المحكوم عليه المناسب .

ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبي وجَفْني واللسَان وخَالِقي ... رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِر وغَفُور

فجمع المحكوم عليه في ناحية ، ثم الحكم في ناحية ، فجَمْع المحكوم عليه يسمى لَفّاً ، وجَمْع الحكم يُسمى نَشْراً .

وهاتان الآيتان من الآيات التي وقف أمامها العلماء ، ولا نستطيع أنْ نخرج منهما بحكم إلا بالجمع بين الآيات ، لا أن نفهم كل آية على حدة ، فنلحظ هنا في الآية التي معنا { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغآؤكم مِّن فَضْلِهِ . . . . } [الروم : 23] أن الله تعالى جعل كلاً من الليل والنهار محلاً للنوم ، ومحلاً للسعي .

وفي الآية الأخرى : { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ } [القصص : 73] ثم قال { وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ } [القصص : 73] ولم يقل (فيه) ويجب هنا أنْ نتنبه ، فهذه آية كونية أن يكون الليل للنوم والسكون والراحة ، والنهار للعمل وللحركة ، فلا مانع أن نعمل بالليل أيضاً ، فبعض الأعمال لا تكون إلا بليل ، كالحراس ورجال الأمن والعسس والخبازين في المخابز وغيرهم ، وسكن هؤلاء يكون بالنهار ، وبهذا الفهم تتكامل الآيات في الموضوع الواحد .

إذن : فقوله تعالى : { وابتغآؤكم مِّن فَضْلِهِ . . . } [الروم : 23] يعني : طلب الرزق والسَّعْي إليه يكون في النهار ويكون في الليل ، لكن جمهرة الناس يبتغونه بالنهار ويسكنون بالليل ، والقلة على عكس ذلك .

فإنْ قلتَ : هذا عندنا حيث يتساوى الليل والنهار ، فما بالك بالبلاد التي يستمر ليلها مثلاً ثلاثة أشهر ، ونهارها كذلك ، نريد أن نفسر الآية على هذا الأساس ، هل يعملون ثلاثة أشهر

وينامون ثلاثة أشهر؟ أم يجعلون من أشهر الليل ونهاراً ، ومن أشهر النهار أيضاً ليلاً ونهاراً؟ لا مانع من ذلك؛ لأن الإنسان لا يخلو من ليل للراحة ، ونهار للعمل أو العكس ، فكل من الليل والنهار ظرف للعمل أو للراحة .

لذلك ، فالحق – تبارك وتعالى – يمتنُّ علينا بتعاقُب الليل والنهار ، فيقول سبحانه : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ } [القصص : 71] وذيَّل الآية بأفلا تسمعون { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ } [القصص : 72] .
قالوا : لأن النهار محلُّ الرؤية والبصر ، أما الليل فلا بصرَ فيه ، فيناسبه السمع ، والأذن هي الوسيلة التي تؤدي مهمتها في الليل عندما لا تتوفر الرؤية .
وفي موضع آخر : { وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً } [الفرقان : 62] فالليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، هذا في الزمن العادي الذي نعيشه ، أما في بدْء الخَلْق فأيهما كان أولاً ، ثم خلفه الآخر؟
فإنْ قلت : إن الليل جاء أولاً ، فالنهار بعده خِلْفة له ، لكن الليل في هذه الحالة لا يكون خِلفة لشيء ، والنص السابق يوضح أن كلاً منهما خِلْفة للآخر ، إذن : فما حَلُّ هذا اللغز؟
مفتاح هذه المسألة يكمن في كروية الأرض ، ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر في بداية البعثة بهذه الحقيقة لما صدَّقوه ، كيف ونحن نرى مَنْ ينكر هذه الحقيقة حتى الآن .
والحق – سبحانه وتعالى – لا يترك قضية كونية كهذه دون أنْ يمسَّها ولو بلُطْف وخِفة ، حتى إذا ارتقت العقول تنبهتْ إليها ، فلو أن الأرض مسطوحة وخلقَ الله تعالى الشمس في مواجهة الأرض لاستطعنا أنْ نقول : إن النهار جاء أولاً ، ثم عندما تغيب الشمس يأتي الليل ، أما إنْ كانت البداية خلْق الأرض غير مواجهة للشمس ، فالليل في هذه الحالة أولاً ، ثم يعقبه النهار ، هذا على اعتبار أن الأرض مسطوحة .
وما دام أن الخالق – عز وجل – أخبر أن الليل والنهار كل منهما خِلْفة للآخر ، فلا بُدَّ أنه سبحانه خلق الأرض على هيئة بحيث يوجد الليل ويوجد النهار معاً ، فإذا ما دارت دورة الكون خلف كل منهما الآخر ، ولا يتأتّى ذلك إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة ، فما واجه الشمس منها صار نهاراً ، وما لم يواجه الشمس صار ليلاً .
لذلك يقول سبحانه في آية أخرى : { لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : 40] .
فالحق سبحانه ينفي هنا أنْ يسبقَ الليلُ النهارَ ، فلماذا؟
قالوا : يعتقدون أن الليلَ سابقُ النهار ، أَلاَ تراهم يلتمسون أول رمضان بليله لا بنهاره؟ وما

داموا يعتقدون أن الليل سابق النهار ، فالمقابل عندهم أن النهار لا يسبق الليل ، هذه قضية أقرَّها الحق سبحانه؛ لذلك لم يعدل فيها شيئاً إنما نفى الأولى { وَلاَ اليل سَابِقُ النهار . . . } [يس : 40] .

إذن : نفى ما كانوا يعتقدونه { وَلاَ اليل سَابِقُ النهار . . . } [يس : 40] وصدَّق على ما كانوا يعتقدونه من أن النهار لا يسبق الليل . فنشأ عن هذه المسألة : لا الليل سابق النهار ، ولا النهار سابق الليل ، وهذا لا يتأتّى إلا إذا وُجدوا في وقت واحد ، فما واجه الشمسَ كان نهاراً ، وما لم يواجه الشمس كان ليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً . . . } .

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24)

نلحظ في تذييل الآيات مرة يقول سبحانه : { لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الروم : 21] ومرة { لِّلْعَالَمِينَ } [الروم : 22] ومرة { لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [الروم : 23] أو { لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الروم : 24] فتختلف الأدوات الباحثة في الآيات .

والبعض يظن أن العقل آلة يُعملها في كل شيء ، فالعقل هو الذي يُصدِّق أو لا يُصدِّق ، والحقيقة أنك تستعمل العقل في مسألة الدين مرة واحدة تُغنيك عن استعماله بعد ذلك ، فأنت تستعمل العقل في أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فإنْ هداك العقل إلى أن الكون له إله قادر حكيم خالق لا إله إلا هو ووثقتَ بهذه القضية ، فإنها لا تطرأ على تفكيرك مرة أخرى ، ولا يبحثها العقل بعد ذلك ، ثم إنك في القضايا الفرعية تسير فيها على وَفْق قضية الإيمان الأولى فلا تحتاج فيها للعقل .

لذلك العقلاء يقولون : العقل كالمطية توصلك إلى حضرة السلطان ، لكن لا تدخل معك عليه ، وهكذا العقل أوصلك إلى الإيمان ثم انتهى دوره ، فإذا ما سمعتَ قال الله فأنت اثق من صِدْق القول دون أنْ تُعمل فيه العقل .

وحين يقول سبحانه : يعقلون يتفكرون يعلمون ، حين يدعوك للتدبُّر والعِظَة إنما ينبه فيك أدوات المعارضة لتتأكد ، والعقل هنا مهمته النظر في البدائل وفي المقدمات والنتائج .

كما لو ذهبتَ مثلاً لتاجر القماش فيعرض عليك بضاعته : فهذا صوف أصلي ، وهذا فطن خالص ، ولا يكتفي بذلك إنما يُريك جودة بضاعته ، فيأخذ (فتلة) من الصوف ، و (فتلة) من القطن ، ويشعل النار في كل منهما لترى بنفسك ، فالصوف لا ترعى فيه النار على خلاف القطن .

إذن : هو الذي يُنبِّه فيك وسائل النقد ، ولا يفعل ذلك إلا وهو واثق من جودة بضاعته ، أما

الآخر الذي لا يثق في جودة بضاعته فإنه يلجأ إلا ألاعيب وحيل يغري بها المشتري ليغُرّه .
كذلك الخالق – عز وجل – يُنبّهنا إلى البحث والتأمل في آياته فيقول : تفكَّروا تدبَّروا ، تعقَّلوا ، كونوا علماء واعين لما يدور حولكم ، وهذا دليل على أننا لو بحثنا هذه الآيات لتوصَّلْنا إلى مطلوبه سبحانه ، وهو الإيمان .
والبرق : ظاهرة من ظواهر فصل الشتاء ، حيث نسمع صوتاً مُدوّياً نسميه الرعد ، بعد أن نرى ضوءاً شديداً يلمع في الجو نسميه (برق) ، وهو عامل من عوامل كهربة الجو التي توصَّل إليها العلم الحديث ، لكن قبل ذلك كان الناس عندما يروْن البرق لا يفهمون منه إلا أحد أمرين : إما أنْ يأتي بصاعقة تحرقهم ، أو ينزل عليهم المطر ، فيخافون من الصاعقة ويرجون المطر .
{ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مَآءً . . . } [الروم : 24] ليظل العبد دائماً مع ربه بين الخوف والرجاء .
لكن أكُلّ الناس يرجون المطر؟ هَبْ أنك مسافر أو مقيم في بادية ليس لك كِنٌّ تكِنُّ فيه ، ولا مأوى يأويك من المطر ، فهذا لا يرجو المطر ولا ينتظره ، لذلك من رحمته تعالى أن يغلب انفعال الطمع في الماء الذي به تحيا الأرض بالنبات .

{ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا . . . } [الروم : 24] وكلمة السماء لها مدلولان : مدلولٌ غالب ، وهي السماوات السبع ، ومدلول لُغوي ، وهي كل ما علاَّك فأظلَّك ، وهذا هو المعنى المراد هنا { وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مَآءً . . . } [الروم : 24] لأن المطر إنما ينزل من السحاب ، فالسماء هنا تعني : كل ما علاك فأظلَّك .
ولو تأملتَ الماء الذي ينزل من السماء لوجدتَّه من سحاب متراكم { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ . . . } [النور : 43] .
وسبق أنْ تحدَّثنا عن كيفية تكوُّن السُّحُب ، وأنها نتيجة لبخر الماء ، لذلك من حكمته تعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع الأرض ماءً والربع يابسة ، ذلك لتتسع رقعة بَخْر الماء ، فكأن الثلاثة الأرباع جعلت لخدمة الرُّبْع ، وليكفي ماء المطر سكان اليابسة .
وبيَّنا أهمية اتساع مسطح الماء في عملية البخر ، بأنك حين تترك مثلاً كوباً من الماء على المنضدة لمدة طويلة يظل كما هو ، ولو نَقُص منه الماء لكان قليلاً ، أمّا لو سكبتَ ماء الكوب على أرض الغرفة مثلاً فإنه يجفّ في عدة دقائق لماذا؟ لأن مسطح الماء اتسع فكَثُر الماء المتبخِّر .
ومثَّلْنا لتكوُّن السُّحُب بعملية التقطير التي نُجريها في الصيدليات لنحصل منها على الماء النقي المعقم ، وهذه تقوم على نظرية استقبال بخار الماء من الماء المغلي ، ثم تمريره على سطح بارد فيتكثف البخار مُكوِّناً الماء الصافي ، إذن : فأنت حينما تستقبل ماء المطر إنما تستقبل ماءً مقطراً في غاية الصفاء والنقاء ، دون أن تشعر أنت بهذه العملية ، ودون أن نُكلِّفك فيها شيئاً .

وتأمل هذه الهندسة الكونية العجيبة التي ينشأ عنها المطر ، فحرارة الشمس على سطح الأرض تُبخِّر الماء بالحرارة ، وفي طبقات الجو العليا تنخفض الحرارة فيحدث تكثُّف للماء ويتكوَّن السحاب ، ومن العجيب أننا كلما ارتفعنا 30 متراً عن الأرض تقل الحرارة درجة ، مع أننا نقترب من الشمس؛ ذلك لأن الشمس لا تُسخِّن الجو ، إنما تُسخِّن سطح الأرض ، وهو بدوره يعطي الحرارة للجو؛ لذلك كلما بَعُدنا عن الأرض قلَّتْ درجة الحرارة .

ومن حكمة الله أنْ جعل ماء الأرض الذي يتبخر منه الماء العَذْب جعله مالحاً؛ لأن ملوحته تحفظه أنْ يأسن ، أو يعطن ، أو تتغير رائحته ، تحفظه أن تنمو به الطفيليات الضارة ، وليظلّ على صلاحه؛ لأنه مخزن للماء العذب الذي يروي بعذوبته الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض . . . } .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25)

السماء هنا بمعنى السماوات السبع التي تقوم بلا عَمَد ، وقلنا : إن الشيء الذي يعلوك إما أنْ يُحمل على أعمدة ، وإما أنْ يُشدَّ إلى أعلى ، مثل الكبارى المعلقة مثلاً ، وكذلك السماء سقف مرفوع لا نرى له أعمدة . إذن : لا تبقى إلا الوسيلة الأخرى ، وهي أن الله تعالى { وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ . . . } [الحج : 65] فهي قائمة بأمره .

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ . . . } [الروم : 25] لا يهتز لها نظام أبداً ، ولا تجد فيها فروجاً ، لأنها محْكَمة البناء ، وانظر إليها حين صفاء السماء وخُلوّها من السحب تجدها ملساء ذات لون واحد على اتساعها ، أيستطيع أحد من رجال الدهانات أن يطلي لنا مثل هذه المساحة بلون واحد لا يختلف؟

وإذا أخذنا السماء على أنها كُلُّ ما علاك فأظلَّك ، فانظر إلى الشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وكيف أنها تقوم بأمر الله خالقها على نظام دقيق لا اختلالَ فيه ، فلم نَر مثلاً كوكباً اصطدم بآخر ، ولا شيئاً منها خرج عن مساره .

وصدق الله تعالى { كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [الأنبياء : 33] فلكل منها سرعة ، ولكل منها مداره الخاص ونظام بحسبان؛ ذلك لأنها تقوم بأمر الله وقدرته تعالى فهي منضبطة تؤدي مهمتها دون خلل ، ودون تخلّف .

فمعنى { تَقُومَ . . . } [الروم : 25] يعني : تظل قائمة على حالها دون فساد ، وهو فعل مضارع دالٌّ على استمرار . وحين تتأمل : قبل أن يخترع الإنسان المجاهر والميكروسكوبات لم نكن نرى من المجموعة الشمسية غير الشمس ، فلما اخترعوا المجهر رأينا الكواكب الأخرى التي تدور حولها .

والعجيب أنها لا تدور في دوائر متساوية ، إنما في شكل إهليلي ، يتسع من ناحية ، ويضيق من

ناحية ، وهذه الكواكب لها دورة حول الشمس ، ودورة أخرى حول نفسها . فالأرض مثلاً لها مدار حول الشمس ينشأ عنه الفصول الأربعة ، ولها دورة حول نفسها ينشأ عنها الليل والنهار ، وكل هذه الحركة المركبة تتم بنظام دقيق محكم منضبط غاية الانضباط .

وهذه الكواكب تتفاوت في قُرْبها أو بُعْدها عن الشمس ، فأقربها من الشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المشتري ، ثم المريخ ، ثم زحل ، ثم أورانوس ، ثم نبتون ، ثم أبعدها عن الشمس بلوتو . ولكل منها مداره الخاص حول الشمس وتسمى (عام) ، ودورة حول نفسه تسمى (يوم) .

وعجيب أن يوم الزهرة ، وهو ثاني كوكب من الشمس يُقدَّر ب 44 يوماً من أيام الأرض ، في حين أن العام بالنسبة لها يُقدَّر ب 25 يوماً من أيام الأرض ، فالعام أقل من اليوم ، كيف؟ قالوا : لأن هذه دورة مستقلة ، وهذه دورة مستقلة ، فهي سريعة في دورانها حول الشمس ، وبطيئة في دورانها حول نفسها .

ولو علمتَ أن في الفضاء وفي كون الله الواسع مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية في (سكة التبَّانة) ، وهذا كله في المجرة التي نعرفها – لو علمت ذلك لتبيَّن لك عظَم هذا الكون الذي لا نعرف عنه إلا القليل؛ لذلك حين تقرأ :

{ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } [الذاريات : 47] فاعلم أنها مسألة لا نهاية لها ولا حدودَ في علمنا وفي عقولنا ، لكن لها نهاية عند الله .

ولا أدلَّ على انضباط حركة هذه الكونيات من انضباط موعد الكسوف أو الخسوف الذي يحسبه العلماء فيأتي منضبطاً تماماً ، وهم يبنون حساباتهم على حركة الكواكب ودورانها؛ لذلك نقول لمن يكابر حتى الآن ويقول بعدم دوران الأرض : عليك أن تعترف إذن أن هؤلاء الذين يتنبأون بالكسوف والخسوف يعلمون الغيب . فالأقرب – إذن – أن نقول : إنها لله الذي خلقها على هذه الهيئة من الانضباط والدقة ، فاجعلها لله بدل أنْ تجعلها للعلماء .

ثم يقول سبحانه : { ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض . . . } [الروم : 25] معنى { دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض . . . } [الروم : 25] المراد النفخة الثانية ، فالأولى التي يقول الله عنها : { إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ } [يس : 29] والثانية يقول فيها : { إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [يس : 53] .

فالأولى للموت الكلي ، والثانية للبعث الكلي ، ولو نظرت إلى هاتين النفختين وما جعل الله فيهما من أسرار تلتقي بما في الحياة الدنيا من أسرار لوجدتَ عجباً .

فكل لحظة من لحظات الزمن يحدث فيها ميلاد ، ويحدث فيها موت ، فنحن مختلفون في مواليدنا وفي آجالنا ، أما في الآخرة فالأمر على الاتفاق ، فالذين اختلفوا في المواليد سيتفقون في البعث

{ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [يس : 53] .

والذين اختلفوا في الموت سيتفقون في الخمود : { إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ } [يس : 29] فالميلاد يقابله البعث ، والموت يقابله الخمود . إذن : اختلاف هذه يعالج اتفاق هذه ، واتفاق هذه يعالج اختلاف هذه؛ لذلك يقول : { يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع . . . } [التغابن : 9] .

والنفخة الثانية يؤديها إسرافيل بأمر الله؛ لأن الحق – سبحانه وتعالى – يزاول أشياء بذاته ، ولا نعلم منها إلا أنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان وسَّواه بيده ، كما قال سبحانه : { ياإبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . . . } [ص : 75] أما غير ذلك فهو سبحانه يزاول الأشياء بواسطة خَلْقه في كل مسائل الكونيات .

تأمل مثلاً : { الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا . . . } [الزمر : 42] فالمتوفِّي هنا الله عز وجل ، وفي موضع آخر : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ . . . } [السجدة : 11] فنقلها إلى ملَك الموت ، وفي موضع آخر : { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا . . . } [الأنعام : 61] فنقلها إلى رسل الموت من الملائكة ، وهم جنود لملَك الموت .

وبيان ذلك أنه سبحانه نسب الموت لنفسه أولاً؛ لأنه صاحب الأمر الأعلى فيه ، فيأمر به ملَك الموت ، وملَك الموت بدوره يأمر جنوده ، إذن : فمردُّها إلى الله .

ثم يقول سبحانه : { إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ } [الروم : 25] أي : حين يسمع الموتى هذه الصيحة يهبُّون جميعاً أحياء ، فإذا هنا الفجائية الدالة على الفجأة ، وهذا هو الفارق بين ميلاد الدنيا وميلاد الآخرة ، ميلاد الدنيا لم يكُنْ فجأة ، بل على مهل ، فالمرأة قبل أنْ تلد نشاهد حملها عدة أشهر ، وتعاني هي آلام الحمل عدة أشهر ، فلا فجأة إذن .

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26)

نعرف أن (مَنْ) للعاقل ، ولنا أن نسأل : لماذا خصَّ العاقل مع أن لك ما في الكون خاضع لله طائع مُسبِّح يدخل في دائرة القنوت لله؟ قالوا : لأن التمرد لا يأتي إلا من ناحية العقل؛ لذلك بدأ الله به ، أما الجماد الذي لا عقلَ له ، فأمره يسير حيث لا يتأبَّى منه شيء على الله ، لا الجماد ولا الحيوان ولا النبات .

تأمل مثلاً الحمار تُحمِّله القاذورات فيحمل ، فإذا رقَّيْته وجعلته مطية للركوب لا يعترض ، لا عصى في الأولى ، ولا عصى في الأخرى؛ لأنه مُذلَّل لك بتذليل الله ، ما ذلَّلته لك بعقلك ولا بقوتك { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } [يس : 71–72] .

وضربنا لذلك مثلاً بالجمل لما ذلَّله الله لك استطاع الغلام الصغير أنْ يقوده ويُنيخه ويركبه ويحمله

، أما الثعبان الصغير فيُخيفك رغم صِغَره؛ لأن الله لم يُذلِّه لك .

ونقف هنا عند قوله تعالى { مَن فِي السماوات والأرض . . . } [الروم : 26] فمن في السماوات نعم هم قانتون لله أي : خاضعون له سبحانه ، مطيعون لإرادته لأنهم ملائكة مُكرَّمون { لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : 6] .

{ يُسَبِّحُونَ اليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ } [الأنبياء : 20] .

فما بال أهل الأرض ، وفيهم ملاحدة وكفار ليسوا قانتين ، فكيف إذن نفهم { كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ } [الروم : 26] .

قالوا : لأنهم لما تمرَّدوا على الله وكفروا به ، أو تمرَّدوا على حكمه فعصَوْه لم يتمردوا بذواتهم ، إنما بما خلق الله فيهم من اختيار ، ولو أرادهم سبحانه مقهورين ما شذَّ واحد منهم عن مراد ربه ، والله عز وجل لا يريد أنْ يحكم الإنسان بقهر القدرة ، إنما يريد لعبده أنْ يأتيه طواعية مختاراً ، فإمكانه أن يكفر ومع ذلك آمن ، وبإمكانه أن يعصي ومع ذلك أطاع .

فلو أرادهم الله مؤمنين ما وجدوا إلى الكفر سبيلاً ، ولعصمهم كما عصم الأنبياء ، ربك يريدك مؤمناً عن محبة وإخلاص لا عن قهر وغلبة؛ لذلك قال إبليس في جداله : { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 82-83] .

فلا قدرة له على عباد الله المخلصين ، الذين اختارهم الله لنفسه ، ولا سلطانَ له عليهم ، فإبليس إذن ليس في معركة مع ربه ، إنما في معركة مع الإنسان . وفي موضع آخر قال تعالى : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . . } [الحجر : 42] .

ولما عشق هؤلاء المتمرِّدون على الله التمرد ، وأحبوه زادهم الله منه وأعانهم عليه؛ لأنه سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، فختم على قلوبهم فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، وهو سبحانه الغني عن خَلْقه؛ لذلك لما خلق الجنة خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ آمنوا ، ولما خلق النار خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ، وترك لنا سبحانه الاختيار :

{ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29] .

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : أنتم أحرار ، فأنا مستعد للجزاء على أيِّ حال تسعكم جنتي ، إنْ آمنتم جميعاً ، ولا تضيق بكم النار إنْ كفرتم جميعاً .

ونقول لمن تمرَّد على الله : ينبغي أن تكون منطقياً مع نفسك ، وأن تظل متمرداً على الله في كل شيء ما دمت قد ألفتَ التمرد ، فإنْ جاءك المرض تتأبى عليه ، وإنْ جاءك الموت ترفضه ، فإذا لم تستطع فأنت مقهور لله خاضع له { كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ } [الروم : 26] خاضعون ، إما عن اختيار ، وإما عن قهر في كل أمر لا اختيار لك فيه ، إذن : فأنت قانت رغماً عنك ، وقنوتك مع تمرُّدك أبلغ في الشهادة لله .

إذن : فالمؤمن خاضع لله في منطقة الاختيار ، وهي الإيمان والتكاليف ، وخاضع لله فيما لا اختيار له فيه كالقضاء والأمور الاضطرارية ، فهو يستقبلها عن رضا ، أما الكافر فهو خاضع لله لا يستطيع الفكاك عن قضائه ولا عن قدره رغماً عنه في الأمور التي لا اختيارَ له فيها ، لكنه يستقبلها بالسُّخْط وعدم الرضا ، فهو كافر بالله كاره لقضائه .

فنقول لمن تمرد على الله فكفر به ، أو تمرَّد على أحكامه فعصاها : ما لكم لا تتمردون على الله فيما يقضيه عليكم من أمور اضطرارية؟ هذا دليل على أنكم اتخذتم الاختيار في غير محلِّه؛ لأن الذي يختار ينبغي أنْ يأخذ الاختيار في كل شيء ، لكن أنْ تختار في شيء ولا تختار في شيء آخر ، فهذا لا يجوز .

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

كثيراً ما يُحدِّثنا القرآن الكريم عن هذه المسألة ويُذكِّرنا بالبدء والإعادة ، لماذا؟ يهتم القرآن بهذه المسألة ويؤكد عليها لأنها كانت الأساس في دعوته؛ لأنهم إنْ كانوا يؤمنون بأنهم يرجعون إلى الله لخافوا من عقابه؛ لذلك يؤكد لهم في مواضع كثيرة حتمية الإعادة وأنها حَقٌّ .

قوله تعالى : { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ . . . } [الروم : 27] استُهلَّت الآية بقوله تعالى (وَهُوَ) وفي آية أخرى { الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ . . . } [الروم : 11] فكأن (هُوَ) مدلولها (الله) وهو كما نعلم ضمير غيبة ، والحق سبحانه غَيْب عن الأنظار ، ومن عظمته سبحانه أنه غيب ، فلو كان مُدْركاً مُحسَّاً ما استحق أنْ يكون إلهاً ، وكيف نطمع في إدراكه سبحانه ونحن لا نستطيع أن ندرك بعض مخلوقاته؟

فالمعاني التي خلقها الله لتسوس حركة الحياة : كلمة الحق ، العدل ، الحق الذي يقف القضاء كله ليؤيده ويُعلنه ، والعدل الذي يحكم موازين الحياة؛ ليوازن بين الشهوات وبين الحقائق ، هذه المعاني لا تُدرَك بالحواس ، فهل رأيتم العدل؟ هل سمعتم العدل؟ هل شممتم العدل؟ . . . الخ .

إذن : فالمعاني العالية لا يمكن أنْ تُدرك لأنها أرفع من الإدراك؛ لأن بها يكون الإدراك ، أيكون المخلوق للحق أسمى من أنْ يُدرك ، ويكون الحق سبحانه موضعاً للإدراك .

فإذا سمعت (هُوَ) فاعلم أنها لا تنصرف إلا إلى الإله الواحد الذي من عظمته أنه لا يُدرَك { لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار . . . } [الأنعام : 103] .

لذلك نقرأ في سورة الإخلاص { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الإخلاص : 1] فترى أن (الله) لفظ الجلالة ، وهو عَلَم على واجب الوجود يأتي بعد (هُوَ) فكأن (هُوَ) أدلُّ على وجود الحق سبحانه من لفظ الجلالة (الله) ، فكأنه لا يصح حين يُطلَق ضمير الغيبة (هُوَ) على شيء إلا الله؛ لأنه لا شيء في الكون إلا الله .

وقوله تعالى هنا { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق . . . } [الروم : 27] بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرارية ، مع أنه سبحانه بدأ الخَلْق بالفعل { كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } [الأعراف : 29] فإنْ ذكرت الأولى فقد بدأ الخَلْق ، وإن ذكرت الاستمرارية في الإيجاد فهو يبدأ دائماً ، وفي كل وقت ترى في خَلْق الله شيئاً جديداً ، فالخَلْق لم يأتِ مرة واحدة ، ثم توقف ، بل بدأ ثم استمر .

ونلحظ أن القرآن يذكر هذه المسألة مرة بالماضي (بَدَأ) ومرة بالمضارع (يَبْدأ) ؛ لأن الخالق سبحانه بدأ الخلق فعلاً بخَلْق آدم عليه السلام الإنسان الأول : { الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ } [السجدة : 7] ولا يزال سبحانه بقيوميته خالقاً ، يبدأ كل يوم وكل لحظة خَلْقاً جديداً نشاهده في الإنسان ، وفي الحيوان ، وفي النبات . . الخ .

وبالخَلْق المتجدِّد للإنسان ، حيث يُولَد كل لحظة مولود جديد نردُّ على الذين يقولون بتناسخ الأرواح – يعني : أن الروح تخرج من جسد فتحلُّ في جسد آخر – وهذا يعني أن تكون المواليد على قدر الوَفيَات ، ويعني أن يظل العالم على تعداد واحد دون زيادة ، ونحن نرى الآن مدى الكثافة السكانية التي يشكو العالم منها الآن ، وهذه تكفي لهدم هذه النظرية .

والحق سبحانه يُحذِّرنا أن نأخذ قصة بَدْء الخلق من غير الخالق سبحانه ، فمن الناس مضلون سيضلونكم في هذه المسألة ، فلا تُصغُون إليهم؛ لأن الله يقول : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51] .

وقد رأينا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول بأن الإنسان أصله قرد متطور إلى إنسان ، والردُّ على هذه الضلالات يسير ، فإذا كان القرد تطور إلى إنسان ، فلماذا لم تتطور باقي القرود؟ ولماذا لم يتطور الإنسان منذ أنْ خُلِق آدم وحتى الآن إلى شيء آخر؟ وكيف نصدق هذه الضلالات ، وربنا سبحانه يقول : { وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [الذاريات : 49] .

ويقول سبحانه : { سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } [يس : 36] فإياك أنْ تقول : إن شيئاً تطور عن شيء ، فكل جنس قائم بذاته منذ خلقه الله .

إذن : احذروا مثل هذه الأقوال ، ولا تأخذوا قصة بَدْء الخَلْق إلا من الله وحده .

كلمة { يُعِيدُهُ . . . } [الروم : 27] أي : إلى الخَلْق فهي بمعنى يخلقه ، فالمعنى : يبدأ الخلق ثم يميته ثم يُعيده ، البعض يظن أن يعيده يعني يبعثه في الآخرة ، لكن الله تعالى يقول : { الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [الروم : 11] فيعيده غير تُرجعون ، ترجعون أي : في القيامة .

وقوله { وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . . } [الروم : 27] أي : على حَسْب فهمكم أنتم للأشياء ، وإلا فالله تعالى لا يقال في حقه هذا سهل وهذا أسهل ، ولا هيِّن وأهون؛ لأنه سبحانه لا يزاول

الأشياء كما نزاولها نحن ، ولا يعالج الأفعال ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .
ومن ذلك قوله تعالى لزكريا عليه السلام لما تعجب أن يكون له ولد ، وقد بلغ من الكِبَر عتياً وامرأته عاقر : { هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . . . } [مريم : 9] ذلك لأن طلاقَة القدرة لا تقف عند أسبابكم . وكذلك قال لمريم : { كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . . . } [مريم : 21] .
فالأمر عجيب في نظر مريم ، أن تأتي بولد بدون زوج؛ لكنه ليس عجيباً في قدرة الله ، فإنْ كانت العادة أنْ يأتي الولد بالأسباب فالله سبحانه هو خالق الأسباب ، يفعل ما يشاء بدونها .
وسبق أن تحدثنا عن طلاقة قدرة الله في قصة إبراهيم عليه السلام حينما أراد القوم أنْ يحرقوه ، فلو كانت المسألة مسألة نجاة إبراهيم من النار ما مكّنهم الله من الإمساك به ، أو : حتى إنْ أمسكوه وألقَوْه في النار كان بالإمكان أنْ يُنزِل الله على النار مطراً فتنطفيء .
لكن الحق سبحانه يريد أن يسدَّ على الكافرين منافذ الحِجَاج ، ويبطل كفرهم ، فهاهم قد ظفروا به وألقَوْه في قَعْر النار ، وهي على حال الاشتعال والإحراق ، لكنهم غفلوا عن شيء هام ، هو أن الله تعالى ربُّ هذه النار وخالقها وخالق قوة الإحراق فيها ، وهو وحده القادر على أنْ يسلبها هذه الخاصية ، فيلقى فيها نبيه إبراهيم دون أن يحترق .

وهنا تكِمن العظمة وتظهر الحجة { قُلْنَا ياناركُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69] .
ونلحظ فصاحة الأداء في { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق . . . } [الروم : 27] فهو أسلوب قَصْر ، حيث قدّم المتعلق الذي حقُّه أن يكون مؤخراً ، كما في { إِيَّاكَ نَعْبُدُ . . . } [الفاتحة : 5] فقدّم المفعول ، ومن حق المفعول أن يُؤخّر عن الفعل والفاعل ، وقدَّمه هنا ، لنقصر العبادة على الله وحده دون سواه ، وحتى لا نعطف على الله تعالى شيئاً ، فلو قلت نعبدك لجاز أن تقول : ونعبد غيرك ، كذلك هنا { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق . . . } [الروم : 27] أفادت تخصيص الخلق لله وحده دون أن نعطف عليه أحداً .
وقوله تعالى { وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . . } [الروم : 27] الحقيقة ليس في الأمور بالنسبة لله تعالى هَيّن وأهون ، إنما في عُرْفنا نحن ، وليُقرِّب لنا الحق سبحانه فَهْم المسائل ، وإلا فالحق سبحانه لا يعالج الأمور ولا يزاولها كما نعالجها نحن ، وإنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .
لذلك لما نتأمل قَوْل مريم عليها السلام لما بشَّرتها الملائكة بالمسيح قالت : { رَبِّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ . . . } [آل عمران : 47] فكيف فهمتْ مريم هذه المسألة ، ومَنْ أخبرها بأن الولد سيكون دون أن يمسَّها بشر؟
لقد فهمت مريم هذا من قول الملائكة { إِنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ . . . } [آل عمران : 45] . فلو كان له أبٌ لذكرته الملائكة ، وما داموا قد نسبوه إلى أمه فلا

أب له .

ثم يقول سبحانه : { وَلَهُ المثل الأعلى فِي السماوات والأرض . . . } [الروم : 27] له المثل الأعلى يعني : أن الله تعالى لا مثيل له ، فإنْ شابهه سبحانه شيء من خَلْقه في صفة من الصفات فخُذْها في إطار التقريب للمعنى ، وفي إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11] فلك وجود لله تعالى وجود ، لكن وجودك ليس كوجود الله ، أنت حَيٌّ والله حَيٌّ ، لكن حياتك ليست كحياته عز وجل . . وهكذا .

وقوله { المثل الأعلى . . . } [الروم : 27] نقول : عالٍ وأعلى ، فهي أفعل تفضيل بمعنى : الذي لا يُشابه ولا يُضاهي؛ لذلك يقول سبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 1] فينفي أن يوجد شبيه لمثل الله لا شبيه لله؛ لأن الكاف هنا بمعنى : مثل . فكأنك قلت : ليس مِثْل مِثْله شيء .

وطريقة العرب في الأداء في مسألة المشابهة يقولون : زيد مثل الأسد في الشجاعة ، فأنت تريد أن تعطيني صورة لشجاعة زيد ، فذكرت أوضح شيء لهذه الصفة وهو الأسد ، فهو مُشبَّه به .

إذن : فالأسد أقوى من زيد في هذه الصفة ، وإلا لما جعلتَ المشبّه به توضيحاً لما لا تعلم .

فحين تقول : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . . } [الشورى : 1] تعني : إنْ وُجد مِثْل لله لا يوجد مثل لهذا المثْل ، فنفيتَ المثل من باب أَوْلَى؛ لأن الأضعف وهو المثل المشبه أضعف من المشبه به ، فإذا كان المثل أضعف من الممثَّل ولا يوجد مثل للأضعف ، فكيف يوجد مثل للأقوى؟

وانظر إلى جمال الحق سبحانه حين يُجلّي للخَلْق مثَلاً في دنياهم ، ويجعل من ذاته – سبحانه وتعالى – المماثلة ، يقول تعالى ليُقرّب لأفهامنا كيفية نوره : { الله نُورُ السماوات والأرض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ . . . } [النور : 35] .

فالله – سبحانه وتعالى – يضرب المثَل لنوره بالمشكاة ، السطحيون يظنون أن المشكاة هي المصباح ، لكن الله يقول { كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . . . } [النور : 35] والمشكاة تجويف في الحائط ، مثل الطاقة غير نافذة ، فإنْ كانت نافذة نسميها شباكاً ، وكانوا في الماضي يضعون المصباح في هذه الفجوة ليضيء الحجرة ، والفجوة هذه أو المشكاة تجمع الضوء وتُقوّيه؛ لذلك يكون الضوء فيها أقوى من ضوء الحجرة ، أو : أن المصباح يستوعب المشكاة أكثر من استيعابه للحجرة كلها .

وبتأمل هذا المعنى نرى أن الحق سبحانه لا يضرب لنا مثَلاً لنوره إنما لتنويره ، فتنوير الله تعالى مِثْل المشكاة التي فيها المصباح ، والمصباح يدلُّ على الرقي في وسائل الإضاءة ، فدونه مثلاً الشعلة ،

وهو فتيل يُوقَد في الهواء ويكون له دخان أسود ، أما المصباح فله زجاجة تحجز عنه الهواء إلا بقدر ما يكفي لاحتراق الفتيل ، فيأتي الضوء منه صافياً .

ثم هو فضلاً عن ذلك في زجاجة ليست عادية ، إنما { كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ . . . } [النور : 35] أي : مثل الدرة التي تضيء بذاتها ، هذا المصباح يُوقَد من شجرة زيتونة معتدلة المزاج { لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ . . . } [النور : 35] فتصوُّر هذا المصباح في مكان ضيق لا في الحجرة كلها ، إنما في المشكاة كيف يكون ضوؤه؟

كذلك تنوير الله – سبحانه وتعالى – للسماوات والأرض على سعتهما ، فنوره تعالى يستوعبهما ، لا يترك منهما مكاناً مظلماً كالطاقة بالنسبة لهذا المصباح الذي وصفنا .

ولهذا المثل قصة شهيرة في الأدب العربي ، فقد فطن إليها أبو تمام في مدحه أحد الخلفاء ، وحين أراد أنْ يجمع له مَلَكات العرب ومواهبهم من الجود والشجاعة والحِلْم والذكاء ، قال مادحاً :

إقْدَامُ عَمْرٍو في سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ... وفي حِلْم أحْنفَ في ذَكَاءِ إيَاسِ

وقد اشتهر عمرو بن معدي كرب بالشجاعة والإقدام ، واشتهر حاتم الطائي بالكرم ، وأحنف بن قيس بالحلم حتى قيل « أحلم العرب » فلا يُغضِبه شيء أبداً ، ولا يُخرجه عن حِلْمه ، حتى أن جماعة قصدوا أنْ يخرجوه عن حِلْمه ، فتكون سابقة لهم فتبعوه في الطريق ، وأخذوا يهزءُون به وهو يضحك ، حتى قارب من الحي ، فنظر إلى هؤلاء الفتية وقال : أيها الفتية ، لقد قربنا من الحيّ ، فإنْ كان في جوفكم استهزاء بي فافرغوا منه؛ لأنهم لو ظفروا بكم لقتلوكم .

أما إياس بن معاوية فكان مَضْرب المثَل في الذكاء ، وهكذا جمع أبو تمام لممدوحه خلاصة ما تعرفه العرب من مواهب . وهنا قام له واحد من خصومه وقال : أتُشبِّه الخليفة بأجلاف العرب ، فمَنْ يكون هؤلاء إذا ما قُورِنوا بأمير المؤمنين؟

وهذا الاعتراض مأخوذ من قول الشاعر :

وشَبَّهه المدَّاحُ في البَأْسِ والنَّدَى ... بمَنْ لوْ رآهُ كانَ أصْغر خَادمِ

فَفِي جيشه خَمسُونَ ألفاً كَعنترٍ ... وأَمْضَى وفي خُدَّامهِ ألفُ حاتِمِ

فلما قيل لأبي تمام : كيف تشبه الخليفة بأجلاف العرب أحجم هنيهة ثم رفع رأسه ، وقال :

لاَ تُنكِروا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مثَلاً شَرُوداً في النَّدَى والبَاس

فالله قد ضَربَ الأقلَّ لِنُورِه ... مَثَلاً من المشْكَاةِ والنِّبراسِ

ومع دقَّة الاستشهاد وطرافته إلا أن خصومه اتهموه بأن ذلك ليس ارتجالاً لوقته ، إنما هو مُعدٌّ لهذا الموقف سلفاً ، وبعض الدارسين للأدب يقول بذلك وقاله لنا مدرس الأدب ، لكن يُروَى أنهم لما أخذوا الورقة التي مع أبي تمام لم يجدوا فيها هذه الأبيات ، ثم على فرض أن الرجل أعدَّها قبل هذا الموقف فإنها تُحسَب له لا عليه ، وتضيف إليه ذكاءً آخر؛ لأنه استدرك على ما يمكن

أنْ يُقال فاستعد له .

وكما أن الحق سبحانه وتعالى له المثَل الأعلى في الأرض ، فلا مثيلَ له ، كذلك له المثل الأعلى في السماء فلا مثيلَ له ، مع أن ما في السماء غيب ، وهم الملائكة من صفاتهم كذا وكذا ، فلله المثَل الأعلى في السماوات .

ثم يقول سبحانه : { وَهُوَ العزيز الحكيم } [الروم : 27] أي : أنه سبحانه وتعالى بذاته عزيز لا يُغلب ، ومع عزته سبحانه حكيم لا يظلم .

ثم يقول الحق سبحانه : { ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . } .

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28)

ضَرْب المثل أسلوب من أساليب القرآن للبيان والتوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام ، ففي موضع آخر يقول سبحانه : { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . } [البقرة : 26] .

وقال سبحانه : { ياأيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ . . . } [الحج : 73] فهذا كثير من كتاب الله ، والمثَل يُضرب ليُجلِّي حقيقة . والضَّرْب هنا لا يعني إحداث أثر ضار بالمضروب ، إنما إحداث أثر نافع إيجابي كما في قوله تعالى : { وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرض . . . } [المزمل : 20] .

وقولنا في مسألة سكِّ العملة : ضُرِبَ في كذا ، فكأن الضرب يُحدث في المضروب أثراً باقياً ، ففي الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها ، وفي العملة بتَرْكِ أثر بارز لا تمحوه الأيدي في حركة التداول ، وكأن ضَرْب المثَلَ يوضح الشيء الغامض توضيحاً بيّناً كما تُسَكّ العملة ، ويجعل الفكرة في الذهن قائمة واضحة المعالم . وللضرب عناصر ثلاثة : الضارب ، والمضروب ، والمضروب به .

ويُروى في مجال الأمثال أن رجلاً خرج للصيد معه آلاته : الكنانة وهي جُعْبة السهام ، والسهام ، والقوس ، فلما رأى ظبياً أخذ يُعدّ كنانته وقَوْسه للرمي لكن لم يمهله الظبي وفَرَّ هارباً ، فقال له آخر وقد رأى ما كان منه : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن ، فصارت مثلاً وإن قيل في مناسبة بعينها إلا أنه يُضرَب في كل مناسبة مشابهة ، ويقال في أيِّ موضع كما هو وبنفس ألفاظه دون أن نُغيِّر فيه شيئاً .

فمثلاً ، حين ترى التلميذ المهمل يذاكر قبيل الامتحان ، وحين ترى مَنْ يُقدِم على أمر دون أنْ يُعدّ له عُدَّته لك أنْ تقول : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن . إذن : هذه العبارة صار لها مدلولها الواضح ، وترسَّخَتْ في الذِّهْن حتى صارتْ مثَلاً يُضرب .

وتقول لمن تسلَّط عليك وادَّعى أنه أقْوى منك : إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً .

والحق سبحانه يضرب لنا المثل للتوضيح ولتقريب المعاني للأفهام؛ لذلك يقول سبحانه : { إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : 26] يقف هنا بعض المتمحكين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، يقولون : ما دام الله تعالى لا يستحي أنْ يضرب مثلاً بالبعوضة فما فوقها من باب أَوْلى ، فلماذا يقول { فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : 26] .

وهذا يدل على عدم فهمهم للمعنى المراد لله عز وجل ، فالمعنى : فما فوقها أي : في الغرابة وفي القلة والصِّغر ، لا ما فوقها في الكِبَر .

ومن الأمثلة التي ضربها الله لنا ليوضح لنا قضية التوحيد قوله تعالى : { ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحمد للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [الزمر : 29]

فالذي يتخذ مع الله إلهاً آخر كالذي يخدم سيدين وليتهما متفقان ، إنما متشاكسان مختلفا ، فإنْ أرضى أحدهما أسخط الآخر ، فهو متعب بينهما ، فهل يستوي هذا العبد وعبد آخر يخدم سيداً واحداً؟ كذلك في عبادة الله وحده لا شريك له .

فبالمثال اتضحت القضية ، ورسختْ في الأذها؛ لذلك يقول سبحانه : أنا لا أستحي أنْ أضرب الأمثال؛ لأنني أريد أن أوضح لعبادي الحقائق ، وأُبيّن لهم المعاني .

{ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . } [الروم : 28] .

في هذه الآية وبهذا المثَل يؤكد الحق – سبحانه وتعالى – في قمة تربية العقيدة الإيمانية ، يؤكد على واحدية الله وعلى أحديته ، فالواحدية شيء والأحدية شيء آخر : الواحدية أنه سبحانه واحد لا فرد آخر معه ، لكن هذا الفرد الواحد قد يكون في ذاته مُركّباً من أجزاء ، فوصف نفسه سبحانه بأنه أحدٌ أي : ليس مُركَّباً من أجزاء . أكَّد الله هذه الحقيقة في قرآنه بالحجج وبالبراهين ، وضرب لها المثل . وهنا يضرب لنا مثلاً من أنفسنا ليؤكد على هذه الوحدانية .

وقوله تعالى : { مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . } [الروم : 28] يعني : ليس بعيداً عنكم ، وأقرب شيء للإنسان نفسه ، إذن : فأوضح مثَل لما غاب عنك أنْ يكون من نفسك ، ومن ذلك قوله تعالى : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . } [التوبة : 128] أي : من جنسكم تعرفون نشأته ، وتعرفون خُلُقه وسيرته .

لكن ، ما المثَل المراد؟

المثل : { هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ . . . } [الروم : 28] .

يقول سبحانه : أريد أنْ أضرب لكم مثلاً على أن الإله الواحد يجب عقلاً ألاَّ تشركوا به أشياء أخرى ، والمثل أنِّي أرزقكم ، ومن رزقي لكم مَوَال وعبيد ، فهل جئتم للرزق الذي رزقكم الله وللعبيد وقلتم لهم : أنتم شركاء لنا في أموالنا تتصرفون فيها كما نتصرف نحن ، ثم جعلتم لهم مطلق الحرية والتصرف ، ليكونوا أحراراً أمثالكم تخافونهم في أنْ تتصرفوا دونهم في شيء كخيفتكم أنفسكم؟ هل فعلتم ذلك؟ بل هل تقبلونه على أنفسكم؟ إذن : لماذا تقبلونه في حق الله تعالى وترضَوْن أنْ يشاركه عبيده في مكله؟

إنكم لم تقبلوا ذلك مع مواليكم وهم بشر أمثالكم ملكتموهم بشرع الله فائتمروا بأمركم . هذا معنى { مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . } [الروم : 28] أي : من البشر ، فهم مثلكم في الآدمية ، وملكيتكم لهم ليست مُطْلقة ، فأنتم تملكون رقابهم ، وتملكون حركة حياتهم ، لكن لا تملكون مثلاً قتلهم ، ولا تملكون منعهم من فضاء الحاجة ، لا تملكون قلوبهم وإرادتهم ، ثم هو مُلْك قد يفوتك ، كأن تبيعه أو تعتقه أو حتى بالموت . ومع ذلك ما اتخذتموهم شركاء ، فعَيْب أنْ تجعلوا لله ما تستنكفون منه لأنفسكم .

ونلحظ هنا أن الله تعالى لم يناقشهم في مسألة الشركاء بأسلوب الخبر منه سبحانه ، إنما اختار أسلوب الاستفهام وهو أبلغ في تقرير الحقيقة : { هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . } [الروم : 28] .

وأنت لا تعدل عن الخبر إلى الاستفهام عنه إلا وأنت تعلم وتثق بأن الإجابة ستكون في صالحك ، فمثلاً حين ينكر شخصٌ جميلَك فتقول مُخبراً : فعلتُ معك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وقد ينكر فيقول : لا لم تفعل معي شيئاً .

أما حين تقول مستفهماً : ألم أفعل فعل كذا وكذا؟ فإنك تُلجئه إلى واقع لا يملك إنكاره ، ولا يستطيع أنْ يفرّ منه ، ولا يملك إلا أنْ يعترف لك بجميلك ولا أقلَّ من أنْ يسكت ، والسكوت يعني أن الواقع كما قلت .

لذلك يستفهم الحق سبحانه وهو أعلم بخَلْقه { هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ . . . } [الروم : 28] لا بدّ أنْ يقولوا : لا ليس لنا شركاء في أموالنا ، إذن : لماذا جعلتم لله شركاء؟ وقوله تعالى : { فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . } [الروم : 28] سبق أنْ تحدثنا في مسألة الرزق وقلنا : إن الله تعالى هو الرازق ، ومع ذلك احترم ملكية خَلْقه ، واحترم سعيهم : لأنه سبحانه واهب هذا الملك ، ولا يعود سبحانه في هبته لخَلْقه؛ لذلك لما أراد أنْ يُحنن قلوب خَلْقه على خَلْقه قال : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً . . . } [البقرة : 245] فاعتبر صدقتك على أخيك الفقير قرضاً يردّه إليك مُضَاعفاً .

والرزق لا يقتصر على المال – كما يظن البعض – إنما رزقك كلّ ما انتفعتَ به فهو رزق ينبغي

عليك أن تفيض منه على مَنْ يحتاجه ، وأن تُعدِّيه إلى مَنْ يفتقده ، فالقويُّ رزقه القوة يُعدِّيها للضعيف ، والعالم رزقه العلم يُعدِّيه للجاهل ، والحليم رزقه حلْم يُعدِّيه للغضوب وهكذا ، وإلا فالمال أهون ألوان الرزق؛ لأن الفقير الذي لا يملك مالاً ولم يتصدق أحد عليه قصارى ما يحدث له أن يجوع ويُباح له في هذه الحالة أنْ يسأل الناس ، وما رأينا أحداً مات جوعاً .

لكن ينبغي على الفقير إنْ ألجأتْه الحاجة للسؤال أنْ يسأل بتلطُّف ولين ، فإنْ كان جائعاً لا يسأل الناس مالاً إنما لقمة عيش وقطعة جبن أو ما تيسَّر من الطعام ليسُدّ جَوْعته ، وسائل الطعام لا يكذبه أحد لأنه لا سأل إلا عن جوع ، حتى لو سألك وهو شبعان فأعطيتَه ما استطاع أنْ يأكل ، أما سائل المال فقد نظن فيه الطمع وقصد الادخار . إذن : أفضح سؤال سؤال القوت .

لذلك في قصة الخضر وموسى عليهما السلام : { فانطلقا حتى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ استطعمآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا . . } [الكهف : 77] فلما منعوهم حتى لقمة العيش استحقُّوا أنْ يوصفوا بألأَم الناسِ ، وقد أباح الشرع للجائع أن يسأل الطعام من اللئيم فإن منعه فللجائع أن يأخذه ولو بالقوة ، وإذا رفع أمره إلى القاضي أيَّده القاضي ، لذلك يقولون فيه : طالب قُوتٍ ما تعدَّى .

والحق سبحانه تكفَّل لك برزقك ، إنما جعل للرزق أسباباً وكل ما عليك أنْ تأخذ بهذه الأسباب ثم لا تشغل بالك هماً في موضوعه ، وإيالك أن تظن أن السَّعْي هو مصدر الرزق ، فالسعي سبب ، والرزق من الله ، وما عليك إلا أنْ تتحرى الأسباب ، فإنْ أبطأ رزقك فأرحْ نفسك؛ لأنك لا تعرف عنوانه ، أمّا هو فيعرف عنوانك وسوف يَأتيك يطرق عليك الباب .

والذي يُتعب الناس أنْ يظل الواحد منهم مهموماً لأمر الرزق مُفكِّراً فيه ، ولو علم أن الذي خلقه واستدعاه للوجود قد تكفَّل برزقه لاستراح ، فإنْ أخطأت أسباب الرزق في ناحية اطمئن فسوف يأتيك من ناحية أخرى .

ونذكر هنا قصة عروة بن أذينة وكان صديقاً لهشام بن عبد الملك بالمدينة قبل أنْ يتولى هشامٌ الخلافة ، فلما أصبح هشام أميراً للمؤمنين انتقل إلى دمشق بالشام ، أما عروة فقد أصابته فاقة ، فلما ضاق به الحال تذكّر صداقته القديمة لهشام ، وما كان بينهما من وُدٍّ ، فقصده في دمشق علَّه يُفرّج ضائقته .

جاء عروة إلى دمشق واستأذن على الخليفة فأذن له ، فدخل وعرض على صاحبه حاجته وكله أمل في أنْ ينصفه ويجبر خاطره ، لكن هشاماً لم يكن مُوفّقاً في الردِّ على صديقه حيث قال :

أتيتَ من المدينة تسألني حاجتك وأنت القائل :

لَقد عَلمْتِ ومَا الإِسْرافُ مِنْ خُلُقي ... أنَّ الذي هُو رِزْقي سوفَ يَأْتِيني

فقال عروة بعد أن كسر صديقه بخاطره : جزاك الله عني خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد نبَّهتَ مني

غافلاً ، وذكَّرتَ مني ناسياً ، ثم استدار وخرج .
وعندها أدار هشام الأمر في نفسه وتذكّر ما كان لعروة من وُدٍّ وصداقة ، وشعر بأنه أساء إليه فأنَّبه ضميره ، فاستدعى صاحب الخزانة ، وأمر لعروة بعطية كبيرة ، وأرسل بها مَنْ يلحق به .
لكن كلما وصل الرسول إلى (محطة) وجد عروة قد فارقها حتى وصل إلى المدينة ، ودقَّ على عروة بابه ، وكان الرسول لَبِقاً ، فلما فتح عروة الباب قال : ما بكم؟ قال : رسل هشام ، وتلك صِلَة هشام لك لم يَرْضَ أنْ تحملها أنت خوفاً عليك من قُطاع الطريق ، أو تحمل مؤونة حَمْلها ، فأرسلنا بها إليك .
فقال عروة : جزى الله أمير المؤمنين خيراً ، قولوا له لقد ذكرت البيت الأول ، ولو ذكرت الثاني لأرحتَ واسترحتَ ، لقد قلت :
لَقد عَلمْتِ ومَا الإِسْرافُ مِنْ خُلُقي ... أنَّ الذي هُو رِزْقي سوفَ يَأْتِيني
أَسْعى إِلَيْهِ فَيَعْييني تطلبّه ... ولَوْ قَعَدْتُ أتَاني لا يُعنّيني
ثم يقول سبحانه بعد هذا المثل : { كَذَلِكَ نُفَصّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الروم : 28] أي : نُبيّنها إلا إليها ، ومعنى { يَعْقِلُونَ } [الروم : 28] من العقل ، وسُمِّي عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه ويقيده عما لا يليق .
والبعض يظن أن العقل إنما جُعل لترتع به في خواطرك ، إنما هو جاء ليقيد هذه الخواطر ، ويضبط السلوك ، يقول لك : اعقل خواطرك وادرسها لا تنطلق فيها على هواك تفعل ما تحب ، بل تفعل ما يصح وتقول ما ينبغي . إذن : ما قصَّرنا في البيان ولا في التوضيح .
ويتجلَّى دور العقل المجرد وموافقته حتى للوحي في سيرة الفاروق عمر رضي الله عنه ، وفي وجود رسول الله ، وهو ينزل عليه الوحي يأتي عمر ويشير على رسول الله بأمور ، فينزل الوحي موافقاً لرأي عمر ، وكأن الحق – تبارك وتعالى – يلفت أنظارنا إلى أن العقل الفطري إذا فكَّر في أمر بعيداً عن الهوى لا بُدَّ أنْ يصل إلى الصواب وأنْ يوافق حقائق الدين ، أمّا إنْ تدخَّل الهوى فسد الفكر .

وقوله تعالى { كَذَلِكَ نُفَصّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الروم : 28] العقل وسيلة من وسائل الإدراك في الإنسان؛ لأن الله تعالى قال : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78] .
لكن ، كيف تُربَّى الأمور العقلية في الناس؟ تُربَّى عن طريق الحواس والإدراك ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتذوق ، واليد تلمس ، والأنف يشمُّ ، إلى آخر الحواس التي توصلنا إليها كحاسة البين ، وحاسة العضل وغيرها .
لذلك احتاط العلماء في تسمية الحواس فقالوا « الحواس الخمس الظاهرة » ليدعوا المجال مفتوحاً

لحواس أخرى ، فهذه الوسائل تدرك المعلومات وتنقلها إلى العقل ليراجعها وينتهي فيها إلى قضايا يجعلها دستوراً لحياته ، فأنت تأكل مثلاً العسل فتدرك حلاوته ، وتأكل الجبن فتدرك ملوحته ، فتتكون لديك قضية عقلية أن هذا حلو ، وهذا مالح . . إلخ .

وحين تستقر هذه القضايا في القلب تصير عقيدة لا تخرج للتفكير مرة أخرى ، ولا تمر على العقل بعد ذلك ، فقد انعقد عليها الفؤاد ، وترسختْ في الذهن .

ودَوْر العقل أن يعقل هذه القضايا ، وأنْ يختار بين البدائل ، والأمر الذي لا بديلَ له لا عملَ للعقل فيه ، فلو أنك مثلاً ستذهب إلى مكان ليس له إلا طريق واحد فلا مجال للتكفير فيه ، لكن إنْ كان لهذا المكان أكثر من طريق فللعقل أنْ يفاضل بينها ويختار الأنسب منها فيسلكه .

وما دام العقل هو الذي يختار فهو الميزان الذي تَزِن به الأشياء ، وتحكم به القضايا؛ لذلك لا بُدَّ له أنْ يكون سليماً لتأتي نتائجه كذلك سليمة وموضوعية ، ومعلوم أن الميزان يختلف باختلاف الموزون وأهميته .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لدقة الميزان في الشمس والقمر ، فيقول { الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ } [الرحمن : 5] أي : بحساب دقيق ، ولولا الدقة فيهما ما أخذناهما ميزاناً للوقت ، فبالشمس نعرف الليل والنهار ، وبالقمر نعرف الشهور .

فحين يقول سبحانه { كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الروم : 28] يعني : أننا عملنا ما علينا من التفصيل والبيان ، وتوضيح الحجج والبراهين ، ولكن أنتم الذين لا تعقلون .

ولما كان العقل هو آلة الاختيار بين البدائل وآلة التمييز أعفى الحق سبحانه مَنْ لا عقل له من التكاليف ، أعفى الطفل الصغير الذي لم يبلغ؛ لأن عقله لم ينضج بعد ، ولأن حواسّه لم تكتمل .

وتتجلى حكمة الشارع في قول النبي صلى الله عليه وسلم « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر » فجعل من ضمن تكليف الآباء أنْ يُكلِّفوا هم الأبناء في هذه السنِّ ، لتكون لهم دُرْبة على طاعة الأمر والنهي في وقت ليس عليهم تكليف مباشر من الله تعالى .

فإذا كبر الصغير يستقبل تكليفي كما استقبل تكليفك أولاً ، وربُّك ما افتات عليك في هذه المسألة ، فأعطاك حق التكليف بالصلاة ، وأعطاك حق أنْ تعاقبه إنْ قصَّر ، فأنت الذي تُكلِّف ، وأنت الذي تعاقب .

وأعفى المجنون لأن آلة الاختيار عنده غير سليمة وغير صالحة ، وقلنا : إن علامة النضج في الإنسان أن يصير قادراً على إنجاب مثله ، ومثَّلْنا لذلك بالثمرة التي لا تحلو إلا بعد نضجها ، بحيث إذا أكلت زرعتَ بذرتها ، فأنبتت ثمرة جديدة ، وهكذا يحدث بقاء النوع وتستمر الدورة .

فربك لا يريد أن تأكل أكلة واحدة ، ثم تُحرم أو يُحرم مَنْ يأتي بعدك ، إنما يريد أنْ تأكل ويأكل كل مَنْ يأتي بعدك ، فلا تأخذ الثمرةُ حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، وصلاحيتها للإنبات .

وقوله تعالى : { لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الروم : 28] يدل على أن الذين يتخذون مع الله شركاء غير عاقلين ، وإلا فما معنى عبادة الأصنام أو الأشجار أو الشمس أو القمر؟ وقد قالوا بألسنتهم : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . . . } [الزمر : 3] .

فما هي العبادة؟ العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ونَهْيه ، إذن : بماذا أمرَتْكُم هذه الآلهة؟ وعَمَّ نَهتْكُم؟ ما المنهج الذي وضعتْه لكم؟ ماذا أعدتْ لمن أطاعها من النعيم؟ وماذا أعدتْ لمن عصاها من العذاب؟ لا شيء إلا أنها آلهة بدون تكاليف ، وما أيسرَ أنْ يعبد الإنسانُ إلهاً لا تكاليف له ، لا يُقيدك فيما تحب من شهوات ، ولا يُحمِّلك مشقة العبادة ، وهنا يتضح عدم العقل .

وأيضاً عدم العقل في ماذا؟ الله خلقك في كون فيه أجناس ، والأجناس تحكمها سلسلة الارتقاء ، فجنس أعلى من جنس ، والجنس الأعلى في خدمة الجنس الأقل .

ولو استقرأتَ أجناس الوجود تجد أن معك أيها الإنسان جنساً آخر يشاركك الحسَّ والحركة ، لكن ليس له عقل واختيار بين البدائل؛ لأنه محكوم بالغريزة منضبط بها ، وهذا هو الحيوان الذي لا ينفكُّ عن الغريزة أبداً .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالغريزة الجنسية عند الإنسان وعند الحيوان ، وأن الله تعالى إنما جعلها لتكاثر وحِفْظ النوع ، فالحيوان المحكوم بالغريزة يؤدي هذه المهمة للتكاثر ويقف بها عند حدِّها ، فإذا لقَّح الذكر الأنثى يستحيل أنْ تمكِّنه من نفسها بعد ذلك ، وهو أيضاً يشمُّ رائحة الأنثى ، فإنْ كانت حاملاً ينصرف عنها .

أما الإنسان فغير ذلك؛ لأن له شهوة تتحكم فيه ، فالمرأة تتحمل مشقة الحمل وألم الولادة ، ثم تربية المولود إلى أنْ يكبر ، ولولا أن الله تعالى ربط حِفْظ النوع في الإنسان بشهوة هي أعنف شهوات النفس ما أقدمتْ المرأة على الحمل مرة أخرى .

وما قُلْناه في غريزة الجنس نقوله في الطعام والشراب ، الحيوان محكوم فيها بالغريزة المطلقة التي لا دَخْلَ للهوى فيها ، فإذا شبع لا يأكل مهما حاولتَ معه ، بل ونرى الحمار الذي نقول عنه إنه حمار لا يأكل عوداً واحداً بعد شِبَعه ، ويمر على النعناع الأخضر مثلاً أو على الملوخية فلا يأكلها ، ويذهب إلى الحشائش اليابسة ، فهو يعرف طعامه بالغريزة التي جعلها الله فيه .

أما الإنسان فيأكل حتى التُّخْمة ، ثم لا ينسى بعد ذلك الحلو والبارد والمهضم . . الخ ذلك؛ لأنه أسير لشهوة بطنه ، حتى إن من الناس مَنْ يغضب؛ لأنه شبع فهو يريد ألاَّ يفارق المائدة .

وقد حدثنا رجال حديقة الحيوان بعد زلزال 1992 أنهم شاهدوا هياجاً في الحيوانات المحبوسة في الأقفاص قبل حدوث الزلزال ، كان أولها الوطواط ، ثم الزرافة ، ثم التمساح ، ثم القرود ، ثم الحمير ، وكأنهم يريدون تحطيم الأقفاص والخروج منها ، بعدها حدث الزلزال .

وكذلك ما شاهده أهل أغادير بالدار البيضاء قبل الزلزال الذي وقع بها ، حيث شاهدوا الحمير تفك قيودها ، وتفرّ هاربة إلى الخلاء ، وبعدها وقع الزلزال . إذن : لدى هذه الحيوانات استشعار بالزلزال قبل أن يقع .

وقد أعطانا الحق – سبحانه وتعالى – مثالاً لهذه الغريزة في قصة الغراب الذي علَّم الإنسان كيف يُواري الميت ، فقال تعالى في قصة وَلَدَيْ آدم : { فَبَعَثَ الله غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأرض لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ . . . } [المائدة : 31] .

نعود إلى حديثنا عن أجناس الكون لبيان عدم عَقْل هؤلاء الذين جعلوا لله شركاء ، فأجناس الوجود : الإنسان ، ثم الحيوان ، ثم النبات ، ففيه حياة ونمو ، ثم الجماد أقل الموجودات درجة ، وهو خادم للنبات وللحيوان وللإنسان ، فكل جنس من هذه يخدم الجنس الأعلى منه .

فماذا فعل الكفار حينما عبدوا الأصنام؟ جعلوا الجماد الذي هو أدنى المخلوقات أرقاها وأعظمها ، جعلوه إلهاً يُعْبد ، وهل هناك أقلّ عقلاً من هؤلاء؟

لذلك يقول الحق سبحانه : { بَلِ اتبع الذين . . . } .

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29)

اتبعوا اهواءهم : لأنهم اختاروا عبادة مَنْ لا منهجَ له ولا تكليف ، عبدا إلهاً لا أمر له ولا نهي ، لا يرتب على التقصير عقوبة ، ولا على العمل ثواباً ، وهذا كله من وحي الهوى الذي اتبعوه .

إياك أن تُقدِّم الهوى على العقل؛ لأنك حين تُقدِّم الهوى يصير العقل عقلاً تبريرياً ، يحاول أنْ يعطيك ما تريد بصرف النظر عن عاقبته ، لكن بالعقل أولاً حدِّد الهوى ، ثم اجعل حركة حياتك تبعاً له .

والبعض يظن أن الهوى شيء مذموم على إطلاقه ، لكن الهوى الواحد غير مذموم ، أما المذموم فهي الأهواء المتعددة المتضاربة؛ لأن الهوى الواحد في القلب يُجنِّد القالب كله لخدمة هذا الهوى ، فحين يكون هواى أنْ أذهب إلى مكان كذا ، فإن القالب يسعى ويخطط لهذه الغاية ، فيحدد الطريق ، ويُعد الزاد ، ويأخذ بأسباب الوصول .

وهذا الهوى هو المعنيّ في الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع أن يكون للإنسان هوى تميل إليه نفسه وتحبه؛ لأن ذلك الهوى يُعينه على الجهاد والكفاح في حركة الحياة .

أما حين تتعدد الأهواء فَلَك محبوب ، ولي محبوب آخر ، فإنها لا شكَّ تتعارض وتتعاند ، والله تعالى يريد من المجتمع الإيماني أن تتساند كل أهوائه ، وأن تتعاضد لا تتعارض ، وأن تتضافر لا تتضارب؛ لأن تضارب الأهواء يُبدِّد حركة الحياة ويضيع ثمرتها .

أمّا إنْ كان هواي هو هواك ، وهو هوى ليس بشرياً ، إنما هوى رسمه لنا الخالق – عز وجل –

فسوف نتفق فيه ، وتثمر حركة حياتنا من خلاله { أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير } [الملك : 14] .

وسبق أنْ قُلْنا : إن صاحب الصَّنْعة في الدنيا يجعل معها كتالوجاً يُبيّن طريقة صيانتها ، والحق – سبحانه وتعالى – هو الذي خلقك ، وهو الذي يُحدِّد لك هواك ، وأول فشل في الكون أن الناس المخلوقين لله يريدون أنْ يضعوا للبشر قانون صيانتهم من عند أنفسهم .

ونقول : هذا لا يصح؛ لأن الذي يُقنِّن ويضع للناس ما يصونهم ينبغي أن تتوفر فيه شروط : أولها : أن يكون على علم محيط لا يستدرك عليه ، وأنت أيها الإنسان عِلْمك محدود كثيراً ما تستدرك أنت عليه بعد حين ، ويتبين لك عدم مناسبته وعدم صلاحيته .

بل وتبين أنت بنفسك فساد رأيك فترجع عنه إلى غيره ، كما يجب على مَنْ يشرِّع للناس الهوى الوحد أن يكونوا جميعاً بالنسبة له سواء ، وألا ينتفع هو بما يشرِّع ، وإلا لو كانت له منفعة فإنه سوف يميل إلى ما ينفعه ، فلا يكون موضوعياً كما رأينا في الشيوعية وفي الرأسمالية وغيرها من المذاهب البشرية .

والحق – سبحانه وتعالى – هو وحده الذي لا يُستْدرك عليه؛ لأن علمه محيط بكل شيء لا تخْفى عليه خافية ، والخَلْق جميعاً الذين يشرع لهم أمامه سواء ، وكلهم عباده ، لا يحابي منهم أحداً ، ولا يميز أحداً على أحد ، وليس له سبحانه من خَلْقه صاحبة ولا ولد .

لذلك يطمئننا سبحانه بقوله : { وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً } [الجن : 3] .

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا ، فربّكم ليس له صاحبة تُؤثّر عليه ، ولا ولد يُحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف ، وسبب الميْل في مسألة التشريع .

وكذلك هو سبحانه لا ينتفع بما يُشرِّعه لنا ، لأنه سبحانه خلقنا بقدرته ، وهو الغني عنَّا لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصي ، إذن : فهو سبحانه وحده المستكمل لشروط التشريع ، والمستحق لها سبحانه ، وبيان الهوى الواحد الذي يجتمع عليه كل الخَلْق .

وسبق أن ذكرنا في مسألة التشريع أنه لا ينبغي أن تنظر إلى ما أُخِذ منك ، بل قارن بين ما أخذتَ وما أعطيتَ ، فالذي منعك أنْ تعتدي على الآخرين وأنت فرد واحد منع الخَلْق جميعاً أنْ يعتدوا عليك ، فالتشريع إذن في صالحك أنت .

إذن : لو عقلنا لأخذنا هوانا الواحد من إله واحد هو الله – عز وجل – لكن الخيبة أنهم ما استمعوا هذا الكلام وما عقلوه .

{ بَلِ اتبع الذين ظلموا أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . } [الروم : 29] ظلموا لأنهم عزلوا الهوى الواحد ، ونَحَّوه جانباً ، وأخذوا أهواءً شتى تعارضتْ وتضاربت ، فلم يصلوا منها إلى نتيجة .

وما ظلموا بالشرك إلا أنفسهم ، والله تعالى يقول : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13]

ظلموا أنفسهم حينما أعطوها شهوة عاجلة ولذة فانية ، وغفلوا عن عاقبة ذلك ، فهم إما كارهون لأنفسهم ، أو يحبونها حباً أحمق ، وهذه آفة الهوى حينما يسبق العقل ويتحكم فيه .

وقوله تعالى : { بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . } [الروم : 29] أولاً : ما هو العلم؟ في الكون قضايا نجزم بها ، فإنْ كان ما نجزم به مطابقاً للواقع ونستطيع أن ندلل عليه – كما نُعلِّم مثلاً الولد الصغير : الله أحد ، فإن استطاع أن يدلل عليها فهي عِلْم ، وإنْ لم يستطع فهي تقليد .

وكمن يقول مثلاً : الأرض كروية وهي فعلاً كذلك ، أما مَنْ يكابر حتى الآن ويقول ليست كروية ، والواقع أنها كروية ، فهذا جهل .

إذن : نقول ليس الجهل ألاَّ تعلم ، إنما الجهل أنْ تعلم قضية على خلاف الواقع؛ لذلك نُفرِّق بين الجاهل والأمي : الأمي خالي الذِّهْن ليست لديه قضية من أساسه ، فإنْ أخبرته بقضية أخذها منك دون عناد ، ودون مكابرة أمّا الجاهل فعنده قضية خاطئة معاندة ، فيحتاج منك أولاً لأنْ تُخرِج القضية الفاسدة لتُلقِي إليه بالقضية الصحيحة .

فإنْ كانت القضية لا تصل إلى مرتبة أنْ نجزم بها ، فتنظر : إنْ تساوي الإثبات فيها مع النفي فهي الشك ، إذن : فالشكُّ قضية غير مجزوم بها يستوي فيها الإثبات والنفي ، فإنْ غلَّبْتَ جانب الإثبات ورجَّحته فهو ظن ، أما إنْ غلَّبت جانب النفي فهو وهم .

فعندنا – إذن – من أنواع القضايا : علم ، وجهل وتقليد ، وظن ، ووَهْم .

فالحق سبحانه يريد الهوى الذي تخدمه حركة حياتنا هوى عن علم وعن قضية مجزوم بها ، مطابقة للواقع ، وعليها دليل ، لكن ما دام هؤلاء قد اتبعوا أهواءهم المتفرقة ، وأخذوها بدون أصولها من العلم ، فسوف أكمل لهم ما أرادوا وأعينهم على ما أحبُّوا { فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ الله . . . } [الروم : 29] فقد ألغواْ عقولهم وعطَّلوها وعشقوا الكفر بعد ما سُقْنا لهم الأدلة والبراهين .

إذن : لم يَبْقَ إلا أنْ أعينكم على ما تعتقدون ، وأنْ أساعدكم عليه ، فأختم على قلوبكم ، فلا يدخلها إيمان ولا يفارقها كفر ، لأنني رب أعين عبدي على ما يريد . وهكذا يُضل الله هؤلاء ، بمعنى : يعينهم على ما هم عليه من الضلال بعد أنْ عَشِقَوه ، كما قال سبحانه : { خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ } [البقرة : 7] .

لذلك نحذر الذين يصابون بمصيبة ، ثم لا يَسْلُون ، ولا ينسون ، ويلازمون الحزن ، نحذرهم ونقول لهم : لا تدعوا باب الحزن مفتوحاً ، وأغلقوه بمسامير الرضا ، وإلا تتابعتْ عليكم الأحزان؛ لأن الله تعالى رب يُعين عبده على ما يحب ، حتى الساخط على قدره تعالى .

فالمعنى { فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ الله . . . } [الروم : 29] يعني : مَنْ ينقذه؟ ومَنْ يضع له قانون صيانته إنْ تخلَّى عنه ربه وتركه يفعل ما بدا له؟ لا أحد . وأنت إذا نصحتَ صاحبك وكررتَ له النصْح فلم يُطعْك تتخلى عنه ، بل إن أحد الحكماء يقول : انصح صاحبك من

الصبح إلى الظهر ، ومن الظهر إلى العصر ، فإنْ لم يطاوعك ضلّله – أو أكمل له بقية النهار غِشّاً .

وسبق أن تحدثنا عن الطريقة الصحيحة في بحث القضايا لتصل إلى الحكم الصائب فيها ، فلا تدخل إلى العلم بهوى سابق ، بل أخرج كل ما في قلبك يؤيد هذه القضية أو يعارضها ، ثم ابحث القضية بموضوعية ، فما تقتنع به الموازين العقلية وتُرجِّحه أدخله إلى قلبك .

والذي يُتعب الناس الآن أن نناقش قضية الإسلام مثلاً وفي القلب مَيْل للشيوعية مثلاً ، فننتهي إلى نتيجة غير سليمة .

ثم يقول سبحانه : { وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } [الروم : 29] يعني : يا ليت لهم مَنْ ينقذهم إنْ أضلَّهم الله فختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، فليس لهم من الله نصير ينصرهم ، ولا مجير يجيرهم من الله ، وهو سبحانه يجير ولا يُجَار عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ . . . } .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)

الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، ما دام الأمر كذلك ، وما داموا قد اتبعوا أهواءهم وضلوا ، وأصروا على ضلالهم ، فدَعْك منهم ولا تتأثر بإعراضهم .

كما قال له ربه : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 3] وقال له : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهذا الحديث أَسَفاً } [الكهف : 6] .

فما عليك يا محمد إلا البلاغ ، واتركهم لي ، وإياك أن يؤثر فيك عنادهم ، أو يحزنك أن يأتمروا بك ، أو يكيدوا لك ، فقد سبق القول مني أنهم لن ينتصروا عليك ، بل ستنتصر عليهم .

وهذه قضية قرآنية أقولها ، وتُسجَّل عليّ : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 171–173] .

{ وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ . . . } [الحج : 40] .

{ إِن تَنصُرُواْ الله يَنصُرْكُمْ . . . } [محمد : 7] .

هذه قضية قرآنية مُسلَّم بها ومفروغ منها ، وهي على ألسنتنا وفي قلوبنا ، فإنْ جاء واقعنا مخالفاً لهذه القضية ، فقد سبق أنْ أكدها واقع الأمم السابقة ، وسيحدث معك مثل ذلك؛ لذلك يُطمئن الحق نبيه صلى الله عليه وسلم : { فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [غافر : 77] .

فهنا { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً . . . } [الروم : 30] أي : دعْكَ من هؤلاء الضالين ، وتفرَّغ لمهمتك في الدعوة إلى الله ، وإياك أنْ يشغلوك عن دعوتك .

ومعنى إقامة الوجه للدين يعني : اجعل وجهْتك لربك وحده ، ولا تلتفت عنه يميناً ولا شمالاً ، وذكر الوجه خاصة وهو يعني الذات كلها؛ لأن الوجه سِمة الإقبال .

ومنه قوله سبحانه : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . } [القصص : 88] يعني : ذاته تعالى .

ومعنى { حَنِيفاً . . . } [الروم : 30] هذه الكلمة من الكلمات التي أثارت تذبذباً عند الذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله؛ لأن معنى الحنيف : مائل الساقين فترى في رِجلْه انحناء للداخل ، يقال : في قدمه حنف أي ميل ، فالمعنى : فأقم وجهك للدين مائلاً ، نعم هكذا المعنى ، لكن مائلاً عن أيّ شيء؟

لا بُدَّ أن تفهم المعنى هنا ، حتى لا تتهم أسلوب القرآن ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليصلح مجتمعاً فاسداً منحرفاً يدين بالشرك والوثنية ، فالمعنى : مائلاً عن هذا الفساد ، ومائلاً عن هذا الشرك ، وهذه الوثنية التي جئت لهدمها والقضاء عليها ، ومعنى : مال عن الباطل . يعني : ذهب إلى الحق .

و (أَقِمْ) هنا بمعنى : أقيموا ، لأن خطاب الرسول خطاب لأمته ، بدليل أنه سبحانه سيقول في الآية بعدها : { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ . . . } [الروم : 31] ولو كان الأمر له وحده لَقالَ منيباً إليه ، ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى : { يأيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ . . . } [الطلاق : 1] .

فالخطاب للأمة كلها في شخص رسول الله؛ لأنه صلى الله عليه وسلم هو المبلّغ ، والمبلّغ هو الذي يتلقى الأمر ، ويقتنع به أولاً ليستطيع أنْ يُبلّغه؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . . . } [الأحزاب : 21] .

وقال { حَنِيفاً . . . } [الروم : 30] لأن الرسل لا تأتي إلا على فساد شمل الناس جميعاً؛ لأن الحق سبحانه كما خلق في الجسم مناعة مادية خلق فيه مناعة قيمية ، فالإنسان تُحدّثه نفسه بشهوة وتغلبه عليها ، فيقع فيها ، لكن ساعة ينتهي منها يندم عليها ويُؤنّبه ضميره ، فيبكي على ما كان منه ، وربما يكره من أعانه على المعصية .

وهذه هي النفس اللوامة ، وهي علامة وجود الخير في الإنسان ، وهذه هي المناعة الذاتية التي تصدر من الذات .

وفَرْق بين مَنْ تنزل عليه المعصية وتعترض طريقه ، ومَنْ يُرتّب لها ويسعى إليها ، وهذا بيّن في قوله تعالى : { إِنَّمَا التوبة عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السواء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ . . . } [النساء : 17] .

فَرْق بين مَنْ يذهب إلى باريس لطلب العلم ، فتعترض طريقه إحدى الفتيات ، ومَنْ يذهب إلى

باريس لأنه سمع عما فيها من إغراء ، فهذا وقع في المعصية رغماً عنه ، ودون ترتيب لها ، وهذا قصدها وسعى إليها ، الأول غالباً ما يُؤنِّب نفسه وتتحرك بداخله النفس اللوامة والمناعة الذاتية ، أما الآخر فقد أَلِفَتْ نفسه المعصية واستشرتْ فيها ، فلا بُدَّ أن تكون له مناعة ، ليست من ذاته ، بل من المجتمع المحيط به ، على المجتمع أن يمنعه ، وأن يضرب على يديه .

والمناعة في المجتمع لا تعني أن يكون مجتمعاً مثالياً لا يعرف المعصية ، بل تحدث منه المعاصي ، لكنها مُفرّقة على أهواء الناس ، فهذا يميل إلى السرقة ، وهذا يميل إلى النظر إلى المحرمات ، وهذا يحب كذا . . إلخ .

إذن : ففي الناس مواطن القوة ، ومواطن ضعف ، وعلى القوي في شيء أن يمنع الضعيف فيه ، وأنْ يزجره ويُقومّه؛ لذلك يقول تعالى : { والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر } [العصر : 1-3] .

فإذا عَمَّ الفساد وطَمَّ كما قال تعالى عن اليهود : { كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ . . . } [المائدة : 79] وفقد المجتمع أيضاً مناعته . فلا بُدَّ أنْ تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، لينقذ هؤلاء .

ثم يقول تعالى : { فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا . . . } [الروم : 30] فنحن نرى البشر يتخذون الطعوم والأمصال للتحصين من الأمراض ، كذلك الحق سبحانه – وله المثل الأعلى – جعل هذا المصل التطعيمي في كل نفس بشرية ، حتى في التكوين المادي .

ألا ترى قوله تعالى في تكوين الإنسان : { ياأيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ . . . } [الحج : 5] .

فالمخلَّقة هي التي تكوّن الأعضاء ، وغير المُخلَّقة هي الرصيد المختزن في الجسم ، وبه يعوَّض أيّ خلل في الأعضاء المخلَّقة ، فهي التي تمده بما يصلحه ، كذلك في القيم جاء دين الله فطرت الله التي فطر الناس عليها ، فإذا تدخلتْ الأهواء وحدثتْ الغفلة جاءتْ المناعة ، إما من ذات النفس ، وإما من المجتمع ، وإما برسول ومنهج جديد .

وقد كرَّم الله أمة محمد بأن يكون رسولُها خاتَم الرسل ، فهذه بُشْرى لنا بأن الخير باقٍ فينا ، ولا يزال في يوم القيامة ، ولن يفسد مجتمع المسلمين أبداً بحيث يفقد كله هذه المناعة ، فإذا فسدتْ فيه طائفة وجدت أخرى تُقوّمها ، وهذا واضح في قول النبي صلى الله عليه وسلم .

« لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة » .

وإلا لو عَمَّ الفساد هذه الأمة لاقتضى الأمر شيئاً آخر .

وحين نقرأ الآية نجد أن كلمة { فِطْرَتَ . . . } [الروم : 30] منصوبة ، ولم يتقدم عليها ما ينصبها ، فلماذا نُصِبَتْ؟ الأسلوب هنا يريد أن يلفتك لسبب النصب ، وللفعل المحذوف هنا ، لتبحث عنه بنفسك ، فكأنه قال : فأقم وجهك للدين حنيفاً والزم فطرت الله التي فطر الناس عليها .

لذلك يسمي علماء النحو هذا الأسلوب أسلوب الإغراء ، وهو أن أغريك بأمر محبوب وأحثَّك على فِعْله ، كذلك الحق سبحانه يغري رسوله صلى الله عليه وسلم بأنْ يُقيم وجهه نحو الدين الخالص ، وأنْ يلزم فطرت الله ، وألا يلتفت إلى هؤلاء المفسدين ، أو المعوِّقين له .

والفطرة : يعني الخلقة كما قال سبحانه : { فَاطِرَ السماوات والأرض . . . } [يوسف : 101] يعني : خالقهما ، والفطرة المرادة هنا قوله تعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات : 56] .

فالزم هذه الفطرة ، واعلم أنك مخلوق للعبادة .

أو : أن فطرت الله تعني : الطبيعة التي أودعها الله في تكوينك منذ خلق اللهُ آدم ، وخلق منه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى . . . } [الأعراف : 172] .

وسبق أنْ بيَّنا كيف أن في كل منا ذرة حية من أبينا آدم باقية في كل واحد منا ، فالإنسان لا ينشأ إلا من الميكروب الذكري الحي الذي يُخصِّب البويضة ، وحين تسلسل هذه العملية لا بُدَّ أن تصل بها إلى آدم عليه السلام .

وهذه الذرة الباقية في كل منا هي التي شهدتْ العهد الأول الذي أخذه الله علينا ، وإلا فالكفار في الجاهلية الذين جاء رسول الله لهدايتهم ، كيف اعترفوا لله تعالى بالخلق : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله . . . } [الزمر : 38] .

من أين عرفوا هذه الحقيقة؟ نُقِلت إليهم من هذا العهد الأول ، فمنذ هذا العهد لم يجرؤ أحد من خَلْق الله أنْ يدَّعي هذا الخَلْق لنفسه ، فظلت هذه القضية سليمة في الأذهان مع ما حدث من فساد في معتقدات البشر .

وتظل هذه القضية قائمة بالبقية الباقية من هذا العهد الأول ، حتى عند الكفار والملاحدة ، فحين تكتنفهم الأحداث وتضيق بهم أسبابهم ، تراهم يقولون وبلا شعور : يا رب ، لا يدْعون صنماً ولا شجراً ، ولا يذهبون إلى آلهتهم التي اصطنعوها ، فهم يعلمون أنها كذب في كذب ، ونصب في نصب .

والآن لا يخدعون أنفسهم ولا يكذبون عليها ، الآن وفي وقت الشدة وحلول الكرب ليس إلا الله يلجئون إليه ، ليس إلا الحق والفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها .

وما دام الله قد فطرنا على هذه الفطرة ، فلا تبديل لما أراده سبحانه : { ذَلِكَ الدين القيم . . . } [الروم : 30] أي : الدين الحق { ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [الروم : 30] أي :

لا يعلمون العلم على حقيقته والتي بيَّناها أنها الجزم بقضية مطابقة للواقع ، ويمكن إقامة الدليل عليها .

ثم يقول الحق سبحانه : { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ واتقوه . . . } .

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31)

أناب : يعني رجع وقطع صلته بغير الحق { إِلَيْهِ . . . } [الروم : 31] إلى الله ، فلا علاقة له بالخَلْق في مسألة العقائد ، فجعل كل علاقته بالله .

ومنه يسمون الناب؛ لأنه يقطع الأشياء ، ويقولون : ناب إلى الرشد ، وثاب إلى رشده ، كلها بمعنى : رجع ، وما دام هناك رجوع فهناك أصل يُرجع إليه ، وهو أصل الفطرة .

وقوله تعالى { واتقوه . . . } [الروم : 31] لأنه لا يجوز أنْ تنيب إلى الله ، وأن ترجع إليه ، وأن تجعله في بالك ثم تنصرف عن منهجه الذي شرَّعه لينظم حركة حياتك ، فالإنابة وحدها والإيمان بالله لا يكفيان؛ بل لا بُدَّ من تطبيق المنهج بتقوى الله ، لذلك كثيراً ما يجمع القرآن بين الإيمان والعمل الصالح : { إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . } [الشعراء : 227] .

لأن فائدة الإيمان وثمرته بعد أن تؤمن بالإله الحق ، وأن منهجه هو الصدق ، وفيه نفعك وسلامتك في حركة حياتك ، وأنه الذي يُوصلِّك إلى سعادة الدارين ، ولا معنى لهذا كله إلا بالعمل والتطبيق .

{ واتقوه . . . } [الروم : 31] أي : اتقوا غضبه ، واجعلوا بينكم وبين غضب الله وقاية ، وهذه الوقاية تتحقق باتباع المنهج في افعل ولا تفعل . وسبق أن تكلمنا في معنى التقوى وكلنا : إنها تحمل معنيين يظن البعض أنهما متضاربان حين نقول : اتقوا الله . واتقوا النار . لكن المعنى واحد في النهاية؛ لأن معنى اتق الله : اجعل بينك وبين عذاب الله وغضبه وقاية ، وهذا نفسه معنى : اتق النار . يعني : ابتعد عن اسبابها حتى لا تمسَّك .

وقوله تعالى : { وَأَقِيمُواْ الصلاة . . . } [الروم : 31] أقيموا الصلاة أدُّوها على الوجه الأكمل ، وأدُّوها على ما أُحبُّ منكم في أدائها ، فساعة أناديك : الله أكبر يجب أن تقبل عليَّ ، وأنت حين تُلبِّي النداء لا تأتي لتعينني على شيء ، ولا أنتفع بك في شيء ، إنما تنتفع أنت بهذا اللقاء ، وتستمد مني العون والقوة ، وتأخذ شحنة إيمان ويقين من ربك .

وقلنا : ما تصورك لآلة تُعرَض على صانعها كل يوم خمس مرات أيبقى بها عَطَب؟ لذلك يُعلِّمنا نبينا صلى الله عليه وسلم أنه إذا حزبنا أمر أن نهرع إلى الصلاة ، وكذلك كان يفعل صلى الله عليه وسلم إذا عزَّ عليه شيء ، أو ضاقت به الأسباب ، وإلا فما معنى الإيمان بالله إنْ لم تلجأ إليه .

وما دام ربك غيباً ، فهو سبحانه يُصلحك بالغيب أيضاً ، ومن حيث لا تدري؛ لذلك أمرنا ربنا

بإقامة الصلاة ، وجعلها عماد الدين والركْن الذي لا يسقط عنك بحال ، فالزكاة والحج مثلاً يسقطان عن الفقير وعن غير القادر ، والصوم يسقط عن المريض أو المسافر ، في حين مرضه أو سفره ، ثم يقضيه بعد انقضاء سبب الإفطار .

أما الصلاة فهي الركْن الدائم ، ليس مرة واحدة في العمر ، ولا مرة واحدة في العام ، إنما خمس مرات في اليوم والليلة ، فبها يكون إعلان الولاء لله تعالى إعلاناً دائماً ، وهذا إنْ دلَّ فإنما يدل على عظمة الإنسان ومكانته عند ربه وخالقه .

وسبق أن قلنا : إنك إنْ أردتَ مقابلة أحد المسئولين أو أصحاب المنزلة كم تعاني ليُؤذَن لك ، ولا بُدَّ أن يُحدِّد لك الموعد والمكان ، بل وموضوع المقابلة وما ستقوله فيها ، ثم لصاحب المقابلة أنْ يُنهيها متى يشاء .

إذن : لا تملك من عناصر هذا اللقاء شيئاً؟ أما في لقائك بربك – عز وجل – فالأمر على خلاف ذلك ، فربُّك هو الذي يطلبك ويناديك لتُقبل عليه ، لا مرة واحدة بل خمس مرات كل يوم ، ويسمح لك أنْ تناجيه بما تحب ، وتطلب منه ما تريد .

ولك أن تنهي أنت المقابلة بقولك : السلام عليكم ، فإنْ أحببتَ أن تطيل اللقاء ، أو أنْ تعتكف في بيت ربك فإنه سبحانه لا يملُّ حتى تملُّوا ، فهذه – إذن – ليست عبودية ، بل عزٌّ وسيادة .

وما أجملَ ما قاله الشاعر في هذا المعنى :

حَسْبُ نَفْسِي عِزّاً بأنِّي عَبْدٌ ... يحتَفِي بي بلاَ مَواعِيدَ رَبُّ

هُوَ في قُدْسِهِ الأعَزّ ولكِنْ ... أنَا أَلْقى متَى وأيْنَ أُحِبّ

ولأن للصلاة هذه المنزلة بين أركان الإسلام لم تُفرض بالوحي كباقي الأركان ، إنما فُرِضَتْ مباشرة من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ، حين استدعاه ربه للقائه في السماء في رحلة المعراج .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك – ولله تعالى المثل الأعلى – برئيس العمل الذي يُلقي أوامره بالتليفون ، أو بتأشيره على ورقة ، فإنْ تعرَّض لأمر هام استدعى الموظف المختص إلى مكتبه ، وأعطاه الأمر مباشرة لأهميته ، كذلك كانت الصلاة ، وكذلك فُرِضَتْ على سيدنا رسول الله بالتكليف المباشر .

ثم يقول سبحانه : { وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين } [الروم : 31] وهنا وقفة : فكيف بعد الإنابة إلى الله والتقوى ، وبعد الأمر بإقامة الصلاة يقول { وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين } [الروم : 31] ؟ وأين الشرك ممَّنْ يُؤدِّي التعاليم على هذا الوجه؟ قالوا : الشرك المنهيّ عنه هنا ليس الإشراك مع الله إلهاً آخر ، إنما أشركوا مع الله نية أخرى ، فالإشراك هنا بمعنى الرياء ، والنظر إلى الناس لا إلى الله .

لذلك يقولون : العمل من أجل الناس رياء ، وترْك العمل من أجل الناس شرك ، فالذي يصلي أو يبني لله مسجداً للشهرة ، وليحمده الناس فهو مُراءٍ ، وهو خائب خاسر؛ لأن الناس انتفعوا بعمله ولم يُحصِّل هو من عمله شيئاً .

أما مَنْ يترك العمل خوفاً من الوقوع في الرياء ، فيمتنع عن الزكاة مثلاً ، خَوْفَ أن يُتَّهم بالرياء ، فهو والعياذ بالله مشرك ، لأن الناس ينتفعون بالعمل حتى وإنْ كان رياءً ، لكن إنِ امتنعتَ عن العمل فلا ينتفع الناس منك بشيء .

فالمعنى : { وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين } [الروم : 31] أي : الشرك الخفي وهو الرياء؛ لذلك رأينا سيدنا رسول الله وهو الأسوة للأمة الإيمانية يدعو ربه ويقول

« اللهم إنِّي أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك » .

فالعمل الإيماني ما كان لله خالصاً ، وعلى قَدْر الإخلاص يكون الجزاء ، فمن الناس مَنْ يفعل الصلاح فيوافق شيئاً في نفسه ، كأن يساعده على استقامة الحياة أو على التوفير في النفقات أو غير ذلك؛ فيستمر عليه ، لا لله إنما لمصلحته هو .

وفي هؤلاء يقول تعالى : { وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ خَسِرَ الدنيا والأخرة ذلك هُوَ الخسران المبين } [الحج : 11] .

وكالتاجر الذي يلتزم الصدق في تجارته ، لا حباً في الصدق ذاته ، إنما طمعاً في الشهرة والصِّيت وكَسْب المزيد من الزبائن ، ومثل هؤلاء ينالون من الدنيا على قَدْر سعيهم لها ، ولا يحرمهم اللهُ ثمرةَ مجهوداتهم ، كما قال سبحانه : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] .

فما أشبه الناس في نياتهم من الأعمال بركْب يقصدون وجهة واحدة ، لكن لكل منهم غاية يسعى إليها ، فهذا يسعى للطعام أو أكلة شهية ، وهذا يسعى لامرأة جميلة ، وهذا يسعى لدرْس علم ينتفع به ، وآخر يسعى لرؤية مَنْ يحب ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

قَصَدْتُ بالرَكْبِ مَنْ أَهْوى وقُلْتُ لَهُم ... هَيّا كُلوا وخُذُوا ما حَظكم فِيهِ

لكِنْ دَعُوني أُلاَقِي مَنْ أؤملُهُ ... عَيْني تَرَاهُ وَوُجْدَاني يُنَاجِيهِ

كذلك الحق – تبارك وتعالى – يريد من عبده أنْ يقصده لذَاته ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، وفَرْق بين أن تنعم بنعمة الله ، وأن تنعم بالنظر إلى الله ، فأنت في الجنة تأكل ، لا عن جوع ولا عن حاجة ، إنما لمجرد التنعُّم .

لذلك يقول سبحانه عن الشهداء : { وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } [آل عمران : 169] فتكفيهم هذه العندية ، وأنْ ينظروا إلى الله سبحانه وتعالى

.

لذلك تقول رابعة العدوية : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّي أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها ، وإنْ كنتَ تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فأدخِلني فيها ، لكني أعبدك لأنك أحقُّ أنْ تُعبدَ .

ولا شكَّ أن القليل من الناس يخلصون النية لله ، وأن الغالبية يعملون العمل كما اتفق على أية نية ، لا تعنيهم هذه المسألة ، ولا يهتمون بها ، كما قال سبحانه : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ } [يوسف : 106] .

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

فرَّقوا دينهم كالرِّكْب الذين اختلفتْ وجهاتهم ونياتهم { وَكَانُواْ شِيَعاً . . . } [الروم : 32] جمع شيعة ، وهم الجماعة المتعاونة على أمر من الأمور ، خيراً كان أو شراً ، خيراً مثل قوله تعالى : { وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ } [الصافات : 83] .

أو شراً مثل : { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرض وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً . . . } [القصص : 4] .

وفي آية أخرى : { قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ . . . } [الأنعام : 65] .

وقوله تعالى : { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [الروم : 32] لما لهم من سلطة زمنية ، ولما لهم من مكانة يخافون أنْ تهتز كالسلطة الزمنية التي منعتْ يهود المدينة من الإيمان برسول الله ، مع أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويعرفون زمانه ، وكانوا يقيمون بالمدينة ينتظرون ظهوره ، وكل ذلك عندهم في التوراة ، حتى إنهم كانوا يصطدمون بعبدة الأصنام ، فيقولون لهم . لقد أطلَّ زمن نبي يظهر آخر الزمان سنتبعه ، ونقتلكم به قتْل عاد وإرم .

{ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ . . . } [البقرة : 89] .

لماذا؟ حفاظاً على سلطتهم الزمنية ، وقد كانوا أهل علم وغِنىً ومكانة ، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم ألغى هذه السلطة ، فلا كلام بعد كلامه صلى الله عليه وسلم ، أما مَنْ ثبت منهم على دينه الحق ، وعمل بما في التوراة فقد آمن بمحمد كعبد الله بن سلام وغيره من أحبار اليهود .

فالسلطة الزمنية هي التي حالتْ بين الناس وبين الحق الذي يؤمنون به ، وهذه السلطة الزمنية هي التي نراها الآن في هذه الفِرَق والأحزاب التي يدَّعي كل منها أنها على الحق وما سواها على الباطل .

يقول تعالى : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض وَمَن فِيهِنَّ . . . } [المؤمنون : 71] .

فكل منهم يناطح الآخرين ليعلي مذهبه ، ويظهر هو على الساحة .

بعد ذلك يُبيّن لنا الحق سبحانه أن الذين يكفرون بالله ، أو يتمردون على منهج الله يظلون هكذا أسْرى هذه السلطة الزمنية ، فإذا أصابتهم هزة أو بلاء لا تقوى أسبابهم على دفعه لم يجدوا ملجأ إلا الله ، فقال سبحانه : { وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ . . . } .

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33)

الضر : هو الشيء الذي نتضرر منه ، ولا تستطيبه النفس ، فإنْ أصابهم الضر وأسبابهم لا تفي بالخلاص منه { دَعَوْاْ رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ . . . } [الروم : 33] أي : رجعوا إليه سبحانه ، والآن علموا أن لهم رباً يلجئون إليه ، وهذا يُذكِّرنا بما قاله العرب عندما فتر الوحي عن رسول الله ، فسرَّهم ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قلاه . سبحان الله الآن عرفتم أن لمحمد رباً .

وقلنا : إن ساعة الضيق والمحنة لا يَكْذب الإنسان نفسه ولا يخدعها ، وسبق أنْ ذكرنا قصة حلاق الصحة الذي كان يحلّ محلّ الطبيب الآن ، فلما أنشئت كليات للطب وخرَّجت أطباء ، وذهب أحدهم إلى قرية الحلاق ، فأخذ الحلاق يهاجمه ويدَّعي أنه حديث لا خبرةَ له ، فلما مرض ابنه وأحسَّ بالخطر أخذه خُفْية في ظلام الليل ، وذهب به إلى الطبيب ، لماذا؟ لأنه لن يغشَّ نفسه في هذه اللحظة .

{ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [الروم : 33] أي : يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله .

وحين نتأمل هذه المسألة نجد أن القرآن عرضها مرة بصيغة الإفراد ، فقال : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً . . . . } [الزمر : 8] .

وقال : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . } [يونس : 12] .

لكن الكلام عن الإنسان المفرد لا يكفي لإثبات الظاهرة؛ لأن الإنسان الواحد يمكن أن يستذل أمام ربه ، ويعود إليه بعد أنْ تجرَّأ على معصيته ، يكون ذلك بينه وبين نفسه ، فلا يفضح نفسه أمام الناس ، فأراد سبحانه أنْ يثبت هذه المسألة عند الناس جميعاً؛ ليفضح بعضهم بعضاً ، فذكر هنا { وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ . . . } [الروم : 33] .

وفي آية أخرى : { فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت : 65] .

فجاء بصيغة الجمع ليفضح الكافرين بعضهم أمام بعض ، وقد يكون في هؤلاء الداعين مَنْ كان يُؤلّبهم على الله ، ويصرفهم عن الإيمان به ، وها هو الآن يدعو ويتضرع ، وحين يُفتضح أمرهم يكون ذلك أَدْعى لاستقامتهم وأدعى ألاَّ يتكبر أحد على أحد .

لذلك قلنا في ميزات الصلاة أنها تُسوِّي بين الناس ، فيجلس الرجل العادي بجوار مَنْ لم يكُن يُؤْمَل أنْ يجلس بجواره ، ويجده خاضعاً معه مطاوعاً للإمام . . الخ ففي الصلاة ، الجميع سواء ، والجميع منتفع بهذه المساواة ، آخذ منها عبرة ، فلا يتكبر بعدها أحد على أحد .

ونقف هنا عند { مَسَّ . . . } [الروم : 33] وهو اللمس الخفيف ، فالمعنى مسَّهم اليسير من الضر ، ومع ذلك ضاقتْ أسبابهم عن دفعه ، وضَجُّوا يطلبون الغَوْث .

وكلمة { أَذَاقَهُمْ . . . } [الروم : 33] الذوق حاسة من حواس الإنسان يُحِسُّ بها الطعام عند مروره على منطقة معينة في اللسان ، فإذا ما تجاوز الطعامُ هذه المنطقةَ لا يشعر الإنسان بطعمه .

إذن : فَلذَّة الطعام مقصورة على هذه المنطقة في الفم ، والتذوق أقوى انفعالات النفس في استقبال المذاق؛ لذلك يقولون في الأمثال (اللي يفوت من اللسان بقي نتان) .

وتأمل ، كيف استعمل الحق سبحانه الإذاقةَ في مجال العذاب حين ضرب لنا هذا المثل : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } [النحل : 112] .

فذكر الإذاقة مع أن اللباسَ يستوعب الجسم كله ، وكذلك الجوع والخوف ، فكل منهما إحساس يستولي على الإنسان كله ، ومع ذلك قال { فَأَذَاقَهَا . . . } [النحل : 112] لأن الإذاقة أقوى أنواع الإدراك .

وكلمة { مِّنْهُ . . . } [الروم : 33] أي : من الله تعالى ، يعني بلا أسباب ، أو { أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ . . . } [الروم : 33] أي : بدَّل الضر برحمة ، وخلَّصهم من الضُّرِّ برحمة ، كما أن الإذاقة وإنْ دلَّتْ على الانفعال الشديد للمستقبل ، فإنها أيضاً تدلُّ على التناول الخفيف بلُطْف ، كما تقول : ذُقْتُ الطعام . أو تقول : والله ما ذُقْتُ لفلان طعاماً يعني : ما أكلتُ عنده من باب أَو أَوْلى .

لذلك الحق سبحانه وتعالى عبر عن الرحمة هنا بالإذاقة؛ لأن رحمة الدنيا لا تستوعب كل رحمة الله ، فالقليل منها في الدنيا ، وجُلُّها في الآخرة .

ونلحظ في قوله تعالى : { إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [الروم : 33] ، أما في الآية الأخرى : { فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت : 65] .

فلماذا قال في الأولى { إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ . . . } [الروم : 33] وفي الأخرى : { إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت : 65] فلم يستثْنِ منهم أحداً؟

قالوا : لأن الآية الأولى تتكلم عن الذين دَعَوا الله في البَرِّ ، والناس في البر عادة ما يكونون مختلفين ، فيهم الصالح والطالح ، والمطيع والعاصي ، فهم مختلفون في رَدِّ الفعل ، فالمؤمنون لما عَينوا النجاة ورحمة الله قالوا : الحمد الله الذي نجانا ، أما المشركون فعادوا إلى كُفْرهم وعنادهم .

أما الآية الأخرى فتتكلم عن الذين دَعَوا الله في البحر ، وعادة ما نرى الذين يركبون البحر على شاكلة واحدة ، وهم لا يركبونه كوسيلة للسفر ، إنما للترف ، كما نرى البعض يتخذ لنفسه يختاً مثلاً أو عوَّامة يجمع فيها أتباعه ومَنْ هم على شاكلته ، ولا بُدَّ أنهم يجتمعون على شيء يحبونه ، فهم على مذهب واحد ، وطريقة واحدة ، وسلوك واحد .

إذن : ما دام هؤلاء كانوا في البحر فلا بُدَّ أنهم كانوا مجرمين عتاة ، وكانوا سواسية في الشرك وفي التخلّي عن الله ، بمجرد أنْ أمِنوا الخطر ، لذلك استخدم الأسلوب هنا { إِذَا . . . } [الروم : 33] الفجائية واستخدمه في آية أخرى { إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت : 65] فبعد أنْ أنجاهم الله أسرعوا العودة إلى ما كانوا عليه من الشرك .

ففي هذه الآية الحق سبحانه يُبيِّن لنا حقيقة الإنسان ، ومدى حرصه على جَلْب الخير لنفسه ، فإنْ كان الخير الذي أعدَّه الله له يُبطره ويُطغيه كما قال سبحانه :

{ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6-7] .

فإنه لا مناصَ له من أنْ يرجع إلى ربه حين ينفض الله عنه كُلَّ أسباب الخير ، ويهدده في نفسه وفي ذاته التي لم تنتفع بآيات الله في الكون ، فتظل في حضانة الله ، فيأتي له بالضرُّ الذي ينفض عنه كلّ أسباب البطَر والأشرَ والاستعلاء .

ولكنه لا يسلم نفسه للضر الذي يهلكه ، بل عندها يتنبه أن له رباً يلجأ إليه ، ولا يجد مفزعاً في الكون إلا هو؛ لأنه يعلم جيداً أن الذين أخذوه من الله فآمن بهم وكفر بالله لن ينفعوه بشيء؛ لأنه عبد من دون الله آلهة لا تضر ولا تنفع .

لذلك يقول تعالى : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . . } [الإسراء : 67] فهؤلاء الذين تدعونهم لا يعرفون طريقكم ، وإنْ عرفوا لا يملكون أنْ يصلوا إليكم ، أما أنا فربكم الأعلم بكم ، والقادر على إغاثتكم ، وإنزال الرحمة بكم .

إذن : هؤلاء المشركون أشركوا بالله في وقت الرخاء ، أما في وقت الضيق والكرب فلن يخدع أحدهم نفسه ، ولن يغشَّها لن يقول : يا هُبَل . لأنه يعلم أن هُبَلَ لا يسمعه ولا يجيبه ، فلا ينفعه الآن ، ولا ينجيه إلا الإله الحق ، فقد ألجأتْه الضرورة أن يعترف به ويدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه : { لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ . . . } .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34)

يتبادر إلى الذهن أن اللام في { لِيَكْفُرُواْ . . . } [الروم : 34] لام التعليل ، أو لام السببية التي يكون ما بعدها سبباً لما قبلها ، كما تقول : ذاكر لتنجح ، وكذلك في الشرط والجواب : إنْ تذاكر تنجح فِعِلَّة المذاكرة النجاح .

فهل يستقيم المعنى هنا على هذا الفهم؟ وهل نجاهم الله وأذاقهم الرحمة ليكفروا به؟

نقول : ليس الشرط سبباً في مجيء الجواب كما يفهم السطحيون في اللغة ، بل الجواب هو السبب في الشرط ، لكنهم لم يُفرِّقوا بين سبب دافع وسبب واقع ، فالتلميذ يذاكر لأن النجاح ورد بباله ، وتراءتْ له آثاره الطيبة أولاً فدفعتْه للمذاكرة .

إذن : فالجواب سبب في الشرط أي : سبب دافع إليه ، فإذا أردتَ أن يكون واقعاً فقدِّم الشرط ليجيء الجواب .

وكما تقول : ركبتُ السيارة لأذهب إلى الأسكندرية ، فركوب السيارة ليس سبب ذهابك للاسكندرية ، لأنك أردْتَ أولاً الذهاب فركبتَ السيارة ، فلما ركبتها وصلتَ بالفعل . إذن : نقول : الشرط سبب للجواب دافعاً يدفع إليه ، والجواب سبب للشرط واقعاً .

فهنا نجّاهم الله من الكرب ، وأذاقهم رحمته لا ليكفروا به ، إنما ليُبيّن لهم أنه لا مفزعَ لهم إلا إليه ، فيتمسكون به سبحانه ، فيؤمن منهم الكافر ، ويزداد مؤمنهم إيماناً ، لكن جاء ردُّ الفعل منهم على خلاف ذلك ، لقد كفروا بالله؛ لذلك يسمون هذه اللام لام العاقبة أي : أن كفرهم عاقبة النجاة والرحمة .

ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – لو ضممتَ طفلاً مسكيناً إلى حضانتك وربَّيته أحسن تربية ، فلما شبَّ وكَبِر تنكّر لك ، واعتدى عليك ، فقلت للناس : ربَّيته ليعتدي عليَّ ، والمعنى : ربَّيته ليحترمني ويحبني ، لكن جاءت النتيجة والعاقبة خلاف ذلك ، وهذا يدل على فساد التقدير عند الفاعل الذي ربَّي ، وعلى لُؤْم وفساد طبع الذي رُبِّي .

فالأسلوب هنا { لِيَكْفُرُواْ . . . } [الروم : 34] يحمل معنى التقريع؛ لأن ما بعد لام العاقبة ليس هو العلة الحقيقية لما قبلها ، إنما العلة الحقيقية لما قبلها هو المقابل لما بعد اللام : أذاقهم الرحمة ، ونجاهم ليؤمنوا ، أو ليزدادوا إيماناً ، فما كان منهم إلا أنْ كفروا .

ولهذه المسألة نظائر كثيرة في القرآن ، كقوله تعالى في قصة موسى : { فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . . } [القصص : 8] .

ومعلوم أنهم التقطوه ليكون لهم قُرَّة عين ، ولو كانوا يعلمون هذه العاقبة لأغرقوه أو قتلوه كما قتلوا غيره من أطفال بني إسرائيل ، وكما يقولون في الأمثال (بيربي خنَّاقه) .

فهذا دليل على غفلة الملتقِط ، وعلى غبائه أيضاً ، فكيف وهو يُقتِّل الأولاد في هذا الوقت بالذات لا يشكّ في ولد جاء في تابوت مُلْقىً في البحر؟ أليس في هذا دلالة على أن أهله يريدون نجاته من القتل؟ لكن كما قال سبحانه : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ . . . } [الأنفال : 24] .

فأنت تُقتِّل في الأطفال لرؤيا أخبرك بها العرافون ، فسيأتي مَنْ تخاف منه إلى بابك ، وستأخذه وتُربِّيه في حضنك ، وسيكون زوال مُلْكك على يديه ، فلا تظن أنك تمكر على الله .

والقصة تدل على خيبة فرعون وخيبة العرافين ، فإذا كنتَ قد صدَّقْتَ العرافين فيما أخبروك به فما جدوى قَتْل الأطفال ، وأنت لن تدرك مَنْ سيكون زوال مُلْكك على يديه ولن تتمكن منه؟ فلماذا تحتاط إذن؟

لذلك يجب أن يكون تفكير البشر في إطار أن فوق البشر رباً ، والرب يكلف العدو بعدو له ليقضي عليه ، وهو سبحانه خير الماكرين ، والمكْر الحق أن يكون خُفْية بحيث لا يسشعر به الممكور به .

وقد وصل بنا الحال في القرن العشرين أن نقول : الصراحة مكْر القرن العشرين . يعني : مَنْ أراد أنْ يمكر فليقُل الحق وليكُنْ صريحاً؛ لأننا أصبحنا في زمن قلَّتْ فيه الصراحة وقول الحق ، لدرجة أنك حين تُحدِّث الناس بالحق يشكُّون فيك ، ويستبعدون أن يكون قولك هو الحق ، كالذي قال لجماعة يطلبونه ليقتلوه : أنا سأذهب إلى المكان الفلاني في الوقت الفلاني فقالوا : إنه يُضلِّلنا ويمكر بنا رغم أنه صادق فيما أخبرهم به .

وبعد أنْ تربَّى موسى – عليه السلام – في بيت فرعون ، ثم كلَّفه ربه بالرسالة ، وذهب إلى فرعون يدعوه إلى الله قال له : { أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ } [الشعراء : 18] .

نعم ربَّيتني وليداً ، لكن الذي ربّاني وربّاك هو الذي بعثني إليك ، فأنا أبرّ المربي الأعلى قبل أنْ أبرَّ بك ، وفي هذا إشارة إلى أن عناية الله هي الأصل في تربية مَنْ تحب ، فإياك أنْ تقول : ربَّيْتُ ولدي حتى صار كذا وكذا ، بل عليك بالأَخْذ بأسباب التربية ، وتترك المربِّي الأعلى هو الذي يُربِّي على الحقيقة .

وهذا المعنى فطن إليه الشاعر ، فقال :

إذَا لَمْ تُصَادِفْ في بَنِيكَ عنَايةً ... فَقَدْ كذَبَ الرَّاجي وخَابَ المؤملُ

فَمُوسَى الذي ربَّاه جِبْرِيلُ كَافرٌ ... ومُوسى الذي ربَّاهُ فِرْعَونُ مُرسَل

ثم يقول سبحانه : { فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الروم : 34] لأنه كفر ليتمتع بكفره في الدنيا؛ لأن للإيمان مطلوبات صعبة تشقُّ على النفس ، فيأمرك بالشيء الثقيل على نفسك ، وينهاك عن الشيء المحبب إليها ، أما الأصنام التي عبدوها من دون الله وغيرها من الآلهة فلا مطلوبَ لها ولا منهج .

لكنه متاع الحياة الدنيا ومتاع الدنيا قليل؛ لأن الدنيا بالنسبة لك مدة بقائك فيها فلا تقُلْ إنها ممتدة من آدم إلى قيام الساعة ، فهذا العمر الطويل لا يعنيك في شيء ، الذي يعنيك عمرك أنت .

ومهما كان عمر الإنسان في الدنيا فهو قصير وتمتُّعه بها قليل ، ثم إن هذا العمر القصير مظنون غير مُتيقن ، فربما داهمك الموت في أيّ لحظة ، ومَنْ مات قامت قيامته .

لذلك أبهم الحق – سبحانه وتعالى – الموت ، ونثر أزمانه في الخَلْق : فهذا يموت قبل أن يولد ، وهذا يموت طفلاً ، وهذا يموت شاباً .

. الخ وإبهام الموت سبباً وموعداً ومكاناً هو عَيْن البيان؛ لأنه أصبح شاخصاً أمام كل مِنَّا ينتظره في أيّ لحظة ، فيستعد له .

ونلحظ هنا أن الأسلوب القرآني عطف فعل الأمر { فَتَمَتَّعُواْ . . } [الروم : 34] على الفعل المضارع { لِيَكْفُرُواْ . . . } [الروم : 34] ، وفي موضع آخر قال سبحانه : { لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ . . . } [العنكبوت : 66] فجعل التمتُّع ليس خاضعاً لفعل الأمر ، إنما للعلة : ليكفروا وليتمتعوا .

لذلك اختلفوا حول هذه اللام . أهي للأمر أم للتعليل ، { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الروم : 34] جاءت بعد { فَتَمَتَّعُواْ . . . } [الروم : 34] وهذه جاءتْ معطوفة على { لِيَكْفُرُواْ . . . } [العنكبوت : 66] فكأنه قال : اكفروا وتمتعوا ، لكن ستعلمون عاقبة ذلك .

والذي جعلهم يقولون عن اللام هنا لام التعليل أنها مكسورة ، أما لام الأمر فساكنة ، فلما رأوا اللام مكسورة قالوا لام التعليل ، أما الذي فهم المعنى منهم فقال : ما دام السياق عطف فعل الأمر فتمتعوا على المضارع المتصل باللام ، فاللام للأمر أيضاً ، لأنه عطف عليها فعل الأمر ، وهو هنا للتهديد .

لكن ، لماذا كُسِرَتْ والقاعدة أنها ساكنة؟ قال أحد النحاة : لام الأمر ساكنة ، ويجوز أنْ تُكْسَر ، واستشهد بهذه الآية { لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ . . . } [العنكبوت : 66] .

ونقول لمن يقول : إنها لام التعليل : إذا سمعت لام التعليل فاعلم أنها تعني لام العاقبة؛ لأن الكفر والتمتّع لم يكُنْ سبباً في إذاقة الرحمة .

ويا مَنْ تقول لام الأمر سيقولون لك : لماذا كُسِرت؟ وفي القرآن شواهد كثيرة تدل على أنها قد تُكسر ، واقرأ قوله تعالى : { وَأَذِّن فِي الناس بالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ . . . } [الحج : 28] فاللام هنا مكسورة لأنها لام التعليل .

ثم قال بعدها : { ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق } [الحج : 29] فاللام سُكِّنَتْ لأنها لام الأمر .

وفي آيةٍ أخرى جُمِعت اللامان : { لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ . . . } [الطلاق : 7] فجاءتْ لام الأمر مكسورة؛ لأنها في أول الجملة ، ولا يُبتدأ في اللغة بساكن ، فحُرِّكت بالكسر للتخلص من السكون ، ثم يقول سبحانه : { وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ الله . . . } [الطلاق : 7] فجاءت لام الأمر ساكنة؛ لأنها واقعة في وسط الكلام .

لذلك يجب أن يتنبه إلى هذه المسألة كُتَّاب المصحف ، وأن يعلموا أن كلام الله غالب ، فقد فات

أصحاب رسم المصحف أنه مبنيٌّ من أوله إلى آخره على الوصل ، حتى في آخر آيات سورة الناس وأول الفاتحة نقول { الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس مِنَ الجنة والناس بسم الله الرحمن الرَّحِيم . . . } .

فآخِرُ القرآن موصول بأوله ، حتى لا ينتهي أبداً . وعليه فلا ترسم { لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ . . . } [الطلاق : 7] بالكسر ، إنما بالسكون ، لأنها موصولة بما قبلها .

وكلمة { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الروم : 34] تدلُّ على التراخي واستيعاب كل المستقبل ، سواء أكان قريباً أم بعيداً ، فهي احتياط لمن سيموت بعد الخطاب مباشرة ، أو سيموت بعده بوقت طويل .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً . . . } .

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35)

كلمة (أم) لا تأتي بداية؛ لأنها أداة تفيد التخيير بين أمريْن ، كما تقول : أجاء زيد أم عمرو؟ فلا بُدَّ أن تأتي بين متقابلين ، والتقدير : أهُمُ اتبعوا أهواءهم ، أم عندهم كتاب أُنزِل إليهم فهو حجة لهم على الشرك؟ وحيث إنهم لم ينزل عليهم كتاب يكون حُجَّة لهم فلم يَبْقَ إلا الاختيار الآخر أنهم اتبعوا أهواءهم .

والفعل { أَنزَلْنَا . . . } [الروم : 35] الإنزال يقتضي عُلُوَّ المنزَّل منه ، وأن المنزَّلَ عليه أَدْنى ، فالإنزال من عُلُو الربوبية إلى ذُلِّ العبودية . ونحن لم نَرَ الإنزال ، إنما الذي تلقَّى القرآن أول مرة وباشر الوحي هو الذي رآه وأخبرنا به .

والأصل في الإنزال أن يكون من الله تعالى ، وحين ينزل الله علينا إنما ليعطينا سبحانه شيئاً من هذا العُلْو ، سواء أكان العُلُو معنوياً؛ لأن الله سبحانه ليس له مكان ، أم عُلْواً حِسَّياً كما في { وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . . } [الحديد : 25] .

والسلطان : من التسلُّط ، وهي تدلُّ على القوة ، سواء أكانت قوة الحجة والبرهان ، فمَنْ أقعنك بالحجة والبرهان فهو قويٌّ عليك ، أو قوة قهر وإجبار كمَنْ يُرغِمك على فعل شيء وأنت كاره ، أما سلطان الحجة فتفعل وأنت راضٍ ومقتنع .

وإذا استقرأنا كلمة سلطان نجد أن الله تعالى عرضها لنا في موقف إبليس في الآخرة ، حين يتبرأ من الذين اتبعوه : { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ . . . } [إبراهيم : 22] .

أي : لم يكُنْ لي عليكم سلطان حجة وإقناع أستحوذ به على قلوبكم ، ولم يكُنْ لي عليكم سلطان قهر ، فأقهر به قوالبكم ، والحقيقة أنكم كنتم (على تشويرة) مجرد أنْ دعوتكُم جئتم مُسرعين ، وأطعتُم مختارين .

وهذا المعنى يُفسِّر لنا شيئاً في القرآن خاض الناس فيه طويلاً – عن خُبْث نية أو عن صدق نية – هذا في قوله تعالى مرة لإبليس { مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ . . . } [ص : 75] ومرة أخرى : { مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ . . . } [الأعراف : 12] .

فالأولى تدل على سُلْطان القهر ، كأنك كنتَ تريد أنْ تسجد فجاء مَنْ منعك قهراً عن السجود ، والأخرى تدل على سلطان الحجة والإقناع ، فلم تسجد وأنت راضٍ ومقتنع بعدم السجود .

وقوله تعالى : { فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ } [الروم : 35] أي : ينطق بما كانوا به يشركون ، يقول : اعملوا كذا وكذا ، فجاء هذا على وَفْق هواهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً . . . } .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36)

جميل أنْ يفرح الناس ، وأنْ يستبشروا برحمة الله ، لكن ما لهم إذا أصابتهم سيئة بما قدَّمتْ أيديهم يقنطون؟ فمُجري الرحمة هو مُجري السيئة ، لكنهم فرحوا في الأولى لأنها نافعة في نظرهم ، وقنطوا في الأخرى؛ لأنها غير نافعة في نظرهم ، وكان عليهم أنْ يعلموا أن هذه وتلك من الله ، وأن له سبحانه حكمةً في الرحمة وحكمةً في المصيبة أيضاً .

إذن : أنتم نظرتم إلى شيء وغفلتم عن شيء ، نظرتُم إلى ما وُجِد من الرحمة وما وُجِد من المصيبة ، ولم تنظروا إلى مَنْ أوجد الرحمةَ ، ومَنْ أوجد المصيبة ، ولو ربطتم وجود الرحمة أو المصيبة بمَنْ فعلها لَعلمتُم أنه حكيم في هذه وفي تلك ، فآفة الناس أنْ يفصلوا بين الأقدار ومُقدِّرها . إذن : ينبغي ألاَّ تنظروا إلى ذات الواقع ، إنما إلى مَنْ أوقع هذا الواقع .

فلو دخل عليك ولدك يبكي؛ لأن شخصاً ضربه ، فأول شيء تبادر به : مَنْ فعل بك هذا؟ فإنْ قال لك : فلان تقول : نعم إنه يكرهنا ويريد إيذاءنا . . الخ فإنْ قال لك : عمى ضربني فإنك تقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً أغضبه ، أو أخطأتَ في شيء فعاقبك عليه .

إذن : لم تنظر إلى الواقع في ذاته ، إنما ربطت بينه وبين مَنْ أوقعه ، فإنْ كان من العدو فلا بُدَّ أنه يريد شراً ، وإنْ كان من الحبيب فلا بُدَّ أنه يريد بك خيراً .

وهكذا ينبغي أن نربط بين الموجود ومَنْ أوجده ، فإنْ كان الذي أوجد الواقع رَبٌّ فيجب أنْ نتأمل الحكمة ، ولن نتحدث عن الرحمة ، لأن النفع ظاهر فيها للجميع ، لكن تعال نسأل عن المصيبة التي تُحزِن الناس ، فيقنطوا ويأسوا بسببها .

ونقول : لو نظرتَ إلى مَنْ أنزلها بك لارتاح بالك ، واطمأنتْ نفسك ، فالمصيبة تعني الشيء الذي يصيبك ، خيراً كان أم شراً ، أَلاَ ترى قوله تعالى : { مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ . . . } [النساء : 79] .

فالمصيبة لا تُذَمُّ في ذاتها ، إنما بالنتيجة منها ، وكلمة أصاب في الحسنة وفي السيئة تدلُّ على أن

سهمها أُطلِق عليك ، وعمرها مقدار وصولها إليك ، فهي لا بُدَّ صائبتك ، لن تتخلَّف عنك أبداً ، ولن تُخطئك؛ لأن الذي أطلقها إله ورب حكيم ، فإنْ كانت حسنة فسوف تأتيك فلا تُتعِب نفسك ، ولا تُزاحِم الناس عليها ، وإنْ كانت مصيبة فإياك أنْ تقول : أحتاط لها لأدفعها عن نفسي؛ لأنه لا مهربَ لك منها .

ثم لماذا تقنط وتيأس إنْ أصابتْك مصيبة؟ لماذا لا تنتظر وتتأمل ، لعل لها حكمة ، ولعل من ورائها خيراً لا تعلمه الآن ، وربما كانت ضائقة سوف يكون لها فرج قريب .

ألم تقرأ : { وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعسى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ . . . } [البقرة : 216] .

أتذكرون حادث عمارة الموت وقد طردوا منها البواب وأسرته ، وجعلوا منها قضية في المحكمة ، وبعد أن انهارتْ العمارة ، وتبيَّن للبواب وأسرته أن ما ظنوه شراً ومصيبة كان هو عَيْن الخير .

إذن : لا تقنط من ضُرٍّ أصابك ، واعلم أن الذي أجراه عليك ربك ، وأن له حكمة فانتظر حتى تنكشف لك ، ولا يقنط إلا مَنْ ليس له ربٌّ يلجأ إليه .

ثم تعالَ نناقشك في المصيبة التي قَنَط من أجلها : ألكَ دَخْلٌ فيها؟ أم ليس لك دَخْل؟ إنْ كان لك دَخْل فيها كالتلميذ الذي أهمل دروسه فرسب في الامتحان ، فعليك أن تستقبل هذه المصيبة بالرِّضا ، فالرسوب يُعدِّل لك خطأك ، ويلفتك إلى ما كان منك من إهمال حتى تتدارك الأمر وتجتهد .

فإنْ كانت المصيبة لا دَخْلَ لك فيها ، كالذي ذاكر واجتهد ، ومع ذلك لم يُوفّق لمرض ألمَّ به ليلة الامتحان ، أو لعارض عرض له ، نقول : إياك أنْ تفصل المصيبة عن مُجريها وفاعلها ، بل تأمَّل ما يعقُبها من الخير ، ولا تفصل المصيبة عن مُجريها عليك ولا تقنط .

وابحث عن حكمة ربك من إنزال هذه المصيبة بك ، كالأم التي تقول لابنها : يا بُني أنت دائماً متفوق والناس تحسدك على تفوقك ، فلعل رسوبك يصرف عنك حسدهم ، ويُنجيك من أعينهم ، فيكفوا عنك .

وحينما يأتي أبوه يقول له : يا بني هَوِّن عليك ، فلعلَّك إنْ نجحت هذا العام لم تحصل على المجموع الذي تريده ، وهذه فرصة لتتقوى وتحصل على مجموع أعلى . إذن : لن تُعدم من وراء المصيبة نفعاً ، لأن ربك قيوم ، لا يريد لك إلا الخير .

لذلك حين تستقريء الأحداث تجد أناساً فُضحوا وأُخِذوا بما لم يفعلوا ، وذهبوا ضحية شاهد زور ، أو قاضٍ حكم عن هوى . . الخ لكن لأن ربك قيوم لا يغفل يُعوِّض هذا المظلوم ويقول له : لقد أصبح لك نقطة عندي في حسابك ، فأنت اتُّهِمْتَ ظلماً ، فلك عندي إذا ارتكبتَ جريمة أَنْ أنجيك منها فلا تُعاقَب بها ، وأنت يا من عَمَّيْتَ على العدالة ، وشهدتَ زوراً ، أو : أخذت

ما ليس لك ، أو أفلتَّ من العقاب فسوف أُوقِعك في جريمة لم تفعلها .
إذن : القنوط عند المصيبة لا محلَّ له ، ولو ربطتَ المصيبة بمجريها لعلمتَ أنه حكيم ، ولا بُدَّ أنْ تكون له حكمة قد تغيب عنك الآن ، لكن إذا أدرتَ المسألة في نفسك ، فسوف تصل إلى هذه الحكمة .
وحين ننظر إلى أسلوب الآية نجد فيه مفارقات عديدة ، ففي الكلام عن الرحمة قال { وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا . . . } [الروم : 36] فاستخدم أداة الشرط (إذا) .
أما في المصيبة فقال { وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } [الروم : 36] فاستخدم أداة الشرط (إنْ) ، فلماذا عدلَ عن رتابة الأسلوب من إذا إلى إن؟
قالوا : حين تقارن بين النعَم وبين المصائب التي تنزل بالإنسان في دنياه تجد أن النعم كثيرة والمصائب قليلة ، فنعم الله متوالية عليك في كل وقت لا تُعدُّ ولا تحصى ، أمّا المصائب فربما تُعَدُّ على الأصابع .

لذلك استخدم مع النعمَ (إذا) الدالة على التحقيق ، ومع المصيبة استخدم (إنْ) الدالة على الشك ، ومن ذلك قوله تعالى : { إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح } [النصر : 1] فاستعمل إذا لأنها تدلُّ على التحقيق وتُرجِّح حدوث النصر ، وقال سبحانه : { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ . . . } [التوبة : 6] .
كما نلحظ في أسلوب الآية أنها لم تذكر السبب في إذاقة الرحمة ، إنما ذكرت سبب المصيبة { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ . . . } [الروم : 36] ليدلَّ على عدله تعالى في إنزال المصيبة ، وتفضُّله في إذاقة الرحمة؛ لأن الرحمة من الله والنعَم فضل من الله .
لكن في المصيبة قال { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ . . . } [الروم : 36] فذكر العِلّة حتى لا يظن أحد أن الله تعالى يُجري المصيبة على عبده ظلماً ، بل بما قدَّمَتْ يداه ، فالمسألة محكومة بالعدل الإلهي .

وبين الفضل والعدل بوْن شاسع ، فلو جاءك خَصْمان لتحكم بينهما تقول : أحكم بينكما بالعدل ، أم بأفضل من العدل؟ يقول : وهل هناك أفضل من العدل؟ إذن : نريد العدل ، لكن تنبَّه لأن العدل يعطيك حقك ، والفضل يُتِركك حقك .
فكأن الحق سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أنكم ناجون بأعمالكم ، لا إنما بالتفضل عليكم : { قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس : 58] .
يعني : مهما جمعتُم من الطاعات فلن تكفيكم ، ولا نجاةَ لكم إلا برحمة من الله وفضل .
فالحق – تبارك وتعالى – يريد منا أن نعرف أن رحمة الله وسعتْ كل شيء ، وأنه مع ما أنعم به عليكم من نِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحصي لا يُعاقبكم إلا بشيء اقترفتموه يستحق العقاب؛ ذلك لأنه رَبٌّ

رحيم حكيم .
وما دام الأمر كذلك فانظر إلى آثار رحمة ربك في الكون ، وتأمل هذه النعَم ، وقفْ عند دِقَّة الأسلوب في قوله سبحانه : { وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا . . . } [إبراهيم : 34] . فالعَدُّ يقتضي الكثرة و { نِعْمَتَ . . . } [إبراهيم :] مفرد ، فكيف نعدُّ يا رب؟ قالوا : نعم هي نعمة واحدة ، لكن في طياتها نِعَم فلو فتشتها لوجدتَ عناصر الخيرية فيها لا تُعَد ولا تُحصىَ .
لذلك لما تعرضتْ الآيات لِعَدِّ نِعَم الله استخدمتْ (إنْ) الدالة على الشكِّ؛ لأنها لا تقع تحت الحصر ولا العَدِّ ، لكن على فرض إنْ حاولت عدَّها فلن تُحصيها ، والآن ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص كليات بكاملها لدراسة علم الإحصاء ، وخرجوا علينا بإحصاءات لأمور ولأشياء كثيرة في حياتنا ، لكن لم يتعرض أحد لأنْ يُحصي نعمة الله ، لماذا؟
لأن الإقبال على الإحصاء لا يكون إلا مع مظنَّة أنْ تُعدَّ وتستوعب ما تحصيه ، فإنْ كان خارج نطاق استيعابك فلن تتعرض لإحصائه كما لم يتعرَّضْ أحد مثلاً لِعَدِّ الرمال في الصحراء؛ لذلك يُشككم الله في أنْ تعدُّوها { وَإِن تَعُدُّواْ . . . } [إبراهيم : 34] فهو أمر مُستبعد ، ولن يكون .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37)

يبسط : يُوسِّع ، ويقدِر : يعني يُضيِّق .
يعني : ألم يروا هذه المسألة ، فواحد يُوسِّع الله عليه الرزق ، وآخر يُضيِّق عليه ، وربما صاحب السعة لم يتعب فيها ، إنما جاءته من ميراث أو خلافة ، وصاحب الضيق يكدّ ويتعب ، ومع ذلك فعيشته كفاف ، لذلك استقبل الفلاسفة هذه المسألة بما في ضمائرهم من إيمان أو إلحاد ، فهذا ابن الراوندي الملحد يقول :
كَمْ عَالِمٍ أعْيَتْ مَذَاهِبه ... وجَاهلٍ جَاهلٍ تَلْقَاهُ مرْزُوقا
هَذَا الذِي تركَ الأوهامَ حَائرةً ... وَصيَّر العَالِمِ النَّحْرير زِنْدِيقا
فردَّ عليه آخر ممن امتلأت قلوبهم بالإيمان :
كَمْ عَالِمٍ قَدْ باتَ في عُسْرٍ ... وجَاهلٍ جاهلٍ قَدْ باتَ في يُسْر
تحيَّر الناسُ في هَذا فقُلْتُ لهم ... هَذا الذي أوجبَ الإيمان بالقدرِ
فالعالم لا يسير بحركة ميكانيكية ثابتة ، إنما بقيومية الخالق سبحانه عليه ، فانظر إلى البسط لمن بسط الله له ، والقبض لمن قبض الله عنه ، ولا تعزل الفعل عن فاعله سبحانه ، وتأمل أن الله تعالى واحد ، وأن عباده عنده سواء ، ومع ذلك يُوسِّع على أحدهم ويُضيِّق على الآخر .
إذن : لا بُدَّ أن في هذه حكمة ، وفي تلك حكمة أخرى ، ولو تتبعتَ عواقب السعة هنا

والتضييق هناك لتراءتْ لك الحكمة .

ألا ترى صاحب سعة ورزق ونعم كثيرة ، ومع ذلك لم يستطع تربية أولاده؛ لأن مظاهر الترف جرفتهم إلى الانحراف ، ففشلوا في حياتهم العملية ، وفي المقابل نرى الفقير الذي يعيش على الكفاف يتفوق أولاده ، ويأخذون أعلى المراتب؟ إذن : { يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ . . . } [الروم : 37] وفق حكمة يعلمها سبحانه وتعالى .

وسبق أن ذكرنا أن في ألمانيا مدرستين فلسفيتين في الإلحاد ، إحداهما لواحد اسمه (جيبل) ، والأخرى ل (بختر) أحدهما : ينكر أن يكون للعالم إله ، يقول : لو كان للعالم إله حكيم ما خلق الأعمى والأعرج والأعور . . الخ فالحكمة في الخَلْق تقتضي المساواة ، فأخذ من الشذوذ في الخَلْق دليلاً على إلحاده .

أما الآخر فقال : ليس للكون إله ، إنما يسير سَيْراً ميكانيكياً رتيباً ، ولو كان فيه إله لكان يخلق الخَلْق على صور مختلفة ، وتكون له إرادة مطلقة عن الميكانيكا ، فأخذ ثبات النظام دليلاً على إلحاده ليناقض مذهب سابقه .

إذن : المسألة عندهم رغبة في الإلحاد بأيِّ شكل ، وعلى أية صورة ، واستخدام منهج مُعْوج يخدم القضية التي يسعون إلى إثباتها .

ونقول في الرد على الأول الذي اتخذ من الشذوذ في الكون دليلاً على عدم وجود إله حكيم : الشذوذ الذي ذكرتَ شذوذ في الأفراد الذين يُعوض بعضهم عن بعض ، فواحد أعمى ، وآخر أعور يقابلهم ملايين المبصرين ، فوجود هذه النسبة الضئيلة لا تفسد القاعدة العامة في الخَلْق ، ولا تؤثر على حركة البشر في الكون فالصحيح يعوض غير الصحيح .

أما النظام الثابت الذي يريده الثاني فعليه أن ينظر إلى الملأ الأعلى ، وفي الكون الأعلى من شمس وقمر ونجوم .

. الخ فسيرى فيه نظاماً ثابتاً لا يتغير ، لأن الشذوذ في هذه المخلوقات يفسد الكون كله؛ لذلك خلقه الله على هيئة الثبات وعدم الشذوذ .

إذن : في النظام العام للكون نجد الثبات ، وفي الأفراد الذين يغني الواحد منهم عن الآخر نجد الشذوذ والاختلاف ، فالثبات يثبت حكمة القدرة ، والشذوذ يثبت طلاقة القدرة .

فيا مَنْ تريد ثبات النظام دليلاً على الإيمان ، فالثبات موجود ، ويا مَنْ تريد شذوذ النظام دليلاً على الإيمان ، فالشذوذ موجود ، فما عليككما إلا أن تتفقا وأن ينفتح كل منكما على الآخر لتصلا إلى الصواب .

ومسألة الرزق لها فلسفة في الإسلام ، فالحق سبحانه أخبرنا بأنه الرزَّاق ، فمرة يرزق بالأسباب ، ومرة يرزق بلا أسباب ، لكن إياك أنْ تغتر بالأسباب ، فقد تقدم الأسباب وتسعى ثم لا يأتيك

منها رزق ، ويخيب سَعْيك كالفلاح الذي يأخذ بالأسباب حتى يقارب الزرع على الاستواء فتأتيه جائحة فتهلكه ، فاحذر أن تغتر بالأسباب ، وانظر إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : ينبغي أنْ تتحرى إلى الرزق أسبابه ولا تشغلنّ بعدها بالك بأمره ، فقد تكفل به خالقك الذي استدعاك للوجود ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

تَحَرَّ إلى الرزْقِ أَسْبابَهُ ... ولاَ تشغلنْ بعدَهَا بَالَكا

فَإنَّك تجهلُ عنوانه ... ورِزْقُكَ يعرِفُ عُنْوانَكا

ثم يقول سبحانه : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الروم : 37] قال (لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ) لأن مسألة الرزق هذه تحتاج إلى إيمان بحكمة الرازق سبحانه في الإعطاء وفي المنع .

ونلحظ على أسلوب الآية قوله تعالى في البسط : { لِمَن يَشَآءُ . . } [الروم : 37] وفي التضييق { وَيَقْدِرُ . . . } [الروم : 37] ولم يقُلْ لمن يشاء؛ لأن البسط في نظرنا شيء محبوب نفرح له ونتمناه فقال { لِمَن يَشَآءُ . . . } [الروم : 37] لنطمئن نحن إلى أننا سندخل في هؤلاء الذين سيُبْسط لهم في الرزق ، أما في التقتير فلم يقُلْ (لمنْ) ليظل مبهماً يستبعده كلٌّ مِنّا عن نفسه

ثم يقول رب العزة سبحانه : { فَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ . . . } .

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)

حينما نتأمل النسق القرآني هنا نجد أن الله تعالى ذكر أولاً البسْطَ في الرزق ، ثم التقتير فيه ، ثم أكَّد بعده مباشرة على حَقِّ ذي القُرْبى والمسكين وابن السبيل ، وكأنه يلفت أنظارنا أن هذه الحقوق لا تقتصر على مَنْ بسط له الرزق ، إنما هي على الجميع حتى مَنْ كان في خصاصه ، وضُيِّق عليه رزقه ، فلا ينسي هؤلاء .

لذلك يذيل الحق سبحانه الآية بقوله : { ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله وأولئك هُمُ المفلحون } [الروم : 38] والجميع : مَنْ بُسِط له ، ومَنْ قُتِر عليه يريدون وجه الله .

وبمقارنة هذه الآية بآية الزكاة : { إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَآءِ والمساكين والعاملين عَلَيْهَا والمؤلفة قُلُوبُهُمْ وَفِي الرقاب والغارمين وَفِي سَبِيلِ الله وابن السبيل فَرِيضَةً مِّنَ الله والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة : 60] .

فلم تذكر ذا القربى الذي ذكر هنا ، وكأن الآية تشير لنا إلى أمر ينبغي أن نلتفت إليه ، وهو أن القريب عيب أن نعطيه من مال الزكاة ، وهذه آفة وقع فيها كثير من الأغنياء وحتى المتدينين منهم ، فكثيراً ما يسألون : لي ابن عم ، أو لي قريب أأعطيه شيئاً من زكاة مالي؟

وكنتُ أقول للسائل : والله ، لو علم ابن عمك أنك تعطيه من مال الزكاة ما قبله منك؛ لأن

للقريب حقاً ، سواء أكنتَ غنياً تملك نصاب الزكاة ، أو لم تصل إلى حد النِّصَاب .
إذن : لا تربط هؤلاء الثلاثة – القريب والمسكين وابن السبيل – بمسألة الزكاة ، فلهم حَقٌّ حتى على الفقير الذي لا يملك نصاباً ، وعلى مَنْ ضُيِّقْ عليه رزقه .
ومع هذا الحق الذي قرره الشرع للقريب نجد كثيرين يأكلون حقوق الأقارب ، ويحتالون لحرمانهم منها ، فمثلاً بعض الناس لا ينجب ذكوراً ، فيكتب أملاكه للبنات ليحرم عمهم أو أبناء عمومتهم من الميراث ، مع أن البنت لها نصف التركة ، وإنْ كُنَّ أكثر من واحدة فلهُنَّ الثلثان ، ويُوزَّع الثلث على العم أو ابن العم؛ ذلك لأن البنات في هذه الحالة ليس لهن ذَكَر عصبة ، فيجعلها الشرع في العم أو ابن العم .
والشارع الحكيم يوازن بين الأطراف ، فيأخذ منك ويعطيك ، فلماذا في حالة موت الوالد عن هؤلاء البنات ، وليس لهُنَّ ميراث يَعُدْن على العم أو ابن العم بالنفقة ويقاضونه في المحاكم ، فلماذا نحرمهم حقوقهم ونطالب نحن بحقوقنا ، فهذا نوع من التغفيل .
لماذا لا نعطي العم أو ابن العم وهو الذي سيحمي البنات ويسهر على راحتهن ، ويقف بجوارهن حال شدتهن؟
إيَّاك – إذن – أنْ تُدخِل الأقارب في الزكاة ، أو تربط مساعدتهم بالقدرة؛ لأن لهم عليك حقاً حال رخائك وحال شدتك .
ويكفي أن الحق سبحانه خصَّهم بقوله { ذَا القربى . . . } [الروم : 38] ولم يقُلْ : ذا المسكنة ، أو ذا السبيل ، وكلمة (ذو) بمعنى صاحب ، تدل على المصاحبة الدائمة والملازمة ، فلا نقول : فلان ذو علم لمن علم قضية أو قضيتين ، إنما لمن اتصف بالعلم الوسع وتمكَّن منه ، كذلك لا نقول فلان ذو خلق إلا إذا كان الخُلُق صفة ملازمة له لا تنفك عنه .

ومن ذلك نقول : ذو القربى يعني ملاصقاً لك لا ينفك عنك ، فيجب أنْ تراعي حقَّه عليك ، فتجعل له نصيباً ، حتى إنْ لم تكُنْ تملك نصاباً ، وكذلك للمسكين وابن السبيل؛ لأن الله ذكرهم معاً في غير بند الزكاة ، فدلَّ ذلك على أن لهم حقاً غير الزكاة الواجبة .
ونلحظ أن القرآن رتَّبهم حسب الأهمية والحاجة ، فأولهم القريب لقرابته الثابتة منك ، ثم المسكين وهو متوطن معروف لك ، ثم ابن السبيل العابر الذي تراه يوماً ولا تراه بعد ذلك ، فهو حسب موضعه من الحال .
والمسكين قد يتغير حاله ، ويتيسر له الرزق فيُوسِّع الله عليه ، وابن السبيل يعود إلى بلده ، فالوصف الثابت لذي القربى؛ لذلك وصفه الله تعالى بما يدل على الثبات .
ثم قال { حَقَّهُ . . . } [الروم : 38] فالحق ملازم له وهو أَوْلَى به ، لذلك لم يَقُل مثلاً : وآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل حقوقهم .

وقد مثَّلوا لذلك بقولهم : قال الأمير : يدخل عليَّ فلان ، وفلان ، وفلان ، فالإذن بالدخول للأول يتبعه في ذلك الباقون .

إذن : لهؤلاء الثلاثة خصوصية ، فقد أمرك الله أنْ تعطيهم من لحمك ، وألاّ تربطهم بالزكاة ولا ببسط الرزق ، أما باقي السبعة المستحقون للزكاة فلم يُلزمك نحوهم بشيء غير الزكاة المفروضة .

ولما حدث نقاش بين العلماء حول المراد بالمسكين والفقير ، أيهما أحوج من الآخر؟ قالوا : المسكين مَنْ له مال ، ولكن لا يكفيه ، واستشهد أبو حنيفة على هذا المعنى بقوله تعالى : { أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر . . . } [الكهف : 79] فأثبت لهم ملكية وسماهم مساكين . أما الفقير فهو الذي لا شيء له ، وعلى هذا فالفقير أحوج من المسكين ، فيدخل في هذه الآية من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : { ذَلِكَ . . . } [الروم : 38] أي : الإيفاء لهؤلاء { خَيْرٌ . . . } [الروم : 38] كلمة خير تُطلَق في اللغة ، ويُراد بها أحد معنيين : مرة نقول خير ويقابلها شر كما في قوله تعالى : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة : 7-8] ، ومرة نقول : خير ونقصد الأخْير كالأحسن أي : أفعل تفضيل ، كما جاء في قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيَارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَر ... لكن الشائع أن تُستعمل خير في أفعل التفضيل كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير » فخَيْر الأولى بمعنى أخير . لكن لمن؟

{ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله وأولئك هُمُ المفلحون } [الروم : 38] أي : في الوفاء بحقِّ ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، يريد بذلك وجه الله ، لا يريد رياءً ولا سمعة؛ لأن الذي يفعل خيراً يأخذ أجره مِمَّن فعل من أجله ، فمَنْ عمل لله مخلصاً فأجره على الله ، ومَنْ عمل للناس رياءً وسمعةً فليأخذ أجره منهم .

وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب } [النور : 39] أي : فوجيء بوجود إله لم يكُنْ في باله ولم يعمل من أجله .

فمعنى { يُرِيدُونَ وَجْهَ الله . . . } [الروم : 38] أي : يقصدون بعملهم وجه الله ، سواء رآه الناس ، أو أخفى عمله ، حتى لا تعلم شماله ما صنعتْ يمينه؛ لأن الأمر قائم على النية ، فقد تعطي أمام الناس ونيتك أنْ يتأسَّوْا بك ، أو لتكُفَّ عنك ألسنتهم وقدحهم في حقك .

وحين تعطي علانية بنية خالصة لله فإنها صدقة مخصِّبة للعطاء ، مخصِّبة للأجر؛ لأنك ستكون أُسْوة لغيرك فيعطي ، ويكون لك من الأجر مثله؛ لأن مَنْ سَنَّ حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة .

والقرآن عرض علينا هذه القضية في قوله تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس وَلاَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر . . . } [البقرة : 264] .
ثم يعطينا مثلاً توضيحياً : { فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [البقرة : 264] .
فمثَل المرائي كهذا الحجر الناعم الأملس حين يصيبه المطر ، وعليه طبقة من التراب يزيحها المطر ، ويبقى هو صَلْداً ناعماً لا يحتفظ بشيء ، ولا ينبت عليه شيء .
وهذا المثَل يُجسّد لنا خيبة سَعْي المرائي ، وأنه مغفل ، سعى واجتهد فانتفع الناس بسَعْيه ، وتعدّى خيره إلى غيره ، وخرج هو خالي الوفاض من الخير ومن الثواب .
ثم يذكر الحق سبحانه المقابل : { وَمَثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابتغآء مَرْضَاتِ الله وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [البقرة : 265] .
فالصدقة ابتغاء وجه الله كالأرض الخِصْبة حين ينزل عليها المطر ، فيأتي نباتها مضاعفاً مباركاً فيه ، فإنْ لم يكُمْ مطر كفاها الطَّل لتنبت وتُؤتي ثمارها ، ولو قال : كمثل جنة لكانت كافية لكنها { جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ . . . } [البقرة : 265] يعني : على مكان مرتفع ليدلَّ على خصوبتها ، فكلما كانت الأرض مرتفعة زادتْ خصوبتها ، وخلَتْ من المياه الجوفية التي تؤثر على النبات .
وهذه الجنة تُرْوى بالمطر يأتيها من أعلى ، فيغسل الأوراق والغصون ، فتزيد نضارتها وجودتها ، والأوراق هي رئة النبات .
والله تعالى يترك لآثار الذات في الناس تذكرةً وعبرة ، فواحد يفعل الخير بآخر ليشتريه به ، أو ليُخضع عنقه بهذا الجميل ، فتكون النتيجة الطبيعية أنْ ينكر الآخر جميله ، بل ويكرهه ويحقد عليه ، وهذا جزاء وفاقٌ لمن عمل العمل لغير وجه الله .
وهو معنى قولهم : اتَّقِ شر مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا؟ لأنه حين يراك يتذكر ما لك من يَد عليه ، وما لك من فضل ، فيخزي ويشعر بالذلة؛ لأن وجودك يدكُّ كبرياءه؛ لذلك يكره وجودك ، ويكره أنْ يراك .

فالحق سبحانه يقول : احذروا أنْ تُبطلوا المعروف بالرياء ، أو بالأغراض الدنية؛ لأن معروفك هذا سيُنكَر ، وسينقلب ما قدمتَ ، من خير شراً عليك . إذن : عليكم بالنظر في أعمالكم إلى وجه الله لا إلى غيره ، فإنْ حدث وأنكر جميلك فجزاؤك محفوظ عند الله ، وكأن ربك – عز وجل – يغار عليك ، ويريد أنْ يحفظ لك الجميل ويدخره عنده .
وهذا المعنى عبَّر عنه الشاعر بقوله :
أقُولُ لأصْحاب المرُوءَاتِ قَوْلةً ... تُريحُهُمُ إنْ أحسَنُوا وتفضَّلُوا

يَسيرُ ذوو الحَاجَاتِ خَلْفَكَ خُضَّعاً ... فَإِنْ أدْرَكُوها خلَّفُوكَ وهَرْوَلُوا
فَلا تَدعِ المعْروفَ مهما تنكَّروا ... فَإِنَّ ثوابَ الله أربى وأجْزَلُ

وسبق أنْ ذكرتُ قصة الرجل الذي قابلنا في الطريق ونحن في الجزائر ، فأشار لنا لنوصله في طريقنا ، فتوقف صاحب السيارة وفتح له الباب ، لكنه قبل أنْ يركب قال (على كام) ؟ يعني : ثمن توصيله . فقال صاحب السيارة : لله . فقال الرجل (غَلِّتها يا شيخ) .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الذين يريدون بأعمالهم وجه الله هم الذين يُغْلون أعمالهم ، أي : يرفعون قيمتها ، ويضاعفون ثوابها .

وقوله تعالى : { فَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل . . . } [الروم : 38] بعد قوله : { وَيَقْدِرُ . . . } [الروم : 37] يدل في ظاهره على أنه يأخذ منك مع أنك مُقِلٌّ ، وهذا يدخل في إطار قوله تعالى : { وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . } [الحشر : 9] .

وقلنا : إن الشارع حكيم ، فإذا ألزمك وأخذ منك فإنما ذلك ليعطيك إنْ احتجت ، وكأنه يقول لك : اطمئن فقد أمَّنْتُ لك حياتك ، إن أصابك الفقر ، أو كنت في يوم من الأيام مسكناً أو ابن سبيل ، فكما فعلتَ سيُفعل بك .

وهذه المسألة واضحة في كفالة اليتيم ، فلو أن المجتمع الإيماني عوَّضه عن أبيه عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » لاطمأنَّ كلُّ أب على أولاده إنْ مات وتركهم؛ لأنهم في مجتمع يُعوضهم عن أبيهم بآباء كثيرين .

والإنسان إنْ كان آمناً مُنعَّماً ، فإنما يُنغِّص هذه النعمة أنها عُرْضة لأنْ تزول ، فيريد الله أنْ يُؤمِّن لعبده الحياة الكريمة في امتداده من بعده ، وهذا هو التأمين الحق الذي أرسله الله قضية تأمينية في الكون ، ليست في شركات التأمين ، إنما في يده سبحانه حيث قال : { وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ الله وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً } [النساء : 9] فإذا اتقوا الله وقالوا القول السديد ، فإن يتيمهم يصادف أناساً يكفلونه ، ويخافون عليه ، ويتولَّوْن أمره .

وسبق أنْ تعرَّضْنا في سورة الكهف لقصة الجدار الذي تبرع الخضر – عليه السلام – ببنائه مع أنه في قرية أهلها لئام منعوهم حتى الطعام . وقلنا : إن سؤال الطعام هو أصدق سؤال ، ولا يُرَدُّ سائله ، ومع ذلك بناه الخضر ، وقال في بيان أمر الجدار : { وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المدينة وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً . . . } [الكهف : 82] .

فصلاح الأبوين ينفع الغلامين ، فيُسخِّر الله لهما مَنْ يبني لهما الجدار ، ويحافظ لهما على كنزهما حتى يكبرا ، ويستطيعا حمايته من هؤلاء اللئام الذين إذا علموا بأمره نهبوه من هذين الصغيرين .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن الفارق بين الهدية والصدقة ، فيقول : { وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ . . . } .

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

الحق – سبحانه وتعالى – يعرف أن خَلْقه يفعلون الخير ، ويطلبون الأجر عليه ، لكن هذا الطلب إذا خلا من الرياء ، لكن الحق سبحانه يريد أن يرتفع بالصدقة أو بالزكاة إلى مستوى عَالٍ ، فيأخذ صاحبها الثمن من يد الله سبحانه مضاعفاً ، وطلب الزيادات يكون في النية . فالمؤمن مثلاً يعلم أنه إذا حُيِّيَ بتحية فعليه أنْ يردَّها بخير منها ، فقد يأتي فقير ويقدم لأحد الأغنياء هدية على قدر استطاعته ، وفي نيته أنْ يردَّها الغني بما يناسب غِنَاه ، إذن : فهو حين أعطى يطمع في الزيادة ، وإن كانت غير مشروطة ، ويجوز أنْ يردَّ الغنيُّ على الهدية بأفضل منها ، ويجوز ألاَّ يردَّها أصلاً .

فقوله تعالى : { وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّباً . . . } [الروم : 39] أي : الزيادة بأيّ ألوانها عما تعطي ، وهذه الزيادة غير مشروطة في عقد ، والزيادة تكون في المال ، أو بأيّ وسيلة أخرى فيها نفع؛ لأنهم قالوا في تعريف الربا : كل قرض جَرَّ نفعاً فهو ربا .

حتى أن الإمام أبا حنيفة كان يجلس في ظل لجاره ، فلما طلب منه جاره مالاً وأقرضه رآه الجار لا يجلس في ظل الجدار كما كان يجلس ، فسأله عن ذلك فقال : كنت أجلس في ظل جدارك وأعلم أنه تفضّل منك ، أما الآن فأخاف أنْ أجلس فيه حتى لا تظن أن هذه الجلسة للمال الذي أخذتَه مني .

فالمعنى : وما آتيتم من ربا تبغون به الزيادة سواء أكانتْ نفعاً ، أو مالاً ، أو غير مال ، سواء أكانت مشروطة أو غير مشروطة . قالوا : فما حكم الهدايا إنْ رُدَّتْ بأحسن منها؟ وما ذنبي أنا المعطي في ذلك؟ قالوا : لا شيء فيها بشرط ألاَّ تكون في نيتك الزيادة ، وألا تكون هديتك مشروطة ، إنما تكون تحبباً وتوداداً ومعروفاً بين الناس ، إنما لا تأخذ عليها ثواباً من الله .

وقوله { لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس . . . } [الروم : 39] في هنا للظرفية ، فالمال ظرف ، وما تضعه فيه ينقص منه ، ويزيد ما عندك { فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله . . . } [الروم : 39] يربو عندك أنت بالزيادة التي تأخذها ممَّنْ حيَّيْته ، أمّا عند الله فلا يربو .

هكذا قال ابن عباس ، وإن كان بعض العلماء قال : هي مطلق في الربا الأصل ، وهذه مسألة كان يجب أنْ يُشرّع لها ، لكن رأى ابن عباس أن آية الربا معروفة ، وهذه للربا في زيادات التحية والمجاملات بين الناس .

ثم يقول سبحانه : { وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فأولئك . . . } [الروم : 39] أي :

الذين يؤتون الزكاة ويريدون بها وجه الله { هُمُ المضعفون } [الروم : 39] ليست من الإضعاف ، إنما من الأضعاف ، فالزكاة أضعاف الفتح كما في قوله تعالى : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . . } [الحديد : 11] أما الربا فإضعاف بالكسر .

وهذه المسألة وقف عندها بعض المستشرقين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، قالوا : في القرآن آيات تصادم الحديث النبوي ، فالقرآن يقول : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . . } [الحديد : 11] . إذن : القرض الحسن يضاعف به الله الثواب ، وعندكم أن الحسنة بعشر أمثالها ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مكتوب على باب الجنة : الحسنة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » فلو أن القرض الحسن يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ، فهو بعشرين لا بثمانية عشر .

فقلنا له : لو تصدقْتَ بدولار مثلاً فقد عملتَ حسنة تُضَاعف لك إلى عشر ، لكن أردُّ إليك دولارك الذي تصدَّقْتَ به؟ لا ، إذن حقيقة الأمر أنك أخذتَ تسعة تضاعف إلى ثمانية عشر .

قالوا : فلماذا زاد ثواب القرض؟ نقول : لأن المتصدِّق حين يتصدق ينقطع أمله فيما قدَّم ، لكن المقرض لا يزال مُعلَّق البال في القرض ينتظر ردّه ، فكلما صبر عليه أخذ أجراً ، ثم إن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما المتصدَّق عليه فقد يقبل الصدقة وهو غير محتاج إليها ، وربما كان ممَّنْ يكنزون المال .

إذن : فالحق سبحانه يريد أنْ يُنمي القرض لماذا؟ قالوا : لأن الله يريد أن تسير حركة الحياة ، وأنْ تتكامل ، وأنت تعتز بمالك وتخاف عليه وتريد له النماء ، وسوف تجد هذا كله في القرض ، فاجعله قرضاً ، فهو الباب الذي فتحه الله لك للزيادة وللثواب .

ثم إن الله تعالى احترم ملكيتك لمالك ، وحرص على حمايته لك ، فقال : { ياأيها الذين آمنوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فاكتبوه . . . } [البقرة : 282] .

فالله يحفظ عليك مالك لتهدأ بالاً من ناحيته ، ومع ذلك يترك مجالاً لأريحية المعطي ومروءته { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الذي اؤتمن أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ الله رَبَّهُ . . . } [البقرة : 283] .

وبهذه الفلسفة الإيمانية يدور المال وتسير به حركة الحياة ، بحيث يضمن لصاحب المال ماله ، لأنه مُحِبٌّ له حريص عليه ، ويضمن لمن لا مالَ له أنْ يتحرك من مال الغير ، فإذا كانت هناك أمانة أداء ، فكل صاحب أمانة عليه أنْ يؤدِّيها لمستحقها .

فإن اختلت هذه الموازين ، وماطل الفقيرُ الغنيَّ ، وضنَّ عليه أنْ يردَّ إليه حقه ، فقد فسد حال المجتمع وانهارت فيه هذه القيم ، وساعتها لا نلوم القادر على العطاء إنْ أمسك ماله عن المحتاجين للقرض ولِمَ لا؟ والناس يأكلون الحقوق ، وبذلك تتوقف حركة الحياة ويتراجع المجتمع عن مسايرة حركة التقدم .

فإذا كان الربا غير المشروط ، وهو الربا في الهدايا والمجاملات والتحية بين الناس جعله الله للمودَّات وللمروءات بين الناس ، لا يثيب عليه ولا يعاقب ، وقال عنه { فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله . . . } [الروم : 39] .

أما الربا المشروط فقد وقف معه وقفة حازمة ، وشرع له عقاباً وجعل هذا العقاب من جنس ما يضادّ غرض الذي رَابَى ، فأنت ترابي لتزيد من مالك ، فيقابلك الله بالنقصان { يَمْحَقُ الله الربا . . }

[البقرة : 276] لماذا؟

قالوا : لأن المعطي غنيٌّ واجد ، لديه فائض من المال يعطي منه ، أما الآخذ فمحتاج ، فكيف نطلب من المحتاج أنْ يزيد في مال الواجد غير المحتاج؟ وكيف تكون نظرة المحتاج إليك حين يعلم أن عندك مالاً يزيد عن حاجتك ، ومع ذلك ترفض أن تُقرضه القرض الحسن ، بل تشترط عليه الزيادة ، فتأخذ الزيادة منه وهو محتاج؟

ثم افرض أنني أخذت هذا القرض لأثمره وأنميه فخسر ، أليس كافياً أنْ أخسر أنا عملي ، وأنْ يضيع مجهودي؟ أمن العدل أن أخسر عملي ، ثم أكون ضامناً للزيادة أيضاً؟ هذه ليست من العدالة؛ لأن شرط العقد أن يحمي مصلحة الطرفين ، أما عقد الربا فلا يحمي إلا مصلحة الدائن .

ونحن نرى حتى التشريعات الوضعية في الاقتصاد إذا أعطى البنك مالاً لشخص لعمل مشروع مثلاً ثم خسر وأرادوا تسوية حالته ، أول شيء في إجراءاتهم أنْ يُسقطوا عنه الفوائد .

وهذا يوافق شرع الله في قوله تعالى : { وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ } [البقرة : 279] (لاتُظلمون) بمعنى : أن نردَّ إليكم رءوس أموالكم؛ (ولا تظلمون) أي : لا نظلمك من ناحية أخرى ، فنقول لك :

إنْ أردتَ أنْ تتوب فرُدّ ما أخذتَه بالربا بأثر رجعي؛ لأن ما أخذتَه قد صُرِف وتصعب إعادته ، وبذلك نراعي مصلحة الدائن حين نعيد إليه رأس المال ، ومصلحة المدين ، فلا نكلفه ردَّ مَا لا يقدر على ردِّه .

وحين نتأمل هذه المسألة : آلدول أقوى أم الأفراد؟ الدول ، أرأيتم دولة اقترضت مالاً من دولة أخرى ، ثم استطاعت أن تُسدِّد فوائد هذا الدين فضلاً عن أصل الدَّيْن؟ كذلك الأفراد الأقوياء الذين يأخذون القروض ، ثم لا يسددون مجرد الفوائد ، ولا يستطيعون جدولتها ولا تسوية حالتهم ، فيقعون في خصومات ومشاكل .

شيء آخر ، هَبْ أن رجلاً لديه مثلاً ألف جنيه ورجل لا عند له ، صاحب الألف يستطيع أن يديرها ، وأن يعيش منها ، أما الآخر الذي لا يملك شيئاً فيقترض ليعيش مثل صاحبه ، فإنْ قلت

له : الألف قرضاً بمائة جنيه ، فمن أين يوفر هذه المائة؟
إنْ أخذها من عائد المال يخسر ، وإنْ أخذها من السلعة بأنْ يُقلل من الجودة أو من العناصر الفعالة في السلعة ، أو في التغليف ، جاءت السلعة أقلَّ من مثيلاتها وبارت . إذن : لا بد أن يتحملها المستهلك ، وهذا إضرار به ، وهو ليس طرفاً في العقد ، إذن : العقد باطل .
وحين نقول : إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان يجب أن نفهم هذه القضية جيداً ، وإياك أن تقول : إن الإسلام لا يصلح في زمان كذا ، أو في مكان كذا .
والآن نسمع البعض ينصرف عن منهج الإسلام ويقول لك { لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا . . . } [البقرة : 286] أي : ليس في وُسْعه الآن تنفيذ شرع الله . لكن نقول له : مَن الذي يحدد الوُسْع؟ أنت أم المشرِّع سبحانه؟
ما دام الله تعالى قد كلَّف ، فاعلم أن التكليف في وُسْعك ، فخذ الوُسْع من التكليف ، لا أن تُقدِّر أنت الوسع وتنسى ما كلَّفك الله به .

لذلك ترى أن الله تعالى إذا ضاق الوُسْع يُخفِّف عنك دون أنْ تطلب أنت التخفيف ، كما في صلاة وصوم المريض والمسافر . . الخ وكما في التيمم إنْ تعذَّر استعمال الماء .
فلا معنى لأن نقول : إن تعاليم الدين لا تناسب العصر ، إذن : اجعل العصر هو المشرِّع ، وانصرف عن تشريع السماء إلى ما يحتمله العصر .
لذلك قلنا : إن الحق سبحانه حينما يلقي تكاليفه يقول : { قُلْ تَعَالَوْاْ . . . } [الأنعام : 151] فمعنى تعالوا : ارتفعوا عن مستوى أهواء البشر ، واعلوا إلى تكاليف الله ، فإنْ هبطت بالتكاليف إلى مستواك ، وقُلْت ظروف العصر تحتم عليَّ كذا وكذا فقد أخضعتَ منطق السماء لمنطق الأرض ، وما جاء منطق السماء إلا ليعلو بك .
فإنْ نظرنا إلى مواقف العلماء من مسألة الربا ، فمنهم مَنْ يُحلِّل ، ومنهم مَنْ يُحرِّم وهم الكثرة ، وهَبْ أنهم متساوون مَنْ يحرم ومَنْ يحلل ، فما حكم الله فيما تساوتْ فيه الاجتهادات؟
النبي صلى الله عليه وسلم أوضح لنا هذه القضية في قوله : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حِمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه » .
فهل قال رسول الله : فمَنْ فعل الشبهات أم : فمَنْ ترك الشبهات؟ إذن : مَنْ وقع في الشبهات لم يستبرىء ، لا لدينه ولا لِعرْضه ، وهل يرضى أحد أنْ يُوصَف هذا الوصف؟ وعجيب أن نسمع مَنْ يقول : وما علاقة العِرْض بهذه المسألة؟ نقول : والله حتى غير المؤمن بدين يستنكف أن يقال عنه أنه مُرابٍ ، عِرْضه لا يقبلها فضلاً عن دينه .

لذلك؛ فالمكارون الذين يريدون أن يُغلوها ، ويريدون أن يعيشوا على دماء الناس لا يدرون أن النفعية هي القانون الذي يحكم الله به خَلْقه ، فيجعل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، لذلك يقول اليهود : كيف تُحرِّمون الربا والله يعاملكم به؟

نعم ، الحق – سبحانه وتعالى – يعاملنا بالربا ، ويعطينا بالزيادة؛ لأن هذه الزيادة لا تُنقِص مما عنده سبحانه ، أمّا الزيادة من الناس ومن المحتاجين فإنها ترهقهم وتزيدهم فقراً وحاجة .

ثم دَعْكَ من هذا كله ، وتأمل في المحيط الذي تعيش فيه ، ففي كل بلد أناس يحبون الربا ويتعاملون به ، أرأيتم مرابياً مات بخير؟ أمات مرابٍ وثروته كاملة؟ لا ، لأن الله تعالى لم يكن ليقول { يَمْحَقُ الله الربا . . . } [البقرة : 276] ثم يترك مرابياً ينمو ماله ، ويسلم له إلى أنْ يموت ، فإن اغتنى لحين ، فإنما غِنَاه كيد فيه ، ومبالغة في إيذائه ، كما جاء في الأثر « إذا غضب الله على إنسان رزقه من الحرام ، فإن اشتد غضبه عليه بارك له فيه » .

واقرأ قول الله تعالى : { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ } [الأنعام : 44] .

لذلك نسمع « فلان ماهر في التجارة » ، « فلان يضع يده في التراب يصير ذهباً » . . . الخ .

وسبق أن أوضحنا الفرق بين « فتحنا لهم » و « فتحنا عليهم » : « لهم » أي لصالحم بالخير ، أما « عليهم » فيعني كيداً لهم وتحدياً وإهلاكاً ، فالله تعالى يعطي الكافر ويُوسِّع عليه زهرة الدنيا ، حتى إذا أخذه كان أخْذه أليماً ، كما قلنا : إنك إنْ أردت أنَ تُوقِع عدوك لا توقعه من على الحصير ، إنما من مكان عالٍ حتى يكون السقوط مؤلماً .

وقوله تعالى : { حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا . . . } [الأنعام : 44] والفرح بالنعمة ليس ممنوعاً ، لكن هناك فرح يُحب ، وفرح يُكره ، وإلاَّ فالحق سبحانه نسب الفرح للمؤمنين في قوله تعالى في سورة الروم : { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله . . . } [الروم : 4-5] وقال سبحانه : { فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ الله . . . } [آل عمران : 170] وقال : { فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ . . . } [يونس : 58] فأثبت لهم الفرح المقبول ، وهو الفرح الذي يعقبه قولنا : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ثم تشكر الله الذي أنعم عليك ، أما الفرح المكروه فهوالفرح الذي يُورِثك بَطَراً وأَشَراً وكبراً .

ثم يقول الحق سبحانه : { الله الذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ . . . } .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)

سبق أنْ قلنا : إن قضية الخَلْق مُسلَّم بها؛ لأنها قضية لم يدَّعها أحد لنفسه مع كثرة المتبجحين بالكفر والإلحاد؛ لذلك لما ادَّعاها النمروذ الذي حاجَّ إبراهيم في ربه فقال : أنا أحيي وأميت ،

فعلم إبراهيم عليه السلام أنه يريد اللجاج والسفسطة التي لا طائل منها ، وإلا فكيف يكون الأمر بقتل واحد إماتة ، والأمر بترك الآخر والعفو عنه إحياء؟

ثم ما بال الذين خُلِقوا قبلك وميلادهم قبل ميلادك؟ إذن : أنت لم تخلق ولم تُحي أحداً ، وسبق أنْ بيّنا الفرق بين القتل والموت مع أنهما يشتركان في إنهاء الحياة وإزهاق الروح ، لكن الموت يكون بإزهاق الروح أولاً ، يتبعه نَقْض البنية وتحطم الجسم .

أما القتل فينقض البنية أولاً نَقْضاً يترتب عليه إزهاق الروح فالروح لا تقيم إلا في بنية سليمة ، ومثَّلنا لذلك بلمبة الكهرباء حين تحرق فينطفيء نورها ، فهل يعني ذلك أن التيار انقطع عنها؟ لا بل هو موجود لكنه يحتاج لبنية سليمة بدليل أننا إذا استبدلنا اللمبة تضيء .

والحق – سبحانه وتعالى – يبين لنا هذا الفرق في قوله سبحانه : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أَعْقَابِكُمْ . . . } [آل عمران : 144] إذن : فالنمروذ لا يحيي ، بل يُبقِي على الحياة ، ولا يُميت بل يقتل ويُزهِق الروح .

وكان بمقدور إبراهيم عليه السلام أنْ يردَّ عليه هذه الحجة ، وأنْ يكشف تزييفه ، لكنه أراد أن يأخذه إلى ميدان آخر لا يستطيع التلفيق فيه ولا التمحُّك ، فقال له : { فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذي كَفَرَ . . . } [البقرة : 258] .

كذلك مسألة الرزق فهي مُسلَّمة لله لم يدَّعِها أحد : { خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ . . . } [الروم : 40] .

بدليل أن الله تعالى جعل بعض المناطق جدباء ، يجوع فيها القادر والعاجز ، ويجوع فيها ذو المال وغير ذو المال ، ولو كان هناك رازق غير الله فَلْيُحْي هذه المناطق الجدباء .

وقوله تعالى : { ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . . } [الروم : 40] ولم يقل : يقتلكم { هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذلكم مِّن شَيْءٍ . . . } [الروم : 40] أي : اسألهم هذا السؤال ، ودَعْهم يجيبون هم عليه : أتستطيع الأصنام التي تشركونها مع الله أنْ تفعل شيئاً من الخَلْق أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة؟

أفي قدرتها شيء من ذلك وأنتم الذين تصنعونها وتنحتون حجارتها بأيديكم ، وتُصوِّرونها كما تشاؤون ، فإذا هبَّتْ عاصفة أطاحت بها وربما كسرت ذراع أحد الأصنام فتجتمعون لإقامتها وإصلاحها؟ فأين عقولكم؟ وما هذه الخيبة التي أصابتكم؟

لذلك يقول سبحانه عنهم : { والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ } [النحل : 20] ويقول سبحانه : { إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . . } [الحج : 73] بل وأكثر من ذلك

{ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب } [الحج : 73] .
بالله ، أيستطيع أحد أنْ يستردَّ ما أخذتْه منه الذبابة؟
ونلحظ في الآية تكرار (منْ) وهي للتبعيض : { هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذلكم مِّن شَيْءٍ . . . } [الروم : 40] والمعنى : لا يستطيع أحد من شركائكم أن يفعل شيئاً ولو هيّناً من الخلق ، أو الرزق ، أو الإحياء ، أو الإماتة .
لذلك يجب أنْ تُعلِّقوا على هذه القضايا من الله بقول واحد { سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الروم : 40] لا تعليق إلا هذا .
لذلك لما تكلم سيدنا إبراهيم عن الأصنام قال : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ . . . } [الشعراء : 77] أي : أنتم وما تعبدون من دون الله؛ لأنهم كانوا يشركون آلهتهم مع الله ، فالله سبحانه داخل في هذه الشركة؛ لذلك استثناه ربه { إِلاَّ رَبَّ العالمين * الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء : 77–78] .
وتلحظ هنا في قوله { الذي خَلَقَنِي . . . } [الشعراء : 78] أنه لم يؤكدها بشيء ، ولم يذكر قبل الخَلْق الضمير (هو) ؛ لأن مسألة الخَلْق كما قُلْنا لم يدَّعها أحد ، أمّا في الهداية وهي مجال ادعاء ، فقال (فهو) أي : الحق سبحانه يقصر الهداية على الله { فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء : 78] .
وفي هذا إشارة إلى أن القانون الذي يُنظم حياتي والمنهج الذي يهديني قانون ربي لا آخذه من أحد سواه ، وكثيراً ما نرى مَنْ يدَّعي الهداية ويقول : إنني وضعتُ قانوناً يُسعِد حياة الناس ، ويفعل كذا وكذا ، سمعنا هذه النغمة مرة من الرأسمالية ، ومرة من الاشتراكية ، ومن الشيوعية . . الخ .
إذن : هذا مجال ادعاء واسع ، فقيَّده إبراهيم – عليه السلام – وقصره على الله ، حيث لا منهجَ إلا منهجُ الله ، ولا قانونَ يحكمنا إلا قانون ربنا ، كما نقول في العامية (مفيش إلا هو) .
كذلك في مسألة الإطعام قال : { والذي هُوَ يُطْعِمُنِي . . . } [الشعراء : 79] فاستخدم القصر هنا بذكر الاسم الموصول (الذي) ثم الضمير المفرد الغائب (هو) ؛ ليؤكد أن الذي يطعمه إنما هو الله؛ لأن الإنسان قد يظن أن أباه هو الذي يطعمه ، أو أن أمه هي التي تُطعمه؛ لأنها تُعِد له طعامه ، فهما السببان الظاهران في هذه المسألة ، فاحتاج الأمر إلى أكثر من مؤكد .
ثم يقول عليه السلام : { والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء : 81] هكذا دون توكيد؛ لأن الموت والحياة مسألتان مُسلَّمتان لله مفروغ منهما ، وكذلك : { والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين } [الشعراء : 82] وهذه أيضاً لا تكون إلا لله تعالى .
إذن : ما كان للغير فيه شبهة عمل يؤكدها ويخصُّها لله تعالى ، أما الأخرى التي لا دخْلَ لغير الله فيها فيسوقها مُطْلقة دون اختصاص .

فالتعليق في هذا الأمر العجيب لا يكون إلا بقولنا : { سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الروم : 40] أي : تنزيهاً له عن الشركة ، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، ولم يَقُمْ لهذه القضية منازع ، ولم يدَّعها أحد لنفسه .

إذن : فهي مُسلَّمٌ بها ، وإلا فإنْ كان هناك إله آخر فأين هو؟ ولماذا لم يدافع عن حقه في الألوهية؟ إن كان لا يدري فهو غافل ، وإنْ كان يدري ولم يعارض فهو جبان ، وفي كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

لذلك ربنا حكمها بقضية واحدة ، فقال : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42] .

ثم يقول الحق سبحانه : { ظَهَرَ الفساد فِي البر . . . } .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)

ظهر : بان ووضح . والظهور : أن يُبين شيء موجود بالفعل لكنَّا لا نراه ، وما دام الحق سبحانه قال : { ظَهَرَ الفساد . . . } [الروم : 41] فلا بُدَّ أن الفساد كان موجوداً ، لكن أصحاب الفساد عمُّوه وجَنُّوه إلى أن فقس وفرخ في المجتمع .

والفساد لا يظهر إنما يظهر أثره ، أتذكرون الزلزال الذي حدث والذي كشف الفساد والغش والتدليس بين المقاول والمهندس ، وكانت المباني قائمة والفساد مستتراً إما لغفلتنا عنه ، أو لتواطئنا معه ، أو لعدم اهتمامنا بالأشياء إلى أن طمَّتْ المسائل ، ففضح الله الأرض بالزلزال ، ليكشف ما عندنا من فساد .

فإذا ازداد الغش ، وانتشر وفَاقَ الاحتمال لا بُدَّ أن يُظهره الله للناس ، فلم يَعُدْ أحد قادراً على أن يقف في وجه الفساد ، أو يمنعه؛ لذلك يتدخَّل الحق سبحانه ، ويفضح أهل الفساد ويذيقهم آثار ما عملت أيديهم .

وتأتي ظهر بمعنى « الغلبة » كما في قوله تعالى : { فَأَيَّدْنَا الذين آمَنُواْ على عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ } [الصف : 14] أي غالبين . وفي سورة التحريم : { وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ . . } [التحريم : 4] .

وبمعنى « العلو » في قوله تعالى : { فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً } [الكهف : 97] .

فالمعنى { ظَهَرَ الفساد . . . } [الروم : 41] أي : غلب الصلاح وعلا عليه ، والكون خلقه الله تعالى على هيئة الصلاح ، وأعدّه لاستقبال الإنسان إعداداً رائعاً ، وللتأكد من صدْق هذه المسألة انظر في الكون وأجناسه وأفلاكه وأجوائه ، فلن ترى فساداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان .

أما ما لا تتناوله يد الإنسان ، فلا ترى فيه خللاً؛ لأن الله خلقه منسجمَ الأجناس منسجمَ التكوين : { لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : 40] .

فهل خلقنا الحق سبحانه وخلق اختيارنا لنفسد في الكون؟

لا ، إنما هو ابتلاء الاختيار حين ينزل عليك المنهج ويجعله قانوناً لحركتك بافعل ولا تفعل ، وما لم أقُل فيه (افعل) أو (لا تفعل) فأنت حر فيه ، فلا يحدث من الفعل أو من عدمه ضرر في الكون ، أمّا أنا فقد قلت افعل في الذي يحصل منه ضرر بعدم فعله ، وقلت لا تفعل في الذي يحصل ضرر من فعله .

فالفساد يأتي حين تُدخِل يدك في شيء وأنت تطرح قانون الله في افعل ولا تفعل ، أما الصلاح فموجود وفيه مناعة يكافح بها الفساد ، فإنْ علا تيار الفساد وظهر على الصلاح وغلبه بان للناس .

وعندها يُنبِّهنا الحق سبحانه بالأحداث تطرقنا وتقول لنا : انظروا إلى مَنْ خالف منهج الله ماذا حدث له؛ لذلك في أعقاب الأحداث نزداد عشقاً لله ، وحباً لطاعته ، وترى الناس (تمشي على العجين متلخبطه) ، لكن سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه من الإهمال والغفلة ، على حَدِّ قول الشاعر :

تُروِّعنا الجنَائِزُ مُقْبِلاتٍ ... ونلهُو حِين تَذهَبُ مُدبراتِ

كَرَوْعَةِ ثُلَّةٍ لمغَارِ ذِئْبٍ ... فَلما غابَ عادتْ راتعاتِ

فالحق يقول : { ظَهَرَ الفساد . . . } [الروم : 41] أي : غلب على قانون الصلاح الذي أقام الله عليه نظام هذا الكون ، الذي لو نالتْه يد الإنسان لَفسد هو الآخر ، كما قال سبحانه : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . . . } [المؤمنون : 71] .

فظواهر الكون أشياء وقضايا لكل العامة ، ومن الحكمة إلاّ تنالها يد الإنسان؛ لأن الله تعالى يريد للكون البقاء ، ولم يأْتِ أوان انتهائه ، لذلك الحق سبحانه يجعل فينا مناعة تجعلنا نقبل الفساد إلى حين ، إلى أن يصل إلى درجة التشبُّع ، فتتفجر الأوضاع .

فقوله : { ظَهَرَ الفساد فِي البر . . . } [الروم : 41] نتيجة لدعوته صلى الله عليه وسلم ؛ لأن كلمة (ظهر) تدل على أن شيئاً وقع ، فكأنه يقول لنا : إنْ كررتم الفساد والغفلة تكرَّر ظهور الفساد ، فهو يعطينا مُلخصاً لما حدث بالفعل من عداوتهم لرسول الله ، ومقاطعته وعزله وإغراء السفهاء منهم للتحرش به ، ثم عداوة أصحابه وإجبارهم على الهجرة إلى الحبشة حتى لا يستقر لهم قرار بمكة .

لذلك دعا عليهم رسول الله : « اللهم اشْدُد وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنى

يوسف » فأصابهم الجَدْب والقحط ، حتى رُوِي أنهم كانوا يذهبون للبحر لصيد السمك ، فيبتعد عنهم ولا يستقيم لهم فيعودون كما أتوا .

وهذا معنى { ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر . . . } [الروم : 41] .

ثم يوضح الحق سبحانه سبب هذا الفساد : { بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الناس . . . } [الروم : 41] فتلحظ هنا أن الحق سبانه لما يذكرالرحمة لا يذكر عِلَّتها ، لكن يذكر عِلَّة الفساد؛ لأن الرحمة من الله سبحانه أولاً وأخيراً تفضُّل ، أما الأخذ والعذاب فبَعدله تعالى؛ لذلك يُبَيّن لك أنك فعلت كذا ، وتستحق كذا ، فالعلَّة واضحة .

هناك قضية أخرى أحب أن أوضحها لكم ، وهي أن الحق سبحانه يعامل خَلْقه معاملته في الجزاء ، فالله يقول : { مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . . } [الأنعام : 160] .

إذن : فالحسنة الواحدة تستر عشر سيئات ، وكذلك في جسم الإنسان ، فيقول بعض علماء وظائف الأعضاء والتشريح : إن الكلية بها مليون خلية يعمل منها العُشْر بالتبادل ، فمجموعة تعمل ، والباقي يرتاح وهكذا . فانظر كم ترتاح الخلية حتى يأتي عليها الدور في العمل .

فكأن ربنا – سبحانه وتعالى – خلق لها العشر يقوم مقام المليون؛ لذلك قالوا لو أن في أحد الدواوين عشرة موظفين ، منهم واحد واحد محسن ، يستر إساءة الباقين ، وكثيراً ما تلاحظ هذه الظاهرة في دواوين الحكومة ، فترى غالبية الموظفين منشغلين : هذا يقرأ الجرائد ، وهذا يشرب الشاي ، وآخر لم يأْتِ أصلاً .

وخلف كومة من الملفات تجد موظفاً نحيلاً غارقاً في العمل ، يقصده الجميع ، ويتحمل هو تقصير الآخرين ، ويؤدي عنهم ، وبه تسير دفَّة الأمور ، لكن إنْ فقدنا هذا أيضاً ، فلا بُدَّ أن تأتي { ظَهَرَ الفساد . . . } [الروم : 41] إذن : إن رأيت الفساد فاعلم أنه نتيجة إهمال وغفلة فاقت كل الحدود .

وما دام الحق سبحانه قال : { بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الناس . . . } [الروم : 41] فلا بُدّ أن الفساد جاء من ناحيتهم ، وبالله هل اشتكينا أزمة في الهواء مثلاً؟ لكن نشتكي تلوث الهواء بما كسبتْ أيدي الناس ، أمّا حين نذهب إلى الخلاء حيث لا يوجد الإنسان ، نجد الهواء نقياً كما خلقه الله .

الحق سبحانه تكفَّل لنا بالغذاء فقال : { وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . . } [فصلت : 10] لكنا نشتكي أزمة طعام ، لماذا؟ لأن الطعام يحتاج إلى عمل ، ونحن تكاسلنا ، وأسأنا التصرُّف في الكون ، إما بالكسل والخمول عن استخراج خيرات الأرض وأقواتها ، وإما بالأنانية حيث يضنُّ الواجد على غير الواجد .

وقد قرأنا مثلاً أن أمريكا تسكب اللبن في البحر ، وتعدم الكثير من المحصولات ، وفي العالم أُناس

يموتون جوعاً ، إذن : هذه أنانية ، أما التكاسل فقد حدث منا في الماضي .

وانظر الآن إلى صحرائنا التي كانت جرداء قاحلة ، كيف اخضرت الآن ، وصارت مصدراً للخيرات لما اهتممنا بها ويسَّرنا ملكيتها للناس ، فإنْ ضنَّتْ الأرض في منقطة ما فقد جعل الله لنا سعة في غيرها ، فالخالق سبحانه لم يجعل الأرض لجنس ولا لوطن ، إنما جعلها مشاعاً لخَلْق الله جميعاً .

واقرأ قوله تعالى : { أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا . . . } [النساء : 97] .

ولذلك قلت في هيئة الأمم : إن في القرآن آية واحدة ، لو أخذ العالم بها لضمنت له الرخاء والاستقرار والأمان ، إنها قوله تعالى : { والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ } [الرحمن : 10] فالأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، لكن الواقع خلاف ذلك ، فقد وضعوا للأرض حدوداً ، وأقاموا عليها الحواجز والأسوار ، فإنْ أردتَ التنقّل من قطر إلى آخر تجشَّمت في سبيل ذلك كثيراً من المشاق في إجراءات وتأشيرات . . إلخ .

وكانت نتيجة ذلك أن يوجد في الكون رجال ازدحموا بلا أرض ، وفي موضع آخر أرض بلا رجال ، ولو حدث التكامل بين هذه وتلك لاستقامت الأمور .

إذن : الذين وضعوا الحدود والحواجز في أرض الله أخذوها لأنفسهم ، فلم تَعُدْ أرض الله الواسعة التي تستقبل خَلْق الله من أي مكان آخر ، إنما جعلوها أرضهم ، وأخضعوها لقوانينهم هم ، وتعجب حين تتأمل حدود الدول على الخريطة ، فهي متداخلة ، فترى جزءاً من هذه الدولة يدخل في نطاق دولة أخرى ، على شكل مثلث مثلاً ، أو تمتد أرض دولة في دولة أخرى على شكل لسان أو مناطق متعرجة ، فماذ دُمْتم قد وضعتم بينكم حدوداً ، فلماذا لا تجعلوها مستقيمة؟

وكأن واضعي هذه الحدود أرادوها بُؤراً للخلاف بين الدول ، ولا يخلو هذا التقسيم من الهوى والعصبيات القبلية والجنسية والقومية والدينية ، لكن لو أخذنا بقول ربنا : { والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ } [الرحمن : 10] لما عانينا كل هذه المعاناة .

وقوله تعالى : {كَسَبَتْ . . . } [الروم : 41] عندنا : كسب واكتسب ، الغالب أن تكون كسب للحسنة ، واكتسب للسيئة؛ لأن الحسنة تأتي من المؤمن طبيعة بدون تكلُّف أو افتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المجرد (كسب) .

أما السيئة ، فعلى خلاف الطبيعة ، فتحتاج منك إلى تكلُّف وافتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المزيد الدال على الافتعال (اكتسب) .

أَلاَ ترى أنك في بيتك تنظر إلى زوجتك وبناتك كما تشاء ، أما الأجنبية فإنك تختلس النظرات إليها وتحتال لذلك؟ فكل حركاتك مفتعلة ، لماذا؟ لأنك تفعل شيئاً محرماً وممنوعاً ، أما الخير

فتصنعه تلقائياً وطبيعياً بلا تكلُّف .

كما أن الحسنة لا تحتاج منك إلى مجهود ، أمّا السيئة فتحتاج إلى أنْ تُجنَّد لها كل قواك ، وأن تحتاط ، كالذي يسرق مثلاً ، فيحتاج إلى مجهود ، وإلى محاربة لجوارحه؛ لأنها على الحقيقة تأبى ما يفعل .

ومع ذلك نلحظ قوله تعالى : { بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته فأولئك أَصْحَابُ النار . . . } [البقرة : 81] .

فجعل السيئة كَسْباً لا اكتساباً . قالوا : لأن السيئة هنا صارت عادة عنده ، وسهلت عليه حتى صارت أمراً طبيعياً يفعله ولا يبالي كالذي يفعل الحسنة ، وهذا النوع والعياذ بالله أحب السيئة وعشقها ، حتى أصبح يتباهى بها ولا يسترها ويتبجح بفعلها .

وهذا نسميه (فاقد) ، فقد أصبح الشر والفساد حرفة له ، فلا يتأثر به ، ولا يخجل منه كالذي يقبل الرِّشْوة ، ويفرح لاستقبالها ، فإن سألته قال لك : وماذا فيها؟ أنا لا أسرق الناس .

وقوله تعالى : { لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذي عَمِلُواْ . . . } [الروم : 41] الإذاقة هنا عقوبة ، لكنها عقوبة الإصلاح كما تعاقب ولدك وتضر به حرصاً عليه ، وسبق أن قلنا : إنه لا ينبغي أن نفصل الحدث عن فاعله ، فقد يعتدي ولد على ولدك ، فيجرحه فتذهب به للطبيب ، فيجرحه جرحاً أبلغ ، لكن هذا جرح المعتدي ، وهذا جرح المداوي .

وحين يُذيق الله الإنسانَ بعض ما قدَّمت يداه يوقظه من غفلته ، ويُنبّه فيه الفطرة الإيمانية ، فيحتاط للأمر ولا يهمل ولا يقصر ، وتظل عنده هذه اليقظة الإيمانية بمقدار وَعْيه الإيماني ، فواحد يظلّ يقظاً شهراً ، ثم يعود إلى ما كان عليه ، وآخر يظل سنة ، وآخر يظل عمره كله لا تنتابه غفلة .

وقد أذاق اللهُ أهلَ مكة عاقبة كفرهم حتى جاعوا ولم يجدوا ما يأكلونه إلا دَمَ الإبل المخلوط بوبرها ، وهو العِلْهِز .

وقوله : { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الروم : 41] لأن الكلام هنا في الدنيا ، وهي ليستْ دار جزاء ، فالحق يُذيقهم بعض أعمالهم ليلتفتوا إليه سبحانه ، ويتوبوا ويعودوا إلى حظيرة الإيمان؛ لأنهم عبيدة ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها .

والحق سبحانه ساعة يقول { ظَهَرَ الفساد . . . } [الروم : 41] أي : على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُبيّن لنا أن الرسل إنما جاءوا لإنقاذ البشرية من هذا الفساد ، لكن ما دام الأمر عُلِّل فالأمر يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، فكلما ظهر الفساد حلَّتْ العقوبة ، فخذوها في الكون آية من آيات الله إلى قيام الساعة .

فظهر الفساد قديماً { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ

الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

[العنكبوت : 40]

لكن هذا الأخْذ كان قبل سيدنا رسول الله في الأمم السابقة ، وكان هلاك استئصال؛ لأن الرسل السابقين لم يُكلَّفوا بالمحاربة لأجل نَشْر دعوتهم ، فما عليهم إلا نشر الدين وتبليغه ، مع التأييد بالمعجزات ، فإنْ تأبَّى عليهم أقوامهم تولَّى الحق سبحانه عقابهم ، أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد أكرمهم الله بألاَّ يعاقبها بعذاب الاستئصال . { وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال : 33] .

ثم سيظهر الفساد حديثاً وسيحدث العقاب . إذن : ليست الأمة الإسلامية بِدَعاً في هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض . . . . } .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42)

السير : الانتقال من حيز مكاني إلى حيز آخر ، وسبق أنْ قلنا : إن النظرة السطحية في ظاهر الأمر أن السير يكون على الأرض لا فيها؛ لأننا نسكن على الأرض لا فيها ، لكن الحق سبحانه يُبصرنا بقوله : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض . . . } [الروم : 42] أن الأرض ليست هي اليابسة والماء على سطح الكرة الأرضية ، أما الأرض فتشمل غلافها الجوي لذلك يدور معها وهو إكسير الحياة فيها؛ فلا حياة لها إلا به .

إذن : فهواء الأرض من الأرض ، وهو أهم الأقوات للأحياء عليها ، فحين يقول تعالى : { وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . . } [فصلت : 10] فالهواء داخل فيها ، لذلك قال { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض . . . } [الروم : 42] .

وقلنا : لو أنك استقرأتَ أجناس الوجود لوجدت أنك الجنس الأعلى في الكون ، وكل الأجناس تحتك تخدمك ، فأنت تنتفع بالحيوان وبالنبات وبالجماد ، فأدنى الأجناس في الكون وهو الجماد له مهمة يؤديها .

فأنت أيها الإنسان الذي كرَّمك الله على كل أجناس الوجود إذا لم تبحث لك عن مهمة تؤديها في الحياة ، ودور تقوم به ، فأنت أقل منزلةً من أدنى الأجناس وهو الجماد ، إذا لم تبحث بعقلك عن شيء ترتبط به يناسب سيادتك على مَنْ دونك ، فأنت أتفه من الحجر؛ لأن الحجر له مهمة يؤديها ، وأنت لا مهمةَ لك .

لكن هذا الجنس الأدنى إنْ أراد سبحانه أعطاه عزة فوق السيد المخدوم وهو الإنسان ، ففي

فَرْض الحج يُسَنُّ لك أن تُقبّل هذا الحجر ، وتسعى جاهداً لكي تُقبّله ، وتأمل الإنسان – وهو سيد هذا الوجود – وهو يحاول أنْ يُقبّل الحجر ، ويغضب إنْ لم يتمكن من ذلك .

وتأمل الردَّ من دولة الأحجار على مَنْ عبدها من دون الله :

عَبَدُونَا ونَحْنُ أعبَدُ لله ... منَ القائمين بالأسْحارِ

تَخِذُوا صَمْتنَا عَليْنَا دَليلاً ... فَغدوْنَا لَهُم وقُودَ النارِ

قَدْ تجنَّوا جَهْلاً كما قَدْ تجنَّوْه ... علَى ابْن مريم والحَوارِيَ

للمغَالِي جَزَاؤه والمغَالَي فيهِ ... تُنجِيهِ رَحْمَةُ الغفَّارِ

ثم يقول سبحانه : { فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلُ . . . } [الروم : 42] فالسير في الأرض يكون إما للسياحة والتأمل في آيات الله في كونه ، لذلك يستخدم فيها الفاء { فانظروا . . . } [الروم : 42] أو يسير في الأرض لطلب الرزق .

وفي آية أخرى : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا . . . } [الأنعام : 11] والمعنى : سيروا في الأرض للاستثمار ، وطلب القوت ، وقضاء المصالح ، لكن لا يفوتكم النظر والتأمل في آيات الله وفي مخلوقاته لتأخذوا منها العبرة والعظة .

ومعنى : { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلُ . . . } [الروم : 42] أي الذين ظهر الفساد بينهم ، فأذاقهم الله الألم بما كسبتْ أيديهم ، فهذه ليست عندك وحدك ، إنما حدثتْ في الأمم السابقة ، كما قال سبحانه : { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ } [الصافات : 137] .

فهناك مدائن صالح والأحقاف وعاد وثمود والفراعنة . . إلخ انظر ما حلَّ بهم بعد الحضارة والنضارة ، بعد ما توصلوا إليه من علم التحنيط الذي لم يعرف العلم أسراره حتى الآن ، ويضعون مع جثث الموتى حبوب القمح أو الشعير ، فتظل على حالها ، بحيث إذا زُرِعت بعد آلاف السنين تنبت .

إنها قدرة علمية فائقة ، ومع ذلك ما استطاعت هذه الحضارة أن تحمي نفسها من الاندثار ، وإذا كان القرآن قد قال عن الحضارة الفرعونية { وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد } [الفجر : 10] فقد قال عن إرم { التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد } [الفجر : 8] .

فأيُّ حضارة هذه؟ وأين هي الآن؟ طمرتها رمال الأحقاف ، ودفنتها تحت أطباق الثرى ، ولا تعجب من ذلك ، ففي هذه المنطقة إنْ هبَّتْ عاصفة واحدة ، فإنها تغطي قافلة كاملة بجمالها ورجالها تحت الأرض ، فما بالك بالعواصف منذ قرون طوال؛ لذلك نجد كل الآثار يتم التنقيب عنها حَفْراً .

إذن : فالحضارات مع عظمها لم تستطع أنْ تحمي نفسها من الزوال ، وهذا دليل على وجود قوة أعلى منها تزيلها وتقضي عليها .

وقوله تعالى : { كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ } [الروم : 42] أي : أن القليل منهم لم يكُنْ مشركاً ، قالوا : هذه القِلّة هم الصبيان والمجانين ، ومن ليس له إرادة حرة ، وإن أخذت هذه القلة مع الكثرة المشركة ، فإن الله إنما أراد بهم خيراً؛ لأن مثواهم إلى الجنة بغير حساب .

لذلك لما تكلمنا عن موسى والعبد الصالح في سورة الكهف : لما قتل الخضر الغلام تعجَّب موسى ، ففي المرة الأولى خرق السفينة واعتدى على ملْك ، أما في هذه المرة فقد أزهق روحاً؛ لذلك قال في الأولى { لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً } [الكهف : 71] أي : عجيباً ، أما في الثانية فقال : { لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً } [الكهف : 74] .

ثم بيَّن الخضر الحكمة من قتل الغلام فقال : إن له أبوين صالحين ، وفي علم الله تعالى أنه سيفسد عليهما دينهما؛ لأن الفتنة تأتي الإنسان غالباً من الزوجة أو من الولد ، كما قال سبحانه : { إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم . . . } [التغابن : 14] لماذا؟ لأنهما يحملانك على ما لا تطيق ، ويضطرانك ربما للسرقة أو للرشوة لتوفر لهما ما يلزمهما ، ولأن الفساد يأتي من ناحيتهما قال سبحانه : { مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً } [الجن : 3] يعني : طمئنوا عبادي ، فلا أحد يؤثر على إرادتي .

إذن : فالخضر صنع الجميل بالوالدين ، حيث أنقذهما من هذا الابن ، وصنع أيضاً جميلاً بالغلام حيث قتله قبل سِنّ التكليف ، وجعل مصيره إلى الجنة ، وربما لو تركه لكان كافراً بالله عاقاً لوالديه ، وهذا كله إنما جرى بأمر الله وحكمه : { وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي . . . } [الكهف : 82] .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يقول لنبيه في هذه المسألة بداية من { ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الناس . . . } [الروم : 41] ثم إنزال العقاب بهم جزاء ما عملتْ أيديهم وأجبتُك في دعوتك عليهم .

كل ذلك إنما يعني أنني أقوّي مركزك ، ولن أتخلى عنك ، وما دام الأمر كذلك فإياك أن يُؤثّر فيك مكرهم أو تركن إلى أحد منهم ممَّنْ قالوا لك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، لكن يقول الحق سبحانه : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينَ القيم . . . } .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)

قوله تعالى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينَ القيم . . . } [الروم : 43] يعني اطمئن يا محمد ، وتفرغ لعبادة الله لأنني وعدتُك بالنصر ، وأجبتُك حين قُلْت : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف » . { فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [غافر : 77] يعني : مَنْ لم تَنَلْهُ عقوبة الدنيا نالته عقوبة الآخرة .

وقال : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ . . . } [الروم : 43] لأن الوجه محلُّ التكريم ، وسيد الكائن الإنساني

، وموضع العزة فيه ، بدليل أن السجود والضراعة لله تعالى تكون بوضع هذا الوجه على الأرض؛ لذلك حين ترسل شخصاً برسالة أو تُكلِّفه أمراً يقضيه برِجْله ، أو بيده ، أو بلسانه ، أو بأيِّ جارحة من جوارحه تقول له : أرجو أنْ تُبيِّض وجهي؛ لأن الوجه هو السيد .

ومن ذلك قوله تعالى : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . } [القصص : 88] لأنك لا تعرف سمة الناس إلا بوجوههم ، ومَنْ أراد أنْ يتنكر أو يُخفي شخصيته يستر مجرد عينيه ، فما بالك إنْ ستر كل وجهه ، وأنت لا تعرف الشخص من قفاه ، ولا من كتفه ، ولا من رجله ، إنما تعرفه بوجهه ، ويقولون : فلان وجيه القوم ، أو له وجاهته في القوم ، كلها من ناحية الوجه .

وما دام قد خصَّ الوجه ، وهو أشرف شيء فيك ، فكُلُّ الجوارح مقصودة من باب أَوْلَى فهي تابعة للوجه ، فالمعنى : أقِم يدك فيما أمرك الله أن تفعل ورجلك فيما أمرك الله أنْ تسعى ، وقلبك فيما أمرك الله أن تشغل به ، وعينك فيما أمرك الله أن تنظر فيه . . الخ .

يعني : انتهز فرصة حياتك { مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ . . . } [الروم : 43] هو يوم القيامة { لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله . . . } [الروم : 43] المعنى : أن الله حين يأتي به لا يستطيع أحد أنْ يسترده من الله ، أو يأخذه من يده ، أو يمنعه أنْ يأتي به ، أو أنه سبحانه إذا قضي الأمر لا يعود ولا يرجع فيه .

فكلمة { مِنَ الله . . . } [الروم : 43] تعطينا المعنيين ، كما في قوله تعالى : { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله . . } [الرعد : 11] فكيف تحفظه المعقِّبات من أمر الله؟ قالوا : كونهم مُعقِّبات للحفظ أمر صادر من الله أصلاً ، وبناءً على أمره تعالى بالحفظ .

وقوله : { يَوْمَئِذٍ . . . } [الروم : 43] يعني : في اليوم الذي لا مردَّ له من الله { يَصَّدَّعُونَ } [الروم : 43] أي : هؤلاء الذين تكاتفوا على حربك وعلى عداوتك وإيذائك ، وتعصَّبوا ضدك { يَصَّدَّعُونَ } [الروم : 43] أي : ينشقُّون بعضهم على بعض ، ويتفرقون ، وقد وردت هذه المسألة في آيات كثيرة .

والتفريق إما إيمان وكفر أي : أشقياء وسعداء ، وإما أن يكون التفريق في القوم الذين عاندوا واتبعوا أتباعهم على الشرك ، فيتبرأ كل منهم من الآخر ، كما قال سبحانه : { إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا . . . } [البقرة : 166] .

ثم قال الحق ليبين لنا ذلك التفريق في الآخرة بعلّته ، وعِلَّته ما حدث في الدنيا ، فالله تعالى لا يظلم أحداً ، فقال بعد ذلك : { مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ . . . } .

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44)

ما دامت القيامة أمراً لا مردَّ له من الله ، فلننتبه للعواقب ، ولنحسب لها حساباً ، فمَنْ كفر فعليه كفره ، عليه لا له ، وهذه قضية تقتضي أن نقول في مقابلها : ومَنْ آمن فله إيمانه .

بعد أن بيَّن الدلائل الواضحة على واحديته في الكون ، وأحديته في ذاته سبحانه ، وبيَّن الأدلة الكونية بكُلِّ صورها برهاناً وحجةً ، وضرب أمثالاً وتفصيلاً بعد ذلك قال : سأقول لكم أنكم أصبحتم مختارين أي : خلقتُ فيكم الاختيار في التكليف حتى لا أقهر أحداً على الإيمان بي .

وخَلْق الاختيار في التكليف بعد القهر في غير التكليف يدلُّ على أن الله تعالى لا يريد من عباده قوالب تأتمر بأمر القهر ، ولكنه يريد أنْ يجذب الناس بمحبوبيتهم للواحد الأحد .

وإلا فكان من الممكن أن يخلقهم جميعاً مهتدين ، وأنْ يخلقهم على هيئة لا تتمكّن من الكفر ، وتسير إلى الطاعة مرغمة ، كما قال سبحانه حكاية عن السماء والأرض : { أَتَيْنَا طَآئِعِينَ } [فصلت : 11] وذلك يُفسِّر لنا أمانة خَلْق الاختيار في الناس .

والحق – سبحانه وتعالى – حينما تكلم عن هذه المسألة بوضوح قال : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا . . . } [الأحزاب : 72] والإباء هنا ليس إباء تكبُّر على مراد الله ، إنما وضعوا أنفسهم في الموضع الطبيعي ، فقالوا : لا لحمل الأمانة؛ لأننا لا نأمن أنفسنا ولا نضمنها عند الأداء .

والإنسان كذلك ابن أغيار ، فقد يحمل الأمانة ، ويضمن أداءها في وقت التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه عند الأداء ، وسبق أن مثَّلْنا لذلك بمَنْ يقبل الأمانة ، ويرحب بها عند التحمل ، ثم تطرأ عليه من أحداث الحياة ما يضطره لأنْ يمدَّ يده إلى هذه الأمانة وإنْ كان في نيته الأداء ، لكن يأتي وقته فلا يستطيع ، وآخر يُقدِّر هذه المسئولية ويرفض تحمل الأمانة ، وهذا هو العاقل الذي يُقدِّر الظروف وتغيّر الأحوال .

ومعلوم أن الأمانة لا تُوثَّق ، فإنْ كتبتَ وشهد عليها فإنها لم تَعُدْ أمانة ، فالأمانة إذن مردُّها لاختيار المؤتمن إنْ شاء أقرَّ بها ، وإنْ شاء أنكرها .

فالحق سبحانه قال حكاية عن السماوات والأرض والجبال { فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا . . } [الأحزاب : 72] لأنهم يُقدِّرون مسئوليتها ، أما الإنسان فقد تعرَّض لحملها وقال : عندي عقل أفكر به ، وأختار بين البدائل ، وسوف أؤدي ، فضمن وقت التحمل ، لكنهن لا يضمن وقت الأداء ، فظلم نفسه وجهل حقائق الأمور .

{ وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72] ظلوماً لنفسه ، جهولاً بما يمكن أنْ يطرأ عليه من الأغيار .

وما دام الإنسان ابن أغيار ، فإنه لا يثبت على حال؛ لذلك قلنا : إذا صعد الإنسان الجبل إلى قمته وهو ابن أغيار فليس أمامه إلا أنْ ينزل ، والعقلاء يخافون أنْ تتم لهم النعمة؛ لأنه ليس بعد التمام إلا النقصان ، كما قال الشاعر :

إِذَا تَمَّ شيء بَدا نَقْصُه ... ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ

فإذا قلت : لماذا خلق الله الاختيار في الإنسان ولم يخلقه في الأجناس التي تخدمه من جماد ونبات وحيوان؟ نقول : كُنْ دقيقاً ، وافهم أنها أيضاً خُيّرت بقوله تعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ . . . } [الأحزاب : 72] .

إذن : هذه الأجناس أيضاً خُيِّرت ، لكنها اختارت اختياراً واحداً يكفيها كل الاختيارات ، فقالت : نريد يا رب أنْ نكون مقهورين لكل ما تريد .

ولما كنا مختارين أعطانا الله تعالى هذه القضية : { مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ . . . } [الروم : 44] وكلمة (عَلَيْه) تفيد الدَّيْن والوِزْر ، و (له) تفيد النفع ، فإذا جئنا بالمقابل بقول : ومَنْ آمن فله إيمانه ، كما في : { إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار : 13-14] .

لكن القرآن لم يَأْت بهذا المقابل ، إنما عَدَل إلى مسألة أخرى : { وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ } [الروم : 44] فلماذا؟ قالوا : لأن فائدة الإيمان أن تعتقد بوجود إله قادر واحد هو الله فتؤمن به ، فإذا ما أمرك تطيع ، فعِلَّة الإيمان التكليف؛ لذلك حين تبحث أيَّ تكليف إياك أنْ تنظر إلى عِلَّته فتقول : كلفني بكذا لكذا ، فعِلَّة التكليف وحكمته عنده تعالى .

فإذا قلنا مثلاً : حكمة الصيام أنْ يشعر الغنيُّ ويذوق ألم الجزع فيعطف على الفقير ، فهل يعني هذا أن الفقير المعدَم لا يصوم؟ إذن : ليست هذه حكمة الصيام ، والأصوب أنْ تقول : أصوم؛ لأن الله أراد مني أن أصوم ، وحكمة الصيام عنده هو .

ومثَّلنا لذلك ولله تعالى المثل الأعلى : أنت حين تشكو مرضاً أو ألماً تسأل عن الطبيب الماهر والمتخصص حتى تنتهي إليه ، وعندها تنتهي مهمة عقلك ، فتضع نفسك بين يديه يفحصك ويُشخِّص مرضك ، ويكتب لك الدواء ، فلا تعارضه في شيء ، ولا تسأله لماذا كتب هذا الدواء .

فإذا سألك زائر مثلاً : لماذا تأخذ هذا الدواء؟ لا تقول : لأن من خصائصه كذا ، ومن تفاعلاته كذا ، إنما تقول : لأن الطبيب وصفه لي ، مع أن الطبيب بشر قد يخطيء ، وقد يكتب لك دواءً ، أو يعطيك حقنة ترديك ، ومع ذلك تُسلِّم له بما يراه مناسباً لك ، فإذا كنت لا تناقش الطبيب وهو خطأ ، فكيف تناقش الله فيما فرضه عليك وتطلب علَّة لكل شيء؟

ولا يناقش في عِلَل الأشياء إلا المساوي ، فلا يناقش الطبيبَ إلى طبيبٌ مثله ، كذلك يجب أنْ نُسلِّم لله تعالى بعلل الأشياء وحكمتها إلى أنْ يوجد مُسَاوٍ له سبحانه يمكن أنْ يناقشه .

والحق سبحانه يُبيّن لنا عِلَّة الإيمان – لا الإيمان في ذاته – إنما ما يترتب عليه من طاعة أوامر هذا الإله ، وعلى طاعة هذه الأوامر الأوامر يترتب صلاح الكون ، بدليل أن الله يطلب من المؤمنين أنْ ينشروا الدعوة ، وأن يُبلِّغوها ، وأن يحاربوا مَنْ يعارضها ويمنعهم من نشرها .

فما شُهر السيف في الإسلام إلا لحماية بلاغ الدعوة ، فإنْ تركوك وشأنك فدَعْهم ، بدليل أن البلاد التي فتحها الإسلام ظل بها أصحاب ديانات أخرى على دياناتهم ، وهذا دليل على أن الإسلام لم يُرغِم أحداً على اعتناقه .

لكن ما دام الإسلام قد فتح البلاد فلا بُدَّ أنْ تكون له الغَلَبة ، وأنْ يسير الجميع معه في ظِلّ منهج الله ، فيكون للكافرِ ولغير ذي الدين ما لصاحب الدين .

فكأن الحق سبحانه يريد لقوانينه أنْ تحكم آمنت به أو لم تؤمن؛ لأن صلاح الكون لا يكون إلا بهذه القوانين .

إذن : فأنت حُرٌّ ، تؤمن أو لا تؤمن ، لكن مطلوب ممَّنْ آمن أنْ يحمي الدعوة في البلاغ ، ثم يترك الناس أحراراً ، مَنْ آمن فبها ونعمت ، ومَنْ أبى نقول له : لك ما لنا ، وعليك ما علينا .

إذن : فأصل الإيمان لصلاح الخلافة ، ولا يهتم الله سبحانه بأنك تؤمن أو لا تؤمن ، ما دام منهج الخلافة قائماً ، وهذا المنهج يعود نفعه على المؤمن وعلى الكافر ، فإذا كان الإيمان يُربِّي الإنسان على ألاّ يفعل إلا خيراً وصلاحاً ، فالكافر لا بُدَّ وأن يستفيد من هذا الصلاح . وهل قال الشرع للمؤمن : لا تسرق من المؤمن؟ لا إنما أيضاً لا تسرق من الكافر . . الخ ، فالكل أمام منهج الله سواء .

وفي القرآن آية ينبغي أنْ نتنبه لها ، ونعرف غير المؤمنين بها ، ليعلموا أن الإيمان إنما يحمي مصلحة الناس جميعاً ، إنها قوله تعالى : { إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً * واستغفر الله . . . } [النساء : 105-106] يعني : إنْ خطر لك أن تكون لصالح الخائن ، استغفر الله من هذا { إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً } [النساء : 107] ولو كان مؤمناً به .

ولهذه الآية قصة مشهورة هي قصة اليهودي زيد بن السمين ، وقد جاءت طعمة بن أبيريق – وكان مؤمناً – وقال : يا زيد خُذْ هذه الدرع أمانة عندك فقبله زيد ، وإذا بالدرع مسروق قد سرقه ابن أبيريق من قتادة بن النعمان ووضعه في جوال من الدقيق ، فكان على الدرع آثار الدقيق ، فلما بحث ابن النعمان عن دِرْعه دَلّه أثر الدقيق على بيت ابن السمين اليهودي فاتهمه بسرقته .

ثم جاءوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليحكم في أمره ، فقصَّ عليه ما كان من أمر ابن أبيريق ، وأنه وضعه عنده على سبيل الأمانة .

وعندها عَزَّ على المسلمين أن يسرق واحد منهم ، وأن يأخذها اليهود ذِلّة في حَقِّهم ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يدير الأمر في رأسه ، فإنْ حكم على المسلم أخذها اليهود حجة ، وإنْ حكم للمسلم كانت عيباً وسُبَّة في الدين ، فأسعفه ربه بهذه الآية : { إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب

بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً } [النساء : 105] فقال : بين الناس لا بين المؤمنين فحسب .

ومعنى { وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً } [النساء : 105] البعض يقولون : لا تخاصم الخائن حتى لا يضطهدك ، إنما المراد : لا تكُنْ خصيماً لصالحه . { واستغفر الله . . . } [النساء : 106] إنْ طرأتْ عليك مسألة الإسلام وصورته بين غير المسلمين؛ لأن الله في مبدأ الإصلاح لا يحب كل خوَّان أثيم .

ولو أن غير المسلمين تنبهوا إلى هذه القضية ، وعلموا أن الله تعالى عدل الحكم للمؤمنين ، وأعلنه لرسول الله ، وقرر أن الحق هو الحق ، والكل أمامه سواء المؤمن وغير المؤمن لعلموا أن الإسلام هو الدين الحق ولأقبلوا عليه ، لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من عادى ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة » .

لأنك إنْ عاديتَه واضطهدته أو هددتْه في حياته ، أو في عِرْضه ، أو في ماله لصارتْ حجة له في ألاَّ يؤمن ، وله أنْ يقول : إذا كان هذا هو حال المؤمنين ، فما الميزة في الإسلام حتى أعتنقه؟ بل من مصلحتي أنْ أبتعد عنه ، لكن إنْ عاملتَه بالحق وبالخير والحسنى لعطفته إلى الإسلام ، وجعلته يُؤنِّب نفسه ألاَّ يكون مسلماً .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن سيدنا إبراهيم – على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام – جاءه رجل فاشتمَّ منه أنه غير مسلم ، فلما سأله قال : أنا مجوسي فردَّ الباب في وجهه ، فانصرف الرجل ، وإذا بإبراهيم – عليه السلام – يتلقى الوحي من الله : يا إبراهيم لم تقبل أنْ تُضيِّفه لأنه على غير دينك ، وأنا قبلته طوال عمره في مُلْكي وهو كافر بي .

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به واسترضاه ، فقال الرجل : وماذا جرى لقد طردتني ونهرتني منذ قليل؟ فقال : إن ربي عاتبني في أمرك ، فقال الرجل : إنَّ رباً يعاتب أنبياءه بشأن إعدائه لحقيق أن يُعبد . لا إله إلا الله ، إبراهيم رسول الله .

إذن : نفهم من هذا أن العمل الصالح هو مطلوب الإيمان ، وإذا آمنتَ بإله لتأخذ الحكم منه وأنت مطمئن أنه إله حق ، فلا يهم بعد ذلك أنْ تؤمن أو لا تؤمن المهم قاعدة الصلاح في الكون وفي حركة الحياة؛ لذلك لم يقل ومَنْ آمن فله إيمانه ، كأن المراد بالإيمان العمل { وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ } [الروم : 44] لأنه لا يعمل صالحاً إلا إذا كان مؤمناً .

ونلحظ هنا أن الآية تتحدث عن صيغة المفرد : { مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً . . . } [الروم : 44] ثم يتحول إلى صيغة الجمع { فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ } [الروم : 44] ولم يقُلْ : فهو يمهد لنفسه ، فلماذا؟

قالوا : لأن الذي يعمل الصالح لا يعمله لذاته ، إنما له ولذريته من بعده ، كما جاء في قوله

سبحانه : { والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ . . . } [الطور : 21]
إذن : ساعةَ تكلم عن الإيمان جاء بالمفرد ، وساعةَ تكلم عن الجزاء جاء بصيغة الجمع .
كما أن العمل الصالح يأتي من ذات الإنسان ، ويستقبله هو من غيره ، وكلمة (مَنْ) هنا تصلح للمفرد وللمثنى وللجمع بنوعية ، وتحل محلَّ جميع الأسماء الموصولة تقول : من جاءك فأكرمه ، ومَنْ جاءتك فأكرمها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم .

. الخ . كذلك في هذه الآية استعمل مَنْ للدلالة على المفرد ، وعلى الجمع .
وتأمَّل قوله تعالى : { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ . . . } [النور : 61] وهل يُسلِّم الإنسان على نفسه؟ قالوا : نعم لأن المؤمنين شيء واحد ، إذا سلَّمْتَ على أحدهم فكأنك سلَّمت على الجميع ، وأيضاً إذا قُلْت لصاحبك السلام عليكم يردُّ عليك : وعليكم السلام ، فكأنك سلَّمْتَ على نفسك .
ومعنى { يَمْهَدُونَ } [الروم : 44] مأخوذة من المهْد ، وهو فراش الطفل ، والطفل لا يُمَهده ولا يُسوّيه ويُهيّئه ، ولا بُدَّ له من صدر حنون يُسوّي له مهده ، ويفرشه ويُعده ، فكأن الذي يعمل الصالح في الدنيا يُمهِّد لنفسه فراشاً في الآخرة ، كما يحكي أبو منصور بن حازم عن أبي عبد الله بن الحسين يقول : العمل الصالح يسبق صاحبه إلى الجنة ليمهد له فراشه ، كما يمهد الخادم لأحدكم فراشه .
لذلك سبق أن قلنا : إن الذين يؤثرون على أنفسهم يؤثرون من الفانية ليُدِّخر لهم في الباقية ، و « سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أُهديت له الشاة ، وعاد ليسأل أم المؤمنين عائشة عنها فقال لها : » ماذا صنعت بالشاة؟ « فقالت : ذهبتْ كلُّها إلا كتفها ، يعني : تصدَّقَتْ بها إلا كتفها ، فقال سيدنا رسول الله : » بل ، بقيت كلها إلا كتفها « .
وفي حديث آخر : » يا بْن آدم ، تقول : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما لبسْتَ فأبليتَ ، أو أكلتَ فأفنيتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيت « .
والإمام علي رضي الله عنه يسأله أحدهم : أنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة؟ فقال الإمام : الجواب عندك أنت ، فقال : كيف؟ قال : هَبْ أنه دخل عليك شخص بهدية ، وآخر يطلب منك صدقة فلأيِّهما تبشُّ؟ إنْ كنت تبش لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا وأن كنت تبشّ لطالب الصدقة فأنت من أهل الآخرة .
ذلك لأن الإنسان يحب ما يعمر له محبوبه ، فإنْ كان من أهل الدنيا يحب ما يعمرها له ، وإنْ كان من أهل الآخرة يحب مَنْ يعمر له آخرته .
ثم يعلل الحق سبحانه لماذا يمهدون لأنفسهم : { لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ . . . } .

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45)

وذكر هنا الإيمان فقال { لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ . . . } [الروم : 45] ثم { وَعَمِلُواْ الصالحات . . . } [الروم : 45] حتى لا يظن أحد أن العمل الصالح ربما يُغني عن الإيمان . وهذه مسألة شغلتْ كثيراً من الفلاسفة ، يقولون : كيف أن الرجل الكافر الذي يعمل الصالحات لا يُجازى عليها؟

نقول له : أُجر ويُجازى على عمله الصالح لكن في الدنيا؛ لأنه لم يعمل لله ، بل عمل للشهرة وللصيت ، وقد أخذ منها تكريماً وشهوة وتخليداً لِذكْراه وأقيمت لهم التماثيل . . إلخ ، أما جزاء الآخرة فلمَنْ عمل العمل لوجه الله خالصاً .

والقرآن يُنبّهنا إلى هذه المسألة يقول : إياكم أنْ تُغَشُّوا بمن يعمل الأعمال للدنيا : { وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً } [الفرقان : 23] .

وجاء في الحديث : « فعلتَ ليُقال وقد قيل » نعم بنيت مسجداً ، لكن كتبت عليه : بناه فلان ، وشرَّف الافتتاح فلان . . الخ فماذا تنتظر بعد ذلك ، إن ربك يريد العمل الخالص لوجهه تعالى ، كما جاء في الحديث « ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما فعلت يمينه » .

فقوله تعالى : { لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ . . . } [الروم : 45] يدل على أن العمل الصالح إنْ كان صالحاً بحقٍّ يفيد صاحبه في الدنيا ، لكن لا يفيده في الآخرة إلا أن يكون صادراً عن إيمان بالله ، ثم يربط الإيمان بالعمل الصالح حيث لا يغني أحدهما عن الآخر .

وقوله تعالى : { مِن فَضْلِهِ . . . } [الروم : 45] أي : تفضُّلاً من الله ، حتى لا ينخدع أحد بعمله ، ويظن أنه نجا به ، وهذه المسألة موضع نقاش بين العلماء يقولون : مرة يقول القرآن { مِن فَضْلِهِ . . . } [الروم : 45] ومرة يقول : { ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 32] أي : أنها حق لكم بما قدَّمتم من عمل ، فهل الجنة حق للمؤمنين أم فضل من الله؟

ونقول : العمل الذي يطلبه الله تكليفاً من المؤمنين به يعود على مَنْ؟ يعود على الإنسان ، ولا يستفيد الله منه بشيء؛ لأن له تعالى صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في مُلكي قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلْكي قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد ، فسألني كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كمغرز إبرة إذا غمسه أحدكم في بحر ، ذلك أنِّي جَوَاد ماجد واجد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردتُه أن أقول له : كُنْ فيكون » .

ويقول سبحانه : { مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ . . . }

[النحل : 96] .

إذن : فالأعمال التكليفية لخير الإنسان نفسه ، وإنْ كانت في الظاهر تقييداً لحريته ، فهو مثلاً يريد أنْ يسرق ليزيد ماله ، فنأخذ على يديه ، ونمنعه ونقول له : تنبَّه أننا منعناك من السرقة وأنت واحد ، ومنعنا الناس جميعاً أنْ يسرقوا منك ، فأنت إذن المستفيد من منهج الله ، فلا تنظر إلى ما أخذه منك التكليف ، ولكن انظر إلى ما أعطاك هذا التكليف من الغير .

وما دام التكليف كله في مصلحتك ولخيرك أنت ، فإنْ أثابك الله عليه بعد ذلك فهو فضل من الله عليك ، كما تقول لولدك مثلاً؛ إنْ تفوقت سأعطيك كذا وكذا مع أنه المستفيد من التفوق ، فتكون الجائزة بعد ذلك فضلاً .

كذلك الحق تبارك وتعالى يحب عبده أنْ يتقن عمله ، وأن يجتهد فيه؛ لذلك يعطيه مكافأة عليه مع أننا المستفيدون منه .

ويقول سبحانه : { يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ الله دِينَهُمُ الحق . . . } [النور : 25] فجعله حقاً عليه سبحانه ، كما قال : { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين } [الروم : 47] .

ولو بحثنا كلمة « حق » فلسفياً لوجدنا أن كل حق لك يقابله واجب على غيرك ، فلا يكون حقاً لك إلا إذا كان واجباً على غيرك ، فحقُّك هنا واجب إذن على الله تعالى ، لكن الواجب يقتضي مُوجباً فمَنْ أوجب على الله؟ لا أحد؛ لأنه سبحانه أوجبه على نفسه .

إذن : فالحق الذي جعله لك تفضُّلاً منه سبحانه ، والحق في أنه جعل لك حقاً ، كالذي ليس له حق في الميراث ، فيتفضل عليه واحد في التركة ويجعل له وصية يكتبها له ، فتصير حقاً واجباً ، له أن يطالب الورثة به شرعاً؛ لأن المورِّث تفضَّل وجعله حقاً له .

ثم يقول سبحانه : { إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين } [الروم : 45] نلحظ في الآية أنها تتحدث عن جزاء المؤمنين ، فما مناسبة ذِكْر الكافرين هنا؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يلفت نظر عبده الكافر إلى الإيمان ومزاياه ، كأنه يقول له : تعال إلى الإيمان لتنال هذا الجزاء .

ومثال ذلك – ولله المثَل الأعلى – رجل عنده ثلاثة أولاد وَعَدهم بهدية لكل مَنْ ينجح في دراسته ، فجاء آخر العام ونجح اثنان ، وأخذ كل منهما هديته ، وتألم الوالد للثالث الذي أخفق وتمنى لو كان مثل أخويْه .

وكذلك الحق سبحانه لا يحب الكافرين؛ لأنه يحب أن يكون الخَلْق جميعاً مؤمنين لينالوا جزاء الإيمان؛ لأن الجميع عباده ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها ، وهم خِلْقته وصَنْعته ، وهل رأيتم صانعاً حطم صنعته وكسرها ، إذن : فالله تعالى حريص على عباده حتى الكافر منهم .

وجاء في الحديث القدسي : « قالت السماء : يا رب ائذن لي أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب ائذن لي أنْ أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أن أخرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع

شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لي أن أُغرق ابن آدم ، فقط طَعِم خيرك ومنع شكرك .
فماذا قال الرب الخالق للجميع؟ قال : » دعوني ومن خلقتُ ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم « .

لذلك يفرح الله تعالى بتوبة عبده حين يعود إليه بعد إعراض ، ويضرب لنا سيدنا رسول الله مثلاً لتوضيح هذه المسألة فيقول : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره ، وقد أضله في فلاة » .
فالله لا يحب الكافرين لأنهم لم يكونوا أهلاً لتناول هذا الفضل ، وما ذاك إلا لأنه سبحانه مُحِبٌّ لهم حريص على أن ينالهم خيره وعطاؤه .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح . . . } .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)

هذه نِعَم خمس من نِعَم الله على عباده .
فإرسال الرياح وحدها نعمة ، وتبشيرها بالمطر نعمة ، وإجراء الفُلْك نعمة ، والابتغاء من فضل الله نعمة ، ثم الشُّكْر على هذا كله نعمة أخرى .
والآيات : جمع آية ، وهي كما قلنا : الشيء العجيب الذي يجب أنْ يلفت الأنظار ، وألاَّ يغفل الإنسان عنه طرفة عَيْن ، ومن ذلك قولنا : فلان آية في الفصاحة ، أو آية في الجمال . . إلخ .
وتُطلق الآيات ويراد بها معَان ثلاثة : آيات كونية تلفت إلى المكوّن سبحانه ، وتثبت قدرة الخالق . { وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر . . . } [فصلت : 37] .
وآيات بمعنى المعجزات التي تصاحب الرسل؛ لتثبت صِدْقهم في البلاغ عن الله ، ثم الآيات التي تحمل الشرع والأحكام ، وهي آيات القرآن الكريم التي تحمل إلينا منهج الله .
وآيات بمعنى المعجزات التي تصاحب الرسل؛ لتثبت صِدْقهم في البلاغ عن الله ، ثم الآيات التي تحمل الشرع والأحكام ، وهي آيات القرآن الكريم التي تحمل إلينا منهج الله .
وهنا يتكلم الحق سبحانه عن الآيات الكونية { وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ . . . } [الروم : 46] كلمة الرياح جمع ريح ، والرياح هنا بالمعنى العام : الهواء ، وهو أنواع : هواء ساكن { إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح . . . } [الشورى : 33] .
والهواء الساكن يضايق الإنسان ، حيث يُصعّب عليه عملية التنفس ، فيجلب الهواء لنفسه إما بيده أو بمروحة . لماذا؟ ليجدد الأكسوجين في الهواء المحيط به فيستطيع التنفس ، والهواء يأتي مرة ساخناً يلفح الوجوه ، ومرة نسيماً مُنعِشاً عليلاً ، ويأتي عاصفاً مدمراً . . الخ .

والحق سبحانه – كما سبق أنْ بينَّا – رتَّب مقومات حياة الخليقة في الأرض على : الهواء ، ثم الماء ، ثم الطعام على هذا الترتيب ، وحَسْب أهمية هذه المقومات . فالهواء هو أهم مُقوِّم في حياة الكائن الحي ، حيث لا يصبر عليه الإنسان إلا لحظة بمقدار شهيق وزفير ولو حُبس عنه لمات . ثم الماء ويصبر عليه الإنسان إلى عشرة أيام . ثم الطعام ويصبر عليه إلى شهر .

لذلك من حكمة الخالق سبحانه ألاَّ يُمَلِّك الهواء لأحد ، ولو ملكه أحد وغضب عليك لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك ، أما الماء فقليل أنْ يُملكه للناس ، أما الطعام فكثيراً ما يملك؛ لأن الإنسان يصبر عليه فترة طويلة تُمكِّنه أن يكتسبه ، ويحتال عليه ، أو لعل مالكَ الطعام يرقُّ قلبه ويعطيك .

لذلك نسمع من عبارات التهديد : والله لأكتم أنفاسه ، كأن هذه العملية هي أقسى ما يمكن فِعْله؛ لأنك قد تمنع عنه الماء أو الطعام ولا يموت ، لكن إنْ منعتَ عنهَ الهواء فهي نهايته ، وهي أسرع وسائل الإبادة للإنسان وأيسرها وأقلّها أثراً ، فلا يترتب عليها دم ولا جروح مجرد منديل مبلل بالماء . إذن : الهواء مُقوِّم هام حياة وإماتة .

وقلنا : إذا حُبِس الهواء أو سكن لا يتجدد فيه الأكسوجين فيتضايق الإنسان؛ لأن أنفاسه تكتم ، أما إذا حدثت في المكان رائحة كريهة فترى الجميع يضج : افتحوا النوافذ ، لماذا؟ ليتجدد الهواء .

إذن : إرسال الرياح في ذاتها نعمة ، فإذا كان فيها برودة وشعرت بطراوتها فهي تُبشِّرك بالمطر؛ لذلك كان العربي يعرف المطر قبل وقوعه ويُقدِّر مسافة السحابة التي ستمطره ، إذن : فالتبشير بالمطر نعمة أخرى .

وهاتان النعمتان إرسال الرياح وإنزال المطر ، لا دخلَ للإنسان فيهما { وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ . . . } [الروم : 46] أي : بالمطر أما في آية الفلك { وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ . . . } [الروم : 46] فنسب الجريان إلى الفُلْك لأن للإنسان يداً فيها وعملاً ، فهو صانعها ومُسيِّرها بأمر الله { وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [الروم : 46] أي : تسيرون في البحر للصيد وطلب الرزق ، أو حتى للنزهة والسياحة .

إذن : الآية التي لا دخلَ للإنسان فيها تُنسَب إلى الله وحده ، وإنْ كان للإنسان فيها عمل نسبها إليه ، كما في قوله تعالى : { أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [الواقعة : 58-61] .

فأعطانا نعمة الحياة ، ثم ذكر ما ينقضها ، حتى لا نستقبل الحياة بغرور ، ولما كانت آية الحياة وآية الموت لا دخلَ للإنسان فيها اكتفى بهذا الاستفهام { أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون } [

الواقعة : 59] ولا أحدَ يستطيع أنْ يقول أنا خلقتُ .

أما في آية الحَرْث ، فنسب الحرث إلى الإنسان؛ لأن عمله كثير في هذه الآية ، حيث يحرث ويبذر ويروي . . إلخ لذلك قال في نَقْض هذه النعمة { لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً . . . } [الواقعة : 65] وأكدَ الفعل باللام حتى لا تغترّ بعملك في الزرع .

أما في الماء ، فلم يذكر هذا التوكيد؛ لأن الماء نعمة لا يدَ للإنسان فيها؛ لذلك قال في نقضها { لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً . . . } [الواقعة : 70] بدون توكيد .

النعمة الخامسة : { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [الروم : 46] وهذه النعمة هي كنز النعم كلها وعقالها ، فإنْ شكرتَ لله نعمة عليك زادك منها : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . . . } [إبراهيم : 7] .

وبعد ذلك يُسلِّي الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ . . . } .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)

يعني : يا محمد ، إنْ كنتَ تعبت في الدعوة ، ولقيت من صناديد قريش عنتاً وعناداً وإيذاءً ومكراً وتبييتاً ، فنحن مع ذلك نصرناك ، وخُذْ لك أسوة في إخوانك من الرسل السابقين ، فقد تعرَّضوا لمثل ما تعرضتَ له ، فهل أسلمنا رسولنا لأعدائه؟ إذن : اطمئن ، فلن ينال هؤلاء منك شيئاً .

ومعنى { فَجَآءُوهُم بالبينات . . . } [الروم : 47] أي : الآيات الواضحات التي تثبت صدقهم في البلاغ عن الله ، ومع ذلك لم يؤمنوا وكذَّبوا { فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ . . . } [الروم : 47] وهنا إيجاز لأمر يُفهم من السياق ، فلم يقُل القرآن أنهم كذبوا ، إنما جاء بعاقبة التكذيب { فانتقمنا . . . } [الروم : 47] .

وهذا الإيجاز واضح في قصة هدهد سليمان ، في قوله تعالى : { اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ } [النمل : 28] وحذف ما بين العبارتين من أحداث تُفهَم من السياق ، وهذا مظهر من مظاهر بلاغة القرآن الكريم .

وتكذيب الأمم السابقة للآيات التي جاءتهم على أيدي الرسل دليل على أنهم أهل فساد ، ويريدون أن ينتفعوا بهذا الفساد ، فشيء طبيعي أنْ يعاندوا الرسل الذين جاءوا للقضاء على هذا الفساد ، وأنْ يضطهدوهم ، فيغار الله تعالى على رسله { فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ . . . } [الروم : 47] .

ثم يقرر هذه القضية : { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين } [الروم : 47] وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ، ثم يُسلِمه لأعدائه ، أو يتخلى عنه؛ لذلك قال سبحانه في موضع آخر : { وَلَقَدْ

سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 171-173] .

وسبق أنْ قُلْنا : لا ينبغي أن تبحث في هذه الجندية : أصادق هذا الجندي في الدفاع عن الإسلام أم غير صادق؟ إنما انظر في النتائج ، إنْ كانت له الغلبة فاعلم أن طاقة الإيمان فيه كانت مخلصة ، وإنْ كانت الأخرى فعليه هو أن يراجع نفسه ويبحث عن معنى الانهزام الذي كان ضد الإسلام في نفسه ، لأنه لو كان من جُنْد الله بحق لتحقق فيه { وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 173] ولا يُغلب جند الله إلا حين تنحلّ عنهم صفة من صفات الجندية .

وتأمل مثلاً ما حدث في غزوة أحد ، حيث انهزم المسلمون – وإنْ كانت كلمة الهزيمة هنا ليست على سبيل التحقيق لأن المعركة كانت سجالاً ، وقد انتصروا في أولها ، لكن النهاية لم تكُنْ في صالحهم؛ لأن الرماة خالفوا أمر رسول الله ، والهزيمة بعد هذه المخالفة أمر طبيعي .

وهل كان يسرُّك أيها المسلم أنْ ينتصر المسلمون بعد مخالفتهم أمر رسولهم؟ والله لو انتصروا مع مخالفتهم لأمر رسولهم لهانَ كل أمر لرسول الله بعدها ، ولقالوا : لقد خالفنا أمره وانتصرنا . إذاً فمعنى ذلك أن المسلمين لم ينهزموا ، إنما انهزمت الانهزامية فيهم ، وانتصر الإسلام بصِدْق مبادئه .

كذلك في يوم حنين الذي يقول الله فيه { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ . . . } [التوبة : 25] حتى أن الصِّديق نفسه يقول : لن نُغلَب اليوم عن قلة ، فبدأت المسألة بالهزيمة ، لكن الأمر كما تقول (صعبوا على ربنا) فأنزل السكينة عليهم ، وشاء سبحانه أن يسامحهم في هذه الزلَّة مراعاة لخاطر أبي بكر .

فقوله تعالى { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين } [الروم : 47] نعم ، نصر المؤمنين حَقٌّ على الله ، أوجبه سبحانه على نفسه ، فهو تفضُّل منه سبحانه ، كما يتفضل الموصِي بماله على الموصى له .

ثم يقول الحق سبحانه : { الله الذي يُرْسِلُ . . . } .

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48)

الحق سبحانه يعطينا هنا مذكرة تفصيلية لعملية حركة الرياح ، وسَوْق السحاب ، وإنزال المطر ، وكلمة الرياح إذا جُمِعَتْ دلَّتْ على الخير كما في قوله تعالى : { وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . . } [الحجر : 22] .

أي : تُلقِّح النباتات فتأخذ من الذكَر ، وتضع في الأنثى ، فيحدث الإثمار ، ومن عجيب هذه العملية أن ترى الذكر والأنثى في العود الواحد كما في نبات الذرة مثلاً ، ففي (الشُّوشة) أعلى

العود حبات اللقاح الذكر ، وفي الشعيرات التي تخرج من الكوز متصلة بالحبات توجد أعضاء الأنوثة ، ومع حركة الرياح تتناثر حبات اللقاح من أعلى وتنزل على هذه الشعيرات ، فتجد الشعيرة التي لُقحت تنمو الحبة المتصلة بها ، أما الأخرى التي لا يصلها اللقاح فتموت .

ولذلك نلحظ أن العيدان التي في مهبِّ الريح أو ناحية بحري أقلّ محصولاً من التي تليها ، لماذا؟ لأن الرياح تحمل حبَّات لقاحها إلى العيدان الأخرى التي تليها ، فيزداد محصولها .

فإذا كانت بعض النباتات نعرف فيها الذكر من الأنثى كالنخيل ، والجميز مثلاً ، فأين الذكر والأنثى في القمح ، أو في الجوافة ، أو في الموز .

ولما درسوا حبوب اللقاح هذه وجدوا أن كل حبة مهما صَغُرت فيها أهداب دقيقة مثل القطيفة تتناثر مع الرياح ، ويحملها الهواء إلى أماكن بعيدة؛ لذلك ترى الجبال والصحراء تخضرّ بعد نزول المطر ، فمَنْ بذر فيها هذه البذور؟ إنها الرياح اللواقح بقدرة الخالق عز وجل .

ولنا وَقْفة عند قوله تعالى : { إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ . . . } [الشورى : 33] أي : السفن التي تسير بقوة الرياح تظل راكدة على صفحة الماء لا يحركها شيء ، فإنْ قُلْت : كيف نفهم هذا المعنى الآن مع تقدم العلم الذي سيَّر السفن بقوة البخار والديزل أو الكهرباء ، واستغنى عن الرياح؟

ونقول : الرياح من معانيها الهواء ، وهي أيضاً تعني القوة مطلقاً ، كما في قوله تعالى : { وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . . } [الأنفال : 46] أي : قوتكم ، فالريح تعني القوة على أيِّ وضع ، سواء أسارتْ بالرياح أو بالآلة ، فهو سبحانه قادر على أنْ يُسكنها .

لذلك تجد أن الرياح بمعنى القوة لها قوة آنية ، وقوة آتية ، آنية يعني الآن ، وآتية تأتي فيما بعد ، وكذلك كل إنسان وكل شيء في الكون له نَفَس وريح وكيماوية خاصة به تميزه عن غيره وهذه مهمة كلاب البوليس التي تشم رائحة المتهمين والمجرمين في قضايا المخدرات مثلاً ، فالشخص له رائحة الآن وهو موجود ، وله رائحة تظلّ في المكان حتى بعد أنْ يفارقه .

لذلك يُعلِّمنا القرآن أن الريح هو أثبت الآثار في الإنسان ، واقرأ في ذلك قوله تعالى عن يوسف ويعقوب عليهما السلام : { اذهبوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً . . . } [يوسف : 93] .

وكان يوسف في مصر ، ويعقوب في أرض فلسطين ، فلما فصلت العير بقميص يوسف ، وخرج من نطاق المباني التي ربما حجزتْ الرياح ، قال يعقوب

{ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ . . . } [يوسف : 94] على بُعْد ما بينهما من المسافات .

وإذا أفردت الرياح دلَّتْ على الشر ، ومعنى الرياح أن تأتي ريح من هنا وريح من هنا . . فتأتيك بالأكسوجين أينما كان ، وتحمل إليك عبير العطور في الكون ، فهي إذن تأتيك بالفائدة .

وإذا أُفردت الرياح دلَّتْ على الشر ، ومعنى الرياح أن تأتي ريح من هنا وريح من هنا . . فتأتيك بالأكسوجين أينما كان ، وتحمل إليك عبير العطور في الكون ، فهي إذن تأتيك بالفائدة .

وقلنا : إن الأشياء الثابتة اكتسبتْ الثبات من وجود الهواء في كُلِّ نواحيها وجهاتها ، ولو فرَّغْتَ الهواء من ناحية من نواحي إحدى العمارات لانهارتْ في الحال ، كذلك الريح إنْ جاءت مفردة فهي مدمرة ، وفيها العطب كما في قوله تعالى : { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم } [الذاريات : 41] .

وقال : { بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة : 6] .

فقوله تعالى : { الله الذي يُرْسِلُ الرياح . . . } [الروم : 48] فإرسال الرياح في ذاته نعمة { فَتُثِيرُ سَحَاباً . . . } [الروم : 48] إثارة السحاب أي : تهيجه وتحركه ، وهذه نعمة أخرى .

والسحاب عبارة عن الماء المتبخِّر من الأرض ، وتجمُّع بعضه على بعض في طبقات الجو ، وماء المطر ماء مُقطر بقدرة الله ، كما نُجري نحن عملية التقطير في المعامل مثلاً ، فيأتينا المطر بالماء العَذْب النقي الزلال الذي قطرته لنا عناية الخالق سبحانه دون أنْ ندري .

وإذا كان تقطير كوب واحد يحتاج إلى كل هذه العمليات ، وكل هذه التكلفة ، فما بالك بماء المطر؟

وسبق أنْ قُلْنا : إن من حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل ثلاثة أرباع اليابسة ماء لتتسع رقعة البَخْر ليكفي الربع الباقي ، وضربنا لتوضيح ذلك مثلاً بكوب الماء حين تتركه على المنضدة مثلاً ، وحين تسكبه في أرض الغرفة ، ففي الحالة الأولى يظل الماء فترة طويلة؛ لأن البَخْر قليل ، أما في الأخرى فإنه سرعان ما يتبخر .

ثم يقول سبحانه : { فَيَبْسُطُهُ فِي السمآء كَيْفَ يَشَآءُ . . . } [الروم : 48] وانظر إلى طلاقة المشيئة ، فالمطر يصرفه الله كيف يشاء إلى الأماكن التي تحتاج إلى مطر ، ومن العجيب أن الله تعالى حين يريد أن يرزق إنساناً ربما يرزقه من سحاب لا يمر على بلده ، وانظر مثلاً إلى النيل ، من أين يأتي ماؤه؟ وأين سقط المطر الذي يروي أرض النيل من أوله إلى آخره؟

ومعنى { وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً . . . } [الروم : 48] كسفا : جمع كِسْفة ، وهي القطعة { فَتَرَى الودق . . . } [الروم : 48] المطر { يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ . . . } [الروم : 48] أي : من بين هذه السحب .

{ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الروم : 48] والإصابة قد تكون مباشرة ، فيهطل المطر عليهم مباشرة ، وقد تكون غير مباشرة بأنْ تكون الأرض منحدرة ، فينزل المطر في مكان ويسقي مكاناً آخر ، بل ويحمل إليه الخِصْب والنماء ، كما كان النيل في الماضي يحمل الطمي من الحبشة إلى السودان ومصر .

وكان هذا الطمي يستمر مع الماء طوال مجرى النيل وإلى دمياط ، فلماذا لم يترسب طول هذه المسافات؟

لم يترسب بسبب قوة دفع الماء وشدة انحداره ، بحيث لا يستقر هذا الطمي ولا يترسب .

وقوله : { إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الروم : 48] لأن الرياح حين تمر عليهم تُبشِّرهم بالمطر ، وحين ينزل المطر يُبشِّرهم بالزرع والنماء والخِصْب والخير ، كما قال تعالى : { وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج : 5] .

وأذكر وأنا صغير وبلدنا على النيل ، والنيل من أمامها متسع ، وبه عدة جزر يزرعها الناس ، فأذكر أننا كنا نزرع الذرة ، وجاء الفيضان فأغرقه وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد ، وكان الناس يذهبون إليه ويجمعونه بالقوارب ، ورأيت النساء تزغرد والفرحة على الوجوه ، فكنت أسأل أبي رحمه الله : النيل أغرق الزرع . فلماذا تزغرد النساء؟

فكان والدي يضحك ويقول : تزغرد النساء لأن النيل أغرق الزرع ، وهذا هو مصدر الخير ، وسبب خصوبة الأرض ، فلما كبرتُ وقرأت قصيدة أحمد شوقي رحمه الله في النيل :

مِنْ أيّ عَهْدٍ في القُرَى تتدفَّقُ ... وبأيّ كَفٍّ في المدائن تُغدِق

الماءُ تُرسِلُه فيصبح عَسْجداً ... والأرض تُغرقُها فيحيَا المغرَق

لما قرأتُ هذه القصيدة عرفت لماذا كانت النساء تزغرد حين يُغرق النيلُ الزرعَ .

والاستبشار لنزول المطر يأتي على حسب الأحوال ، فإن جاء بعد يأس وقحط وجفاف كانت الفرحة أكبر ، والاستبشار أبلغ حيث يأتي المطر مفاجئاً { إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الروم : 48] أما إنْ جاء المطر في الأحوال العادية فإن الاستبشار به يكون أقلَّ .

ثم يقول سبحانه : { وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ . . . } .

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49)

معنى { لَمُبْلِسِينَ } [الروم : 49] آيسين من نزول المطر ، فإنْ جاءهم المطر بعد هذا اليأس كانت فرحتهم به مزودجة ومضاعفة .

وللعلماء وقفة حول هذه الآية؛ لأنها كررتْ كلمة من قبل ، وبالتأمل نجد المعنى : من قبل أنْ ينزل عليهم ، وإنْ كانوا من قبل هذا القبل يائسين ، فهنا إذن قبلان .

ولا بُدَّ أن نفهم أن هناك إرسالاً للرياح التي تبشر بالمطر ، وهناك إنزال المطر ، فلما ينزل المطر يكون هناك قبلية له هي الإرسال ، فقبل الإرسال كان عندهم يأس ، وبعد الإرسال قالوا ربما لا تمطر .

إذن : هنا كم قبل؟ قبل الإنزال وقبل الإرسال . فالمعنى : فهُمْ من قبله – أي من قبل أن ينزل المطر – من قبل هذا عندهم يأس .

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)

كأن الحق سبحانه أراد أنْ يستدلَّ بالحَسِّ المنظور في الكون على ما يريد أنْ يخبرنا به من الغيب من أمور البعث والآخرة؛ لذلك يعلل بقوله : { إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الروم : 50] فذكر مع الأرض الفعل المضارع يحيي ، والفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار وهذه عملية مُحسَّة لنا .

أما في إحياء الموتى فجاء بالاسم محيي ، والاسم يفيد ثبوت الصفة؛ ليؤكد إحياء الموتى ، ومعلوم أن الموت لا يشك فيه أحد؛ لأنه مُشَاهد لنا ، أما البعث فهو محلُّ شكٍّ لدى البعض لأنه غيب .

ومع ذلك يقول تعالى عن الموت : { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ } [المؤمنون : 15] ، فيؤكد هذه القضية مرة بإنْ ، ومرة باللام ، والموت شيء واقع لا ننكره ، فلماذا كل هذا التأكيد؟

قالوا : نعم هو واقع لا نشك فيه ، لكنه واقع مغفول عنه ، فكأن الغفلة عنه كالإنكار ، ولو كنتم متأكدين منه ما غفلتم عنه .

فلما ذكر البعث قال : { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ } [المؤمنون : 16] فأكدها بمؤكد واحد ، مع أنه محلُّ شكٍّ ، فكأنه لما قامت الأدلة عليه كان ينبغي ألاَّ يشك فيه؛ لذلك لم يؤكده كما أكَّد الموت ، ولما غفلنا عن الأدلة كان واجباً أنْ يُؤكِّد الموت ، فأكَّد الموت ، ولم يؤكد البعث .

ومعنى { فانظر . . . } [الروم : 50] الأمر بالنظر هنا ليس (فنطزية) ولا (للفرجة) أو التسلية ، لأننا نقول : هذا الأمر فيه نظر يعني : محلاً للبحث والتقصي لنصل إلى وجه الحق فيه ، بترجيح بعض الأدلة على بعض .

إذن : (فانظر) أي : نظر اعتبار وتأمل؛ لأننا نريد أن نقيس الغائب عنا والذي نريد أن نخبر به من أمور الآخرة بالمنظور لنا من إحياء الأرض بعد موتها .

ففي الآية دليل جديد من أدلة قدرة الحق ووحدانيته ، وهو دليل كوني نراه جميعاً ، والحق سبحانه يُلوِّن الأدلة ليلفت المخلوق إلى عظمة الخالق ليؤمن به إلهاً واحداً قاهراً قيوماً مقتدراً ، وهذه الأدلة حجة تضيء العقل ، وآيات في الكون تبرهن على الصِّدق ، وأمثال يضربها للناس في الكون وفي أنفسهم ، ووعد لمن آمن ، ووعيد لمن خالف .

وهنا أيضاً دليل كوني مشهود في الكون ، فالذي أحيا الأرض الميتة كما تشاهدون (لمحي الموتى) في الآخرة كما يخبركم ، وجاء بصيغة اسم الفاعل الدال على ثبوت صفة الإحياء قبل أنْ يُحيي ، كما نقول : فلان شاعر فلم يكتسب هذه الصفة لأنه قال شعراً ، إنما هو إنما هو شاعر قبل أن يقول ، كذلك الخالق سبحانه (محي) قبل أن يوجد منه الفعل ، وقادر قبل أنْ يخلق مقدوراً له ،

وخالق قبل أنْ يخلق خَلْقاً ، فبالصفة فيه سبحانه خلق .

ولكي نُقرِّب الشبة بين إحياء الأرض بالنبات وإحياء الموتى يوم القيامة نقول : لو نظرنا إلى الإنسان لوجدنا هذا الهيكل الضخم الذي يزن إلى مائة كيلو أو يزيد ، أصل تكوينه ميكروب لا يُرَى بالعين المجردة ، حتى قالوا : إن أنسال العالم كله من الحيوان المنوي يمكن أنْ توضع في حجم كستبان الخياطة ، إذا مليء نصفه من المني ، ثم يأخذ هذا الحيوان المنوي من الغذاء من الرزق فينمو ويكبر في الحجم فقط ، لكن تظل الشخصية كما هي .

فإذا مات الإنسان يبْلَى هذا الجسد ، ويتحلل إلا عظمة الذنب ، فتبقى لا تتحلل ولا تأكلها الأرض لتكون هي البذرة التي تنبت الإنسان بقدرة الله يوم القيامة؛ لذلك جاء في حديث إحياء الموتى يوم القيامة؛ « فينبتون كما ينبت البقل » .

ففي هذه العظمة الصغيرة كل صفات الإنسان وخصائصه ، ومنها يعود كما كان قبل الموت ، كما نرى حبة السمسم مثلاً ، فهي رغم صِغَرها إلا أنها تحمل كل خصائص هذا النبات كلها ، إذن : صِغَر الحجم دليل على القدرة ، فإذا ما وضعت هذه الحبة الصغيرة في البيئة المناسبة تأخذ الغذاء من التربة ومن الهواء وتنمو وتكبر ، وهذا النمو وهذا الكبر لا يعطي شخصية جديدة إنما الشخصية ثابتة ، إنما يعطي تكبيراً لها فحسب .

لذلك لما شرَّحوا الأرنب وجدوه صورة طبق الأصل من تشريح الإنسان ، بمعنى أن فيه كل جوارح الإنسان وكل أجهزته ، حتى البعوضة في حجمها الضئيل فيها كل الأجهزة ، لكن أين جهازها الهضمي وجهازها الدموي وجهازها العصبي والسمبتاوي والبولي . . الخ ، فدقَّة هذه المخلوقات دليل على القدرة .

وفي حضارتنا الحالية نجد أن من علامات التقدم العلمي أنْ نُصغِّر الكبير إلى أقصى درجة ممكنة ، وانظر مثلاً إلى الراديو أول ما اخترعوه كان في حجم النورج ، أما الآن فهو في حجم علبة الكبريت .

إذن : فالعظمة أن تضع كل الأجهزة في هذا الحجم الصغير ، أو تجعلها كبيرة فوق العادة وفوق القدرة ، كما في ساعة « بج بن » مثلاً .

لذلك نرى الخالق سبحانه خلق الشيء الدقيق المتناهي في الصِّغَر ، بحيث لا يُدرك بالعين المجردة ، ومع ذلك يحتوي على كل خصائص الشيء الكبير ، وخلق من المخلوقات الضخم الذي لا تستطيع أن تحدَّه .

إذن : حينما ينمو الشيء لا يزداد خصائص جديدة ، إنما تكبُر عنده نفس الخصائص ونفس المشخَّصات الأصلية فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : لو أن إنساناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض والعياذ بالله أفقده نصف وزنه ،

نقول : أين ذهب هذا النقص؟ ذهب إلى فضلات نزلتْ منه؛ لأن الإنسان ينمو حينما يكون الداخل إليه من الغذاء أكثر من الخارج منه من الفضلات ، فإنْ تساوى يقف عند حَدٍّ معين لا يزيد ولا ينقص .

فإذا سخر الله لهذا المريض طبيباً يداويه ، فإنه يستعيد عافيته إلى أنْ يعود إلى وزنه الطبيعي مائة كيلو كما كان ، فهل عاد إليه ما فقده في نقص الوزن ، أم عاد إليه مثله من عناصر الغذاء والتكوين؟ عاد إليه مثل الذي فقده .

إذن : فالشخصية هي هي باقية لا تتغير مع النقص أو الزيادة .

كذلك فالشخصية أو الخصائص موجودة في هذا الميكروب الدقيق أو في هذه الحبة الصغيرة ، إلى أنْ تُوضع في بيئتها المناسبة ، فتعطي نفس الشخصية أو نفس الخصائص لنوعها ، حتى قالوا : إن قدماء المصريين وضعوا مع الموتى بعض الحبوب ، وحفظوها طوال آلاف السنين ، بحيث إذا وُضِعت الحبة منها في التربة المناسبة فإنها تنبت .

فإذا كان الإنسان يستطيع أن يستنبت الحبة بعد بضعة آلاف من السنين ، أيكون عزيزاً على الله أنْ يستنبت بذرة الإنسان ، ويُحيي الذرة الباقية منه في الأرض حين ينزل عليها المطر بأمره تعالى يوم القيامة؟

ثم إن الحبة الواحدة التي يستنبتها الإنسان تعطيه آلافاً من نوعها ، أما بذرة الإنسان والذرة الباقية منه فتعطي شخصاً واحداً لا غير ، أيصعب هذا على القدرة الإلهية .

لذلك يحثُّنا الحق سبحانه على التأمل في قوله { فانظر . . . } [الروم : 50] لا نظر عين ، ولكن نظر تأمُّل وتعقُّل واستنباط ، وربنا ينعى علينا الغفلة في التأمل ، فيقول سبحانه : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] .

ونسمي الجدل لإظهار الحقائق (مناظرة) ، يناظر كل مِنَّا الآخر ، لا نظرَ عين ، ولكن نظر عَقْل واستنباط .

{ فانظر إلى آثَارِ رَحْمَتِ الله كَيْفَ يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الموتى . . . } [الروم : 50] أي : الذي أحياها { لَمُحْيِ الموتى . . . } [الروم : 50] وما دام قد ثبتتْ له صفة الإحياء ، فإذا أخبرك بأنه يُحيي الموتى ، فصدِّق وخُذْ مما شاهدته دليلاً على ما غاب عنك .

ثم يختم الحق سبحانه هذه الآية بصفة أخرى تؤكد صفة الخَلْق والإحياء { وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الروم : 50] فغير أنه سبحانه حيٌّ ومحيي له سبحانه صفات الكمال ، والقدرة على كل شيء علماً وقدرةً وحكمة وبَسْطاً وقبضاً ونفعاً وضراً . . إلخ .

فبعد أنْ ذكر الحدث في الفعل المضارع الدال على الاستمرار { يُحْيِ . . . } [الروم : 50] ذكر الاسم الدال على ثبوت الصفة { لَمُحْيِ . . . } [الروم : 50] ثم جاء بكل صفات

الكمال في { وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الروم : 50] .
يريد الله أن يبين أن الإنسان كنود ، وأنه خُلِق جزوعاً ، إنْ مسَّه الشر يجزع ، وإنْ مسه الخير يمنع ، فلما كان يائساً من الهواء يهبُّ عليه أرسل الله إليه الرياح ، وبعد أنْ كان يائساً من قطرة الماء أنزل الله عليه المطر مدراراً ، فهل أخذ في باله هذا العطاء ، بحيث إذا أصابه يأس من شيء طلب فرجه من الله ، وأزاح اليأس عن نفسه وقال : إن لي رباً ألجأ إليه ، ولا ينبغي لي أن أقنط وهو موجود؟
فالذي فرج عليك من يأس الرياح ومن يأس المطر قادر أنْ يُفرِّج عنك كل كَرْب؛ لذلك ينبغي أن يكون شعار كل مؤمن : لا كرْبَ وأنت ربٌّ ، ما دام لك ربٌّ فلا تهتم ولا تيأس ، فليستْ مع الله مشكلة المشكلة ألاَّ يكون لك ربٌّ تلجأ إليه .

وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر المؤمن له رَبٌّ يلجأ إليه إنْ عزَّتْ عليه الأسباب ، أما الكافر فما أشقاه ، فإنْ ضاقت به الأسباب لا يجد صدراً حنوناً يحتويه ، فيلجأ في كثير من الأحوال إلى الانتحار .
لذلك كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمر يقوم إلى الصلاة ، وكان يقول : « ارحنا بها يا بلال » ففي الصلاة تختلي بربك وخالقك ، وتعرض عليه حاجتك ، وتستمد منه العون والقوة .
كذلك يُعلِّمنا هذا الدرس نبي الله موسى – عليه السلام – فحينما خرج ببني إسرائيل وأدركه فرعون وقومه ، فوجدوا أنفسهم محاصرين ، البحر من أمامهم والعدو من خلفهم ، قالوا لموسى { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } [الشعراء : 61] وهذا منطق البشر وواقع الأشياء ، لكن كان لموسى منطق آخر ينطلق فيه من وجود رَبٍّ قادر يلجأ إليه في وقت الشدة فيفرجها عنه .
فقال موسى بملء فيه (كلا) قالها على سبيل اليقين قَوْلة الواثق من أن ربه لن يتخلى عنه ، لم يقُلْها برصيد من عنده ، إنما برصيد إيمانه في الله { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62] وهذا هو المَفْزَع لكل مؤمن .
لِمَ لا ، وأنت إنْ كانت لديك قضية ترتاح إنْ وكَّلْتَ فيها محامياً يدافعَ عنك ، فما بالك إنْ وكَّلت رب الأرض والسماء ، فكان هو سبحانه المحامي والقاضي والشاهد والمنفِّذ للحكم؟
وأنت ترى القاضي في الدنيا يحكم ببينة قد يُدلِّس فيها ويحكم ، ويحكم بإقرار لا يستطيع أنْ يتنزعه من صاحبه ، أو بشهادة الشهود ، وقد يكونون شهودَ زور ، ثم هو بعد ذلك لا يملك تنفيذ حكمه ، فهناك سلطة قضائية تحكم وسلطة تنفيذية تنفذ ، حتى السلطة التنفيذية يستطيع المجرم أن يفلت منها .
أما في محكمة العدل الإلهي ، فقاضيها هو الحق – سبحانه وتعالى – فلا يحتاج إلى بينة أو إقرار

أو شهود ، ولا يستطيع أحد أنْ يُدلِّس عليه سبحانه ، أو أنْ يُفِلت من حكمة؛ لذلك قال تعالى عن نفسه : { وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين } [الأعراف : 87] .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً . . . } .

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)

لك أن تلحظ الفرق بين أسلوب هذه الآية { وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً . . . } [الروم : 51] والآية السابقة { الله الذي يُرْسِلُ الرياح . . . } [الروم : 48] فيرسل : مضارع دالٌّ على الاستمرار ، والرياح كما قلنا لا تُستعمل إلا في الخير ، فكأن إرسال الرياح أمر متوافر ، وكثيراً ما يحدث فضلاً من الله وتكرُّماً .

أما هنا ، وفي الحديث عن الريح ، وسبق أن قُلْنا : إنها لا تستعمل إلا في الشر ، فلم يقُلْ يرسل ، بل اختار (إن) الدالة على الشك ، والفعل الماضي الدال على الانتهاء لماذا؟ لأن ريح الشر نادراً ما تحدث ، ونادراً ما يُسلِّطها الله على عباده ، فمثلاً ريح السَّمُوم تأتي مرة في السنة ، كذلك الريح العقيم جاءتْ في الماضي مرة واحدة ، كذلك الريح الصرصر العاتية .

إذن : فهي قليلة نادرة ، ومع ذلك إنْ أصابتهم يجزعون ويأسون ، وهذا لا ينبغي منهم ، أليست لهم سابقة في عدم اليأس حين يئسوا من إرسال الرياح ، فأرسلها الله عليهم ومن إنزال المطر فأنزله الله لهم ، فلماذا القنوط والرب موجود؟

ومعنى { فَرَأَوْهُ . . . } [الروم : 51] أي : رأوا الزرع الذي كان أخضر نضراً { مُصْفَرّاً . . . } [الروم : 51] أي : متغيراً ذابلاً { لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ } [الروم : 51] يكفرون باليأس الذي يعزل الحق سبحانه عن الأحداث ، مع أن لهم سابقة ، وقد يئسوا وفرَّج الله عليهم .

ذلك لأن الإنسان لا صبرَ له على البلاء ، فإنْ أصابه سرعان ما يجزع ، ولو قال أنا لي رب أفزع إليه فيرفع عني البلاء ، وأن له حكمة سأعرفها لاستراحَ ولهانَ عليه الأمر .

ولك أنْ تسأل : لماذا قال القرآن { وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا . . . } [الروم : 51] ولم يقُلْ وإن؟ قالوا : هذه اللام الزائدة يُسمُّونها اللام واو القسم واللام مُوطِّئة له ، وللحق سبحانه أن يقسم بما يشاء على ما يشاء ، وكل قسم يحتاج إلى جواب ، تقول : والله لأضربنَّك .

كذلك الشرط في (إن) يحتاج إلى جواب للشرط ، والحق سبحانه هنا مزج بين القسمَ والشرط في جملة واحدة ، فإنْ قلت فالجواب هنا للقسمَ أم للشرط؟

قالوا : فطنة العرب تأبى أنْ يوجد جوابان في جملة واحدة ، فيأتي السياق بجواب واحد نستغني به عن الجواب الآخر ، والجواب يكون لما تقدَّم ، فإنْ تقدم القسَم فالجواب للقسم ، وإنْ تقدَّم الشرط فالجواب للشرط . وهنا { وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً . . . } [الروم : 51] قدم القسم؛ لأن

التقدير : والله لئن أرسلنا ريحاً . .
وكلمة { لَّظَلُّواْ . . . } [الروم : 51] مأخوذة من الظل وظلَّ فعل مَاضٍ ناقص مثل بات يعني في البيتوتة ، وأضحى يعني : استمر في وقت الضحى ، وأمسى في وقت المساء ، كذلك ظلَّ أي : استمر في الوقت الذي فيه ظِلٌّ يعني : طوال النهار ، إذن : نأخذ الزمن من المشتق منه .
ثم يقول الحق سبحانه : { فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى . . . } .

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52)

يريد الحق سبحانه أن يُسلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم حتى لا يألم لما يلاقيه من قومه ، يقول له : يا محمد لا تُتعب نفسك؛ لأن هؤلاء لا يؤمنوا ، وما عليك إلا البلاغ ، فلا تيأس لإعراض هؤلاء ، ولا تتراجع عن تبليغ دعوتك والجهاد في سبيلها والجهر بها؛ لأنني أرسلتك لمهمة ، ولن أتخلى عنك ، وما كان الله ليرسل رسولاً ثم يخذله أو يُسْلمه .
وقد قال تعالى لنبيه : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً } [الكهف : 6] ولو أردتُ لجعلتُهم مؤمنين قَسراً لا يملكون أنْ يكفروا : { إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 4] .
إنما أريد أنْ يأتوني طواعية عن محبة ، لا عن قهر؛ لأنني لا أريد قوالبَ تخضع ، إنما قلوباً تخشع ، ويستطيع أيُّ بشر بجبروته أنْ يجعلَ الناس تخضع له أو تسجد ، لكنه لا يستطيع مهما أُوتِي من قوة أنْ تُخْضِع قلوبهم ، أو يحملهم على حُبِّه .
وهنا يقول تعالى لنبيه : { فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى . . . } [الروم : 52] فجعلهم في حكم الأموات ، وهم أحياء يُرْزَقون ، لماذا؟ لأن الذي لا ينفعل لما يسمع ولا يتأثر به ، هو والميت سواء .
أو نقول : إن للإنسان حياتين : حياة الروح التي يستوي فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، وحياة المنهج والقيم ، وهذه للمؤمن خاصة ، والتي يقول الله فيها : { ياأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ . . . } [الأنفال : 24] .
فهو سبحانه يخاطبهم هذا الخطاب وهم أحياء ، لكن المراد هنا حياة المنهج والقيم ، وهي الحياة التي تُورِثك نعيماً دائماً باقياً لا يزول ، خالداً لا تتركه ولا يتركك .
لذلك يقول سبحانه عن هذه الحياة : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] .
لذلك سمَّى الله المنهج الذي أنزله على رسوله روحاً : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا . . . } [الشورى : 52] لأن المنهج يعطيك حياة باقية لا تنزوي ولا تزول .
وسمَّى الملَك الذي نزل به روحاً : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193] فالمنهج روح من

الله ، نزل به روح من الملائكة هو جبريل عليه السلام على قلب سيدنا رسول الله ليحمله رسول مصطفى فيبثُّه في الناس جميعاً ، فَيحيَوْن الحياة الآخرة .

فالكفار بهذا المعنى يحيَوْن حياة روح القالب التي يستوي فيها جميع البشر ، لكن هم أموات بالنسبة للروح الثانية ، روح القيم والمنهج .

لذلك ، إذا كان عندنا شخص شقي أو بلطجي يفسد في المجتمع أكثر مما يصلح نقول له : أنت وجودك مثل عدمه ، لماذا؟ لأن الحياة إذا لم تُستغل في النافع الدائم ، فلا معنى لها .

وهنا يقول تعالى لنبيه : لا تحزن ، ولا تذهب نفسك على هؤلاء القوم الحسرات ، فهم موتى لم يقبلوا روح المنهج وروح القيم ، وما داموا لم تدخلهم هذه الروح ، فلا أملَ في إصلاحهم ، ولن يستجيبوا لك ، فالاستجابة تأتي من أصغى سمعه ، وأعمل عقله في الكون من حوله ليصل إلى حقيقة الحياة ولغز الوجود .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا سقطتْ بك طائرة مثلاً في صحراء ، وانقطعت عن الناس ، فلا أنيس ولا شيء من حولك ، ثم فجأة رأيتَ أمامك مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، فطبيعي قبل أنْ تمتد يدك إليها لا بُدَّ أنْ تسأل نفسك : مَنْ أتى بها؟

كذلك أنت أيها الإنسان طرأتَ على كون مُعَدٍّ لاستقبالك ، مليء بكل هذا الخير ، بالله ألاَ يستدعي هذا أنْ تسأل مَنْ أعد لي هذا الكون؟

ثم لم يدَّع أحد هذا الكون لنفسه ، ثم جاءك رسول من عند الله يخبرك بحقائق الكون ، ويحل لك لغز الحياة والوجود ، لكن هؤلاء القوم لما جاءهم رسول الله أبَوْا أن يستمعوا إليه ، ولم يقبلوا الروح الذي جاءهم به .

والحق سبحانه يعرض لنا هذه المسألة في آية أخرى : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً . . . } [محمد : 16] وهذا يعني أن روح المنهج لم تباشر قلوبهم .

ويردُّ الحق عليهم : { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } [فصلت : 44] .

فالقرآن واحد ، لكن المستقبل للقرآن مختلف ، فواحد يسمعه بأذن مُرْهفة وقلب واعٍ فيستفيد ، ويصل إلى حَلِّ اللغز في الكون وفي الخَلْق؛ لأنه استجاب للروح الجديدة التي أرسلها الله له ، وآخر أعرض .

وهؤلاء الذين أعرضوا عن القرآن إنما يخافون على مكانتهم وسيادتهم ، فهم أهل فساد وطغيان ، ويعلمون أن هذا المنهج جاء ليقيد حرياتهم ، ويقضي على فسادهم وطغيانهم؛ لذلك رفضوه .

لذلك تجد أن الذين تصدَّوْا لدعوات الرسل وعارضوهم هم السادة والكبراء ، أَلاَ تقرأ قول الحق

سبحانه عن مقالتهم : { إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا } [الأحزاب : 67] .
إذن : لا تتعجب من أنَّ القرآن يسمعه إنسان فيقول مُستلذاً به : الله ، أعِدْ ، وآخر ينصرف عنه لا يدري ما يقول ، والمنصرف عن القرآن نوعان : إما ينصرف عنه تكبُّراً يعني : وعي القرآن وفهمه لكن تكبَّر على الانصياع لأوامره ، وآخر سمعه لكن لم يفهمه؛ لأن الله ختم على قلبه .
ومهمة الداعي أنْ يتعهد المدعو ، وألاَّ ييأس لعدم استجابته ، وعليه بتكرار الدعوة له ، لعله يصادف عنده فترة صفاء وفطرة ، وخلو نفس ، فتثمر فيه الدعوة ويستجيب .
وإلا فقد رأينا من أهل الجاهلية مَنْ أسلم بعد فترة طويلة من عمر الدعوة أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة ، وغيرهم .
ونعلم كم كان عمر بن الخطاب كارهاً للإسلام معادياً لأهله ، وقصة ضَرْبه لأخته بعد أنْ أسلمتْ قصة مشهورة لأنها كانت سبب إسلامه ، فلما ضربها وشجَّها حتى سال الدم منها رقَّ قلبه لأخته ، فلما قرأت عليه القرآن صادف منه قلبه صافياً ، وفطرة نقية نفضت عنه عصبية الجاهلية الكاذبة فانفعل للآيات وباشرتْ بشاشتها قلبه فأسلم .

لذلك أمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أنْ يجهر بالدعوة ، وأنْ يصدع بما يُؤمر ، لعلَّ السامع تصادفه فترة تنبه لفطرته ، كما حدث مع عمر .
وحين نلحظ الفاء في بداية هذه الآية { فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى . . . } [الروم : 52] نجد أن التقدير : فلا تحزن ، ولا يهولنك إعراضهم؛ لأنك ما قصرْتَ في البلاغ ، إنما التقصير من المستقبل؛ لأنهم لم يقبلوا الروح السامية التي جاءتهم ، بل نفروا من السماع ، وتناهوا عنه ، كما حكى القرآن عنهم : { وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت : 26] .
ونَهْي بعضهم بعضاً عن سماع القرآن دليل على أنهم يعلمون أن مَنْ يسمع القرآن بأذن واعية لا بُدَّ أنْ يؤمن به وأنْ يقتنع .
ثم يقول سبحانه : { صُمٌّ بُكْمٌ . . . } [البقرة : 18] .
وقد علمنا من وظائف الأعضاء أن البكَم يأتي نتيجة الصمم؛ لأن اللسان يحكي ما سمعته الأذن ، فإذا كانت الأذن صماء فلا بُدَّ أن يكون اللسان أبكمَ ، ليس لديه شيء يحكيه .
لذلك نجد الطفل العربي مثلاً حين ينشأ في بيئة إنجليزية يتكلم الإنجليزية لأنه سمعها وتعلمها ، بل نجد صاحب اللغة نفسه تُعرض عليه الكلمات الغريبة من لغته فلا يعرفها لماذا؟ لأنه لم يسمعها ، فحين يقول العربي عن العجوز : إنها الحَيْزبون والدَّردبيس . . الخ تقول : ما هذا الكلام ، مع أنه عربي لكن لم تسمعه أذنك .
والأذن هي أداة الالتقاط الأولى لبلاغ الرسالة ، وما دام الله تعالى قد حكم عليهم بأنهم في حكم

الأموات ، فالإحساس لديهم ممتنع ، فالأذن لا تسمع آيات القرآن ، والعين لا ترى آيات الكون ولا تتأملها .

لذلك قال تعالى عنهم : { فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور } [الحج : 46] .

وكلمة أعمى نقولها للمبصر صحيح العينين حينما يخطيء في شيء ، فتقول له : أنت أعمى؟ لماذا ، لأنه وإنْ كان صحيح العينين ، إلا أنه لم يستعملها في مهمتهما ، فهو والأعمى سواء .

وهؤلاء القوم وصفهم الله بأنهم أولاً في حكم الأموات ، ثم هم مصابون بالصمم ، فلا يسمعون البلاغ ، وتكتمل الصورة بأنهم عُمْى لا يرؤنَ آيات الإعجاز في الكون ، وليتهم صُمٌّ فحسب ، فالأصم يمكن أن تتفاهم معه بالإشارة فينتفع بعينيه إنْ كان مقبلاً عليك ، لكن ما الحال إذا كان مدبراً ، كما قال تعالى : { إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ } [الروم : 52] يعني : أعطوْكَ ظهورهم ، إذن : لم يَعُدْ لهم منفذ للتلقي ولا للإدراك ، فهم صُم بُكْم ، وبالإدبار تعطلت أيضاً حاسة البصر ، فلا أملَ في مثل هؤلاء ، ولا سبيل إلى هدايتهم .

وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53)

والدلالة على الطريق والهداية إليه لا تتأتَّى مع العمى ، خصوصاً إذا أصرَّ الأعمى على عماه ، ونقول لمن يكابر في العمى (فلان لا يعطي العمى حَقّه) يعني : يأنف أنْ يستعين بالمبصر ، ولو استعان بالناس من حوله لوجدهم خدماً له ولصار هو مُبصراً ببصرهم .

وقوله سبحانه : { إِن تُسْمِعُ . . . } [الروم : 53] أي : ما تُسمِع { إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ } [الروم : 53] وهؤلاء هم أصفياء القلوب والفطرة ، الذين يلتفتون إلى كون الله ، يتأملون أسراره وما فيه من وجوه الإعجاز والقدرة ، فيستدلون بالخَلْق على الخالق ، وبالكون على المكوّن سبحانه ، ولِمَ لا ، ونحن نعرف مَنِ اخترع أبسط الأشياء في حياتنا ونُؤرِّخ له ، ونُخلِّد ذكراه ، ألسنا نعرف أديسون الذي اخترع المصباح الكهربائي ، والله الذي خلق الشمس لَهُوَ أوْلَى بالمعرفة .

فإذا جاءك رسول من عند الله يخبرك بوجوده تعالى ، ويحل لك لغز هذا الوجود الذي تحتار فيه ، فعليك أنْ تُصدِّقه ، وأن تؤمن بما جاءك به؛ لذلك الحق سبحانه يُعلِّم الرسل أنْ يقولوا للناس في أعقاب البلاغ { وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . . . } [الشعراء : 109] .

وفي هذا إشارة إلى أن العمل الذي يُؤدِّيه الرسل لأقوامهم عمل يستحقون عليه أجراً بحكم العقل ، لكنهم يترفعون عن أجوركم؛ لأن عملهم غالٍ لا يُقدِّره إلا مَنْ أرسلهم ، وهو وحده القادر على أنْ يُوفِّيهم أجورهم .

ومعنى { يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا . . . } [الروم : 53] يعني : ينظر فيها ويتأملها ، ويقف على ما في

الكون من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق ، فإذا ما جاءه رسول من عند الله أقبل عليه وآمن به؛ لذلك قال بعدها : { فَهُمْ مُّسْلِمُونَ } [الروم : 53] .

ثم يقول الحق سبحانه : { الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن . . . } .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54)

الحق – تبارك وتعالى – بعد أنْ عرض علينا بعض الأدلة في الكون من حولنا يقول لنا : ولماذا نذهب بعيداً إذا لم تكْفِ الآيات في الكون من حولك ، فانظر في آيات نفسك ، كما قال سبحانه : { وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } [الذاريات : 21] وجمع بين النوعين في قوله سبحانه : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق . . . } [فصلت : 53] .

فهنا يقول : تأمل في نفسك أنت : { الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ . . . } [الروم : 54] ، فإنْ قال الإنسان المكلف الآن : أنا لم أشاهد مرحلة الضعف التي خُلِقْتُ منها .

نقول : نعم لم تشاهدها في نفسك ، فلم تكُنْ لك ساعتها مشاهدة ، لكن شاهدتها في غيرك ، شاهدتها في الماء المهين الذي يتكوَّن منه الجنين ، وفي الأم الحامل ، وفي المرأة حين تضع وليدها صغيراً ضعيفاً ، ليس له قَدَم تسعى ، ولا يَدٌ تبطش ، ولا سِنٌّ تقطع ، ومع ذلك رُبِي بعناية الله حتى صار إلى مرحلة القوة التي أنت فيها الآن .

إذن : فدليل الضعف مشهود لكل إنسان ، لا في ذاته ، لكن في غيره ، وفي مشاهداته كل يوم ، وكل منا شاهد مئات الأطفال في مراحل النمو المختلفة ، فالطفل يُولَد لا حولَ له ولا قوة ، ثم يأخذ في النمو والكِبَر فيستطيع الجلوس ، ثم الحَبْو ، ثم المشي ، إلى أنْ تكتمل أجهزته ويبلغ مرحلة الرشْد والفتوة .

وعندها يُكلِّفه الحق – سبحانه وتعالى – وينبغي أنْ نكلفه نحن أيضاً ، وأنْ نستغل فترة الشباب هذه في العمل المثمر ، فنحن نرى الثمرة الناضجة إذا لم يقطفها صاحبها تسقط هي بين يديه ، وكأنها تريد أنْ تؤدي مهمتها التي خلقها الله من أجلها .

لذلك ، فإن آفتنا نحن ومن أسباب تأخُّر مجتمعاتنا أننا نطيل عمر طفولة أبنائنا ، فنعامل الشاب حتى سِنِّ الخامسة والعشرين على أنه طفل ، ينبغي علينا أن نلبي كل رغباته لا ينقصنا إلا أنْ نرضعه .

آفتنا أن لدينا حناناً (مرق) لا معنى له ، أما في خارج بلادنا ، فمبجرد أن يبلغ الشاب رُشْدَه لم يَعُدْ له حق على أبيه ، بل ينتقل الحق لأبيه عليه ، ويتحمل هو المسئولية .

والحق سبحانه يُعلِّمنا في تربية الأبناء أنْ نُعوِّدهم تحمُّل المسئولية في هذه السِّنِّ : { وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . } [النور : 59] .

فانظر أنت أيها الإنسان الذي جعلتَ كل الأجناس الأقوى منك في خدمتك ، انظر في نفسك وما فيها من آيات وما بين جنبيك من مظاهر قدرة الله ، فقد نشأتَ ضعيفاً لا تقدر على شيء يخدمك غيرك .

ومن حكمته تعالى في الطفل ألاَّ تظهر أسنانه طوال فترة الرضاعة حتى لا يؤذي أمه ، ثم تخرج له أسنان مؤقتة يسمونها الأسنان اللبنية؛ لأنه ما يزال صغيراً لا يستطيع تنظيفها ، فيجعلها الله مؤقتة إلى أن يكبر ويتمكَّن من تنظيفها ، فتسقط ويخرج مكانها الأسنان الدائمة ، ولو تأملتَ في نفسك لوجدتَ ما لا يُحصى من الآيات .

{ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً . . . } [الروم : 54] أي : قوة الشباب وفتوته : { ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً . . . } [الروم : 54] أي : ضعف الشيخوخة ، وهذا الضعف يسري في كل الأعضاء ، حتى في العلم ، وفي الذاكرة { لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً . . . } [الحج : 5] .

ويظل بك هذا الضعف حتى تصير إلى مثل الطفل في كل شيء تحتاج إلى مَنْ يحملك ويخدمك إذن : لا تأخذ هذه المسألة بطبع تكوينك ، ولكن بإرادة مُكوِّنك سبحانه ، فبعد أنْ كنتَ ضعيفاً يُقوِيك ، وهو سبحانه القادر على أنْ يعيدك إلى الضعف ، بحيث لا تستطيع عقاقير الدنيا أنْ تعيدك إلى القوة؛ لذلك يسخر أحد العقلاء ممن يتناولون (الفيتامينات) في سِنِّ الشيخوخة ، ويقول : يا ويل مَنْ لم تكُنْ (فيتاميناته) من ظهره .

لذلك تلحظ الدقة في الأداء في قول سيدنا زكريا : { قَالَ رَبِّ إِنِّيَ وَهَنَ العظم مِنِّي . . . } [مريم : 4] ؛ لأن العظم آخر مخزن لقُوت الإنسان ، حيث يختزن فيه ما زاد عن حاجة الجسم من الطاقة ، فإذا لم يتغذَّ الجسم بالطعام يمتصّ من هذا المخزون من الشحوم والدهون ، ثم من العضل ، ثم من نخاع العظم ، وهو آخر مخزن للقوت في جسمك .

فمعنى قول سيدنا زكريا : { إِنِّيَ وَهَنَ العظم مِنِّي . . . } [مريم : 4] يعني : وصلتُ إلى مرحلة الحرض التي لا أملَ معها في قوة ، ويؤكد هذا المعنى بقوله { واشتعل الرأس شَيْباً . . . } [مريم : 4] .

وقلنا : إن بياض الشعر ليس لوناً ، إنما البياض انعدام اللون؛ لذلك فاللون الأبيض ليس من ألوان الطيف ، ومع الشيخوخة تضعف أجهزة الإنسان ، وتضعف الغدد المسئولة عن لون الشعر عن إفراز اللون الأسود ، فيظهر الشعر بلا لون .

ونلحظ أن أغلب ما يشيب الناس يشيبون مما يُعرف ب « السوالف » من هنا ومن هنا ، لماذا؟ قالوا : لأن الشعرة عبارة عن أنبوب دقيق ، فإذا قُصَّتْ أثناء الحلق ينفتح هذا الأنبوب ، وتدخله بعض المواد الكيمياوية مثل الصابون والكولونيا ، فتؤثر على الحويصلات الملوّنة وتقضي

عليها؛ لذلك نلاحظ هذه الظاهرة كثيراً في المترفين خاصة؛ لذلك تجد بعض الشباب يظهر عندهم الشيب في هذه المناطق من الرأس .

وقد رتب سيدنا زكريا مظاهر الضعف بحسب الأهمية ، فقال أولاً { وَهَنَ العظم مِنِّي . . . } [مريم : 4] ثم { واشتعل الرأس شَيْباً . . . } [مريم : 4] ومع كِبَر سيدنا زكريا وضعفه ، ومع أن امرأته كانت عاقراً إلا أن الله تعالى استجاب له في طلبه للولد الذي يرث عنه النبوة ، فبشَّره بولد وسمَّاه يحيى ، وكأن الحق – تبارك وتعالى – يقول لنا : إياكم ، ألا أستطيع أنْ أخلق مع الشيب والكبر والضعف؟ لذلك قال بعدها : { يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ . . . } [الروم : 54] .

وقال في شأن زكريا عليه السلام : { قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً }

[مريم : 9] .

وقوله تعالى : { وَهُوَ العليم القدير } [الروم : 54] أي : أن هذا الخَلْق ناشيء عن علم { أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير } [الملك : 14] لكن العلم وحده لا يكفي ، فقد تكون عالماً لكنك غير قادر على تنفيذ ما تعلم ، كمهندس الكهرباء ، لديه علم واسع عنها ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء ، فيذهب إلى أحد الممولين ليعينه على التنفيذ؛ لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

إذن : هذا هو الدليل النفسي على الموجد الحق الفاعل المختار الذي يفعل الأشياء بعلم وقدرة ، ولا يكلفه العمل شيئاً ولا يستغرق وقتاً؛ لأنه سبحانه يقول للشيء : كن فيكون ، ولا تتعجب أن ربك يقول للشيء كُنْ فيكون؛ لأنك أيها المخلوق الضعيف تفعل هذا مع أعضائك وجوارحك .

وإلاَّ فقُلْ لي : ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تقوم مثلاً أو تحمل شيئاً مجرد أن تريد الحركة تجد أعضاءك طوع إرادتك ، ودون أنْ تدري بما يحدث بداخلك من انفعالات وحركات ، وإنْ قُلت فأنا كبير وأستطيع أداء هذه الحركات كما أريد ، فما بالك بالطفل الصغير؟

وسبق أن ضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بالبلدوزر ، فلكل حركة منه ذراع خاص بها يُحرِّكه السائق ، وأزرار يضرب عليها ، وربما احتاج السائق لأكثر من أداة التحريك هذه الآلة حركة واحدة .

أما أنت فمجرد أن تريد تحريك العضو تجده يتحرك معك كما تريد دون أن تعرف العضلات والأعصاب التي شاركت في حركته ، فإذا كنتَ أنت على هذه الصورة ، أتعجب من أن الله تعالى يقول للشيء كن فيكون؟

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة . . . } .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55)

بعد أنْ عرض الحق – سبحانه وتعالى – الدليل ليهتدي به مَنْ يشاء ، ومَنْ لم يهتَد يُلوِّح له بهذا التهديد : { وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون . . . } [الروم : 55] معنى كلمة { تَقُومُ الساعة . . . } [الروم : 55] تدل على أنها موجودة ، لكن نائمة تنتظر الإذن لها ، فتقوم تنتظر أنْ نقول لها : كُنْ فتكون .

فالقيام هنا له دلالته؛ لأن الساعة أمر لا يتأتَّى به القيام ، إنما يقيمها الحق سبحانه ، فقوله { تَقُومُ . . . } [الروم : 55] كأنها منضبطة كما تضبط المنبه مثلاً ، ولها وقت تنتظره ، وهي من تلقاء نفسها إنْ جاء وقتُها قامتْ .

وحين تتأمل كلمة { تَقُومُ . . . } [الروم : 55] تجد أن القيام آخر مرحلة للإنسان ليؤدي مهمته ، فيقابلها ما قبلها ، فقبل القيام القعود ، ثم الاضطجاع ، ثم النوم ، فمعنى قيام الساعة يعني : أنها جاءت لتؤدي مهمتها أداءً كاملاً .

وسُمِّيَتْ الساعة؛ لأنها دالة على الوقت الذي يأذن الله فيه بإنهاء العالم ، وإنْ كانت الساعة عندنا كوحدة الحساب الزمن نقول : صباحاً أو مساءً وَفْق حساب الحكومة أو الأهالي ، توقيت كذا أو كذا .

هذه الآلة التي في أيدينا بما تضبطه لنا من وقت أمرها هيِّن ، ليست مشكلة أنْ تُقدِّم أو تُؤخِّر عدة ثوانٍ أو عدة دقائق ، تعمل (أتوماتيكياً) أو بالحجارة ، صُنِعتْ في سويسرا ، أو في الصين ، هذه الساعة لا تهم ، المهم الساعة الأخرى ، الساعة التي لا ساعة بعدها ، واعلم أنها منضبطةٌ سبحانه ، وما عليك إلا أنْ تضبط نفسك عليها ، وتعمل لها ألف حساب .

وعجيب أنْ يقسم الكفار يوم القيامة { مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ . . . } [الروم : 55] فإنْ كذبوا في الدنيا ، فهل يَكذْبون أيضاً في الآخرة؟ قالوا : بل يقولون ذلك على ظنهم ، وإلا فالكلام منهم في هذا الوقت ليس اختيارياً ، فقد مضى وقت الاختيار ، ولم يَعُدْ الآن قادراً على الكذب .

لذلك سيقول الحق سبحانه في آخر الآية : { كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ } [الروم : 55] فقد كانوا يقلبون الحقائق في الدنيا ، أما في الآخرة فلن يقلبوا الحقائق ، إنما يقولون على حَسْب نظرهم .

والمجرمون : المجرم هو الذي خرج عن المطلوب منه بذنب يخالفه ، فنقول : فلان أجرم ، والقانون يُسمِّي الفعل جريمة .

ومعنى { مَا لَبِثُواْ . . . } [الروم : 55] اللبث : المكْث طويلاً أي في الدنيا ، أو : ما لبثوا في قبورهم بعد الموت إلى قيام الساعة ، أو : ما لبثوا بعد النفخة التي تميت إلى النفخة التي تُحيي .

فهذه فترات ثلاث للبثهم في القبور ، أطولها للذين ماتوا منذ آدم عليه السلام ، ثم أوسطهم

الذين جاءوا بعد ذلك أمثالنا ، ثم أقلّهم لُبْثاً وهم الذين يموتون بين النفختين ، وفي كل هذه الفترات يوجد كفار ، وعلى عهد آدم كان هناك كفار ، وعلى مَرِّ العصور بعده يُوجَد كفار ، حتى بين النفختين يوجد كفار ، إذن : فكلمة لبثوا هنا على عمومها : أطول ، وطويل ، وقصيرة ، وأقصر .

وهؤلاء يقولون يوم القيامة « ما لبثنا غير ساعة » مع أن الآخرة لا كذب فيها ، لكنهم يقولون ذلك على حسب ظنهم؛ لأن الغائب عن الزمن لا يدري به ، والزمن ظرف لوقت الأحداث ، كما أن المكان ظرف لمكانها ، فالنائم مثلاً لا يشعر بالزمن؛ لأن الزمن يُحسب بتوالي الأحداث فيه ، فإذا كنتَ لا تشعر بالحدث فبالتالي لا تشعر بالوقت ، سواء أكان بنوم كأهل الكهف ، أو بموت كالذي أماته الله مائة عام ثم بعثه .

ولما قاموا من النوم أو الموت لم يُوقِّتوا إلا على عادة الناس في النوم ، فقالوا : { لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . . } [الكهف : 19] ؛ لأنه في هذه الحالة لا يدري بالزمن ، إنما يدري بالزمن الذي يتتبع الأحداث ، وما دام الإنسان في هذه الحالة لا يدرك الزمن ، فهو صادق فيما يخبر به على ظنه .

لذلك يقول تعالى في آية أخرى : { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأرض عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ العآدين } [المؤمنون : 112-113] أي : اسأل الذين يعدُّون الزمن ويحصونه علينا ، والمقصود والملائكة ، فهم الذين يعرفون الأحداث ، ويسجلونها من خَلْق آدم عليه السلام وإلى الآن ، وإلى قيام الساعة .

فلا يسأل عن عدد إلا مَنْ عدَّ بالفعل ، أو مَنْ يمكن أنْ يعُدّ ، أما الشيء الذي لا يكون مظنة العدِّ والإحصاء فلا يُعَدُّ ، وهل عَدَّ أحد في الدنيا رمال الصحراء مثلاً؟ لذلك نسمع في الفكاهات : أن واحداً سأل الآخر : تعرف في السماء كم نجم؟ قال : تسعة آلاف مليون وخمسمائة ألف وثلاثة وتسعون نجماً ، فقال الأول : أنت كذاب ، فقال الآخر : اطلع عِدّهم .

لكن ، لماذا يستقلّ الكفار الزمن فيُقسمون يوم تقوم الساعة ما لبثوا غير ساعة؟ وفي موضع آخر يقول عنهم : { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا } [النازعات : 46] .

قالوا : لأن الزمن يختلف بحسْب أحوال الناس فيه ، فواحد يتمنى لو طال به الزمن ، وآخر يتمنى لو قصر ، فالوقت الذي يجمعك ومَنْ تحب يمضي سريعاً وتتمنى لو طال ، على خلاف الوقت الذي تقضيه على مَضض مع مَنْ تكره ، فيمر بطيئاً متثاقلاً .

على حدِّ قول الشاعر :

حَادِثَاتُ السُّرورِ تُوزَنُ وَزْناً ... والبَلاَيَا تُكَالُ بالقُفزان

ويقول آخر :

وَدَّع الصَّبر محبٌّ ودَّعكَ ... ذائعٌ مِن سِرِّهِ مَا اسْتَوْدعَكْ
يَقْرعُ السَّنَّ على أنْ لم يكُنْ ... زَادَ في تِلْكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ
إلى أنْ يقولَ :
إنْ يَطُلْ بعدكَ لَيْلى فلكَمْ ... بِتُّ أشكُو قِصَر اللَيْلِ معكْ
ففي أوقات السرور ، الزمن قصير ، وفي أوقات الغَمّ الزمن طويل ثقيل ، ألم تسمع للذي يقول – لما جمع الليل شمله بمَنْ يحب :
يَا لَيْلُ طُلْ يا نَوْمُ زُلْ ... يَا صُبْحُ قِفْ لا تطْلُعِ
كذلك الذي ينتظر سروراً يستبطيء الزمن ، ويود لو مرَّ سريعاً ليعاين السرور الذي ينتظره ، أما الذي يتوقع شراً أو ينتظره فيودُّ لو طالَ الزمن ليبعده عن الشر الذي يخافه .

لذلك نجد المؤمنين يودُّون لو قصر الزمن؛ لأنهم واثقون من الخير الذي ينتظرهم والنعيم الذي وُعدوا به ، أما المجرمون فعلى خلاف ذلك ، يودُّون لو طال الزمن ليبعَدهم عما ينتظرهم من العذاب؛ لذلك يقولون ما لبثنا في الدنيا إلا قليلاً ويا ليتها طالتْ بنا . إما لأنهم لا يدرون بالزمن ويقولون حَسْب ظنهم ، أو لأنهم يريدون شيئاً يُبعد عنهم العذاب .
إذن : أقسموا ما لبثوا غير ساعة ، إما على سبيل الظن ، أو لأن الغافل عن الأحداث لا يدري بالزمن ، ولا يستطيع أنْ يُحصيه ، كالعُزير الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه { قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . . } [البقرة : 259] فأخبره ربه أنه لبث مائة عام { قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ . . . } [البقرة : 259] .
والذي لا شكَّ فيه أن الله تعالى صادق فيما أخبر به ، وكذلك العزير كان صادقاً في حكمه على الزمن؛ لذلك أقام الحق – سبحانه وتعالى – الدليل على صِدْق القولين فقال : { فانظر إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ . . . } [البقرة : 259] والطعام لا يتغير في يوم أو بعض يوم ، فقام الطعام والشراب دليلاً على صِدْق الرجل .
ثم قال سبحانه { وانظر إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وانظر إِلَى العظام كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً . . . } [البقرة : 259] .
فقامت العظام البالية دليلاً على صِدْقه تعالى في المائة عام . ولا تقل : كيف نجمع بين صدق القولين؟ لأن الذي أجرى هذه المسألة رب ، هو سبحانه القابض الباسط ، يقبض الزمن في حَقِّ قوم ، ويبسطه في حَقِّ آخرين .
وهذه الآية { وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة . . . } [الروم : 55] جاءت بعد إعذار الله للكافرين برسله ، ومعنى إعذارهم أي : إسقاط عذرهم في أنه سبحانه لم يُبيّن لهم أدلة الإيمان في قمته بإله واحد ، وأدلة الإيمان بالرسول بواسطة المعجزات حتى يؤمنوا بآيات الأحكام في : افعل ، ولا تفعل .

فالآيات كما قلنا ثلاث : آيات تثبت قمة العقيدة ، وهو الإيمان بوجود الإله القادر الحكيم ، وآيات تثبت صِدْق البلاغ عن الله بواسطة رسله ، وهذه هي المعجزات ، وآيات تحمل الأحكام .

والحق سبحانه لا يطلب من المؤمنين به أنْ يؤمنوا بأحكامه في : افعل ولا تفعل إلا إذا اقتنعوا أولاً بالرسول المبلّغ عن الله بواسطة المعجزة ، ولا يمكن أنْ يؤمنوا بالرسول المبلّغ عن الله إلا إذا ثبتَ عندهم وجود الله ، ووجود الله ثابت في آيات الكون .

لذلك دائماً ما يعرض علينا الحق سبحانه آياته في الكون ، لكن يعرضها متفرقة ، فلم يصبّها علينا صَبّاً ، إنما يأتي بالآية ثم يُردِفها بما حدث منهم من التكذيب والنكران ، فيأتي بالآية ونتيجتها منهم ، ذلك ليكرر الإعذار لهم في أنه لم يَعُدْ لهم عُذْر في ألاَّ يؤمنوا .

فنلحظ هذا التكرار في قوله سبحانه : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [الروم : 46] .

ثم يذكر أن هذه الآيات لم تُجْد معهم : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بالبينات فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين } [الروم : 47] .

ثم يسوق آية أخرى : { الله الذي يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السمآء كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فانظر إلى آثَارِ رَحْمَتِ الله كَيْفَ يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الروم : 48-50] .

ثم يذكر سبحانه ما كان منهم بعد كلِّ هذه الآيات : { وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ } [الروم : 51] .

وهكذا يذكر الحق سبحانه الآية ، ويُتبعها بما حدث منهم من نكران ، ويكررها حتى لا تبقى لهم حجة للكفر ، ثم تأتي هذه الآية : { وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ . . . } [الروم : 55] لتقول لهم : إنْ كنتم قد كذَّبتم بكل هذه الآيات ، فستأتيكم آية لا تستطيعون تكذيبها هي القيامة .

وعجيب أنْ يُقسِموا بالله في الآخرة ما لبثوا غير ساعة ، وقد كفروا به سبحانه في الدنيا .

وفي الآية جناس تام بين كلمة الساعة الأولى ، والساعة الثانية ، فاللفظ واحد لكن المعنى مختلف { وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة . . . } [الروم : 55] أي : القيامة { يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ . . . } [الروم : 55] أي : من الوقت ، ومن ذلك قول الشاعر :

رَحلْتُ عَنِ الديارِ لكُمْ أَسِيرُ ... وقَلْبي فِي محبتِكُمْ أَسِيرُ

أي : مأسور .

ولي أنا وزميلي الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة – أطال الله بقاءه – قصة مع الجناس ، ففي إحدى حصص البلاغة ، قال الأستاذ : لا يوجد في القرآن جناس تام إلا في هذه الآية بين ساعة وساعة ، لكن يوجد فيه جناس ناقص ، فرفع الدكتور محمد أصبعه وقال : يا أستاذ أنا لا أحب أنْ يُقال : في القرآن شيء ناقص .

فضحك الشيخ منه وقال له : إذن ماذا نقول؟ وقد قسم أهل البلاغة الجناس إلى تام وناقص : الأول تتفق فيه الكلمتان في عدد الحروف وترتيبها وشكلها ، فإن اختلف من ذلك شيء فالجناس بينهما ناقص ، كما في قوله تعالى : { وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ } [الهمزة : 1] فبين هُمزة ولمزة جناس ناقص؛ لأنهما اختلفا في الحرف الأول .

أذكر أن الشيخ أشار إليَّ وقال : ما رأيك فيما يقول صاحبك؟ فقلت : نسميه جناس كُل ، وجناس بعض ، يعني : تتفق الكلمتان في كل الحروف أو في بعضها ، وبذلك لا نقول في القرآن : جناس ناقص .

فقولهم { مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ . . . } [الروم : 55] أي : الساعة الزمنية التي نعرفها ، والزمن له مقاييس : ثانية ، ودقيقة ، وساعة ، ويوم ، وأسبوع ، وشهر ، وسنة ، وقرن ، ودهر ، وهم يقصدون الساعة الزمنية المعروفة لنا .

إذن : فهم يُقلِّلون مدة مُكْثهم في الدنيا أو في القبور لما فاجأتهم القيامة ، وقد أخبرناهم وهم في سَعَة الدنيا أن متاع الدنيا قليل ، وأنها قصيرة وإلى زوال ، فلم يُصدّقوا والآن يقولون : إنها كانت مجرد ساعة ، ولم يقولوا حتى شهر أو سنة ، فكيف تستقل ما سبق أن استكثرته ، وظننتَ أنك خالد فيه حتى قلتَ

{ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر . . . } [الجاثية : 24] .

ففي الدنيا كذَّبتم وأنكرتم ، ولم تستجيبوا لداعي الإيمان ، أما الآن في الآخرة فسوف تستجيبون استجابة مصحوبة بحمده تعالى ، كما قال سبحانه : { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ . . . } [الإسراء : 52] أي : تقولون الحمد لله والإنسان لا يحمد إلا على شيء محبوب .

ثم يقول سبحانه : { كَذَلِكَ . . . } [الروم : 55] أي : كهذا الكذب { كَانُواْ يُؤْفَكُونَ } [الروم : 55] والإفك من أَفك إفكاً ، أي : صرف الشيء عن وجهه؛ لذلك سُمِّي الكذب إفكاً؛ لأن الكاذب يخبر بقضية تخالف الواقع ، فيأتي بها على غير وجهها ، أو يُوجِدها وهي غير موجودة ، أو ينكر وجودها .

ومنه قوله تعالى : { والمؤتفكة أهوى } [النجم : 53] وهي القرى التي قلبها الله ، فجعل عاليها سافلها .

فقوله { كَذَلِكَ . . . } [الروم : 55] أي : كهذا الإفك كانوا يُؤْفكون ، يعني : يكذِّبون

الرسل في الحقائق التي جاءوا بها من قِبلَ ربهم .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم . . . } .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56)

قال هنا { العلم والإيمان . . . } [الروم : 56] فهل العِلم ينافي الإيمان؟ لا ، لكن هناك فَرْق بينهما ، فالعلم كسب ، والإيمان أنت تؤمن بالله وإنْ لم تَرَه . إذن : شيء أنت تراه وتعلمه ، وشيء يخبرك به غيرك بأنه رآه ، فآمنتَ بصدقه فصدَّقْتَه ، فهناك تصديق للعلم وتصديق للإيمان؛ لذلك دائما يُقَال : الإيمان للغيبية عنك ، أما حين يَقْوى إيمانك ، ويَقْوى يقينك يصير الغيب كالمشاهَد بالنسبة لك .
وقد أوضحنا هذه المسألة في الكلام عن قوله تعالى في خطابه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل } [الفيل : 1] .
فقال : ألم تَرَ مع أن النبي صلى الله عليه وسلم وُلِد عام الفيل ، ولم يتسَنّ له رؤية هذه الحادثة ، قالوا : لأن إخبار الله له أصدق من رؤيته بعينه .
فقوله : { أُوتُواْ العلم والإيمان . . . } [الروم : 56] لأن العلم تأخذه أنت بالاستنباط والأدلة . . . الخ ، أو تأخذه ممن يخبرك وتُصدِّقه فيما أخبر ، « لذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما سأل الصحابي : » كيف أصبحتَ «؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، قال : » لكلِّ حقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك «؟
يعني : ما مدلول هذه الكلمة التي قلتها؟
فقال الصحابي : عزفتْ نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها ، ومدرها ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون – يريد أن يقول لرسول الله : لقد أصبحتُ وكأني أرى ما أخبرتنا به – فقال له رسول الله : » عرفتَ فالزم « .
لكن ، مَن هم الذين أوتوا العلم؟ هم الملائكة الذين عاصروا كل شيء ، لأنهم لا يموتون ، أو الأنبياء لأن الذي أرسلهم أخبره ، أو المؤمنون لأنهم صدَّقوا الرسول فيما أخبر به .
وقال { أُوتُواْ العلم . . . } [الروم : 56] ولم يقل : علموا ، كأن العلم ليس كَسْباً ، إنما إيتاء من عَالِم منك يعطيك . فإنْ قُلتَ : أليس للعلماء دور في الاستدلال والنَظر في الأدلة؟ نقول : نعم ، لكن مَنْ نصب لهم هذه الأدلة؟ إذن : فالعلم عطاء من الله .
ثم يقول سبحانه : { لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ الله إلى يَوْمِ البعث فهذا يَوْمُ البعث . . . } [الروم : 56] يعني : مسألة مرسومة ومنضبطة في اللوح المحفوظ إلى يوم البعث { فهذا يَوْمُ البعث . . . } [الروم : 56] الذي كنتم تكذبون به ، أما الآن فلا بُدَّ أنْ تُصدِّقوا فقد جاءكم شيء لا

تقدرون على تكذيبه؛ لأنه أصبح واقعاً ومن مصلحتكم أنْ يقبل عذركم ، لكن لن يقبل منكم ، ولن نسمع لكم كلاماً لأننا قدمنا الإعذار سابقاً .

وقوله تعالى : { ولكنكم كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ } [الروم : 56] في أول الآية قال : { أُوتُواْ العلم . . } [الروم : 56] فنسب العلم إلى الله ، أما هنا فنسبه إليهم؛ لأن الله تعالى نصب لهم الأدلة فلم يأخذوا منها شيئاً ، ونصب لهم الحجج والبراهين والآيات فغفلوا عنها ، إذن : لم يأخذوا من الدلائل والحجج ما يُوصِّلهم إلى العلم .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفَعُ الذين . . . } .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

قوله { فَيَوْمَئِذٍ . . . } [الروم : 57] أي : يوم قيام الساعة { لاَّ ينفَعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [الروم : 57] أي : لا يُقبَل منهم عذر ، ومعنى { ظَلَمُواْ . . . } [الروم : 57] أي : ظلموا أنفسهم ، والظالم يلجأ إلى الظلم؛ لأنه يريد أن يأخذ من الغير ما عجزتْ حركته هو عن إدراكه .

فالظلم أنْ تأخذ نتيجة عرق غيرك لتحوله إلى دم فيك ، لكن دمك إنْ لم يكُنْ من عَرَقك فهو دم فاسد عليك ، ولا تأتي منه أبداً حركة إجابة في الوجود لا بُدَّ أن تكون نتيجته حركات شر؛ لأنه دم حرام ، فكيف يتحرك في سبيل الحلال؟

لذلك ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلى طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » ، فقال : { ياأيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [المؤمنون : 51] وقال : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ واشكروا للَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [البقرة : 172] ثم ذكر « الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ثم يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، فأنَّى يُستجاب له » « .

إذن : كيف يُستجاب لنا وأبعاضنا كلها غير أهْلٍ لمناجاة الله بالدعاء؟

ولا يقف الأمر عند عدم قبول العذر ، إنما { وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [الروم : 57] العتاب : حوار بلُطْف ودلال بين اثنين في أمر أغضب أحدهما ، وكان من المظنون ألاَّ يكون ، ويجب أن يعرض عليه ليصفي نفسه منه ، كأن يمر عليك صديق فلا يسلم عليك فتغضب منه ، فإنْ كنتَ حريصاً على مودته تقابله وتقول : والله أنا في نفسي شيء منك ، لأنك مررتَ فلم تسلم عليَّ يوم كذا ، فيقول لك : والله كنتُ مشغولاً بكذا وكذا ولم أَرَكَ ، فيزيل هذا العذر ما في نفسك من صاحبك .

ونقول : عتب فلان على فلان فأعتبه أي : أزال عتابه؛ لذلك يقولون : ويبقى الود ما بقي

العتاب ، ويقول الشاعر :

أَمَّا العِتَابُ فبالأحِبّة أَخْلَق ... والحُبُّ يَصْلُح بالعِتَاب ويصْدُقُ

والهمزة في أعتب تسمى همزة الإزالة ، ومنها قول الشاعر :

أُرِيدُ سُلوَّكم – أي بعقلي – والقَلْبُ يأْبَى ... وأعْتِبكُم ومِلءُ النَفْسِ عَتْبى

ومنه ما جاء في مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم لربه يوم الطائف بعد أن لَقي منهم ما لَقِي ، حتى لجأ إلى حائط ، وأخذ يناجي ربه : » ربِّ إلى مَنْ تَكِلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملّكته أمري؟ إنْ لم يكنْ بك عليَّ غضب فلا أُبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . . إلى أنْ يقول : لك العُتْبى حتى ترضى « .

يعني : يا رب إنْ كنت غضبتَ لشيء بدر مني ، فأنا أريد أن أزيل عتباك عليَّ .

ومن همزة الإزالة قولنا : أعجمت الكلمة أي : أزلْتُ عُجْمتها وخفاءها ، وأوضحت معناها ، ومن ذلك نُسمِّي المعجم لأنه يزيل خفاء الكلمات ويُبيِّنها .

وتقرأ في ذلك قوله تعالى : { إِنَّ الساعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا . . . } [طه : 15] أي : أقرب أنْ أزيل خفاءها بالآيات والعلامات .

وهذه الكلمة { يُسْتَعْتَبُونَ } [الروم : 57] وردتْ في القرآن ثلاث مرات ، ووردت مرة واحدة مبنية للفاعل (يَسْتعتبون) ، لأنهم طلبوا إزالة عتابهم ، فلم يُزِلْه الله ولم يسمح لهم في إزالته ، أما (يُستعتبون) فلأنهم لم يطلبوا العتب بأنفسهم ، إنما جعلوا لهم شفعاء يطلبون لهم ، لكن خَاب ظنهم في هذه وفي هذه .

فالمعنى { وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [الروم : 57] لا يجرؤ شفيع أنْ يقول لهم : استعتبوا ربكم ، واسألوه أنْ يعتبكم أي : يزيل العتاب عنكم .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا . . . } .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58)

وهذه الآية تعني أننا لم نترك معذرة لأحد ممن كفروا برسلهم؛ لأننا جئنا لهم بأمثال متعددة وألوان شتى من الأدلة المشاهدة ليستدلوا بها على غير المشاهد ليأخذوا من مرائيهم ومن حواسهم دليلاً على ما غاب عنهم .

فحين يريد سبحانه أن يقنعهم بأن يؤمنوا بإله واحد لا شريك له يضرب لهم هذا المثَلَ من واقع حياتهم : { ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً . . . } [الزمر : 29] .

هل يستوي عبد لسيد واحد مع عبد لعدة أسياد يتجاذبونه ، إنْ أرضي واحد أسخط الآخرين؟ ثم يُقرِّب المسألة بمثَلٍ من الأنفس ، وليس شيء أقرب إلى الإنسان من نفسه ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : { ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الروم : 28] .

والمعنى : إذا كنتم لا تقبلون أنْ يشارككم مواليكم فيما رزقكم الله ، فتكونون في هذا الرزق سواء ، فكيف تقبلون الشركة في حق الله تعالى؟

وحين يريد الحق سبحانه أنْ يبطل شرْكهم وعبادتهم للآلهة يضرب لهم هذا المثل { إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب } [الحج : 73] .

والمَثَل يعني أنْ تُشبّه شيئاً بشيء ، وتلحق خفياً بجلى ، لتوضحه وليستقر في ذِهْن السامع ، كأن تشبه شخصاً غير معروف بشخص معروف ، ويُسَمَّى هذا : مثْل أو مَثَل ، نقول : فلان مثْل فلان .

أما المثل فقول من حكيم شاع على الألسنة ، وتناقله الناس كلما جاءت مناسبته ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالملك الذي أرسل امرأة تخطب له أم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني ، وكان اسمها (عصام) ، فلما عادت من المهمة بادرها بقوله : ما وراءكِ يا عصام؟ فصارت مثلاً يُقال في مثل هذه المناسبة مع أنه قيل في حادثة مخصوصة .

والمثل يقال كما هو ، لا نغير فيه شيئاً ، فنقول : ما وراءك يا عصام للمذكر وللمؤنث ، وللمفرد وللمثنى وللجمع .

ومن ذلك نُشبّه الكريم بحاتم ، والشجاع بعنترة . . الخ لأن حاتماً الطائي صار مضربَ المثل في الكرم ، وعنترة في الشجاعة . وفي المثال نقول لمن يواجه بمَنْ هو أقوى منه : إنْ كنت ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً ، ونقول لمن لم يُعِدّ للأمر عُدَّته : قبل الرماء تُملأ الكنائن .

إذن : المثل قول شبه مضربه الآن بمورده ، سابقاً لأن المورد كان قوياً وموجزاً لذلك حُفِظ وتناقلته الألسنة .

والقرآن يسير على أسلوب العرب وطريقتهم في التعبير وتوضيح المعنى بالأمثال حتى يضرب المثل بالبعوضة ، والبعض يأنف أنْ يضرب القرآن بجلاله وعظمته مثلاً بالبعوضة ، وهو لا يعلم أن الله يقول : { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : 26] .

وليس معنى : { فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : 26] أي : في الكِبَر كما يظن البعض ، فيقولون

: لماذا يقول فما فوقها وهو من باب أَوْلى ، لكن المراد ما فوقها في الصِّغَر وفيما تستنكرونه من الضآلة ، كالكائنات الدقيقة والفيروسات . . . الخ .

لكن ، لماذا يضرب الله الأمثال للناس؟ قالوا : لأن الإنسان له حواسّ متعددة ، فهو يرى ويسمع ويشم ويتذوق ويلمس . . الخ ، ولو تأملتَ كل هذه الحواس لوجدتَ أن ألصق شيء بالحس أنْ يضرب؛ لذلك حين تريد أنْ تُوقِظ شخصاً من النوم فقد لا يسمع نداءك فتذهب إليه وتهزُّه كأنك تضربه فيقوم .

إذن : فالضرب هو الأثر الذي لا يتخلف مدلوله أبداً ، ومن ذلك قوله تعالى : { وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرض يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله . . . } [المزمل : 20] أي : يُؤثرون فيها تأثيراً واضحاً كالحرث مثلاً ، وهو أشبه ما يكون بالضرب .

والضرب لا يكون ضرباً يؤدي مهمة وله أثر إلا إذا كان بحيث يُؤلم المضروب ، ولا يُوجع الضارب ، وإلا فقد تضرب شيئاً بقوة فتؤلمك يدك ، فكأنك ضربتَ نفسك . وهذا المعنى فَطِن إليه الشاعر ، فقال للذين لا يؤمنون بقدر الله :

أيَا هَازئاً من صُنُوف القَدَرِ ... بنفسِكَ تعنف لاَ بالقَدرْ

وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بِالعصَا ... ضربتَ العَصَا أَمْ ضربْتَ الحجَرْ

فالحق سبحانه يضرب المثل ليُشعركم به ، وتُحسون به حِسَّ الألم من الضرب ، فإذا لم يحسّ الإنسان بضرب المثل فهو كالذي لا يحسُّ بالضرب الحقيقي المادي ، وهذا والعياذ بالله عديم الإحساس أو مشلول الحسِّ .

فالمعنى : { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ . . . } [الروم : 58] يعني : أتيناهم بأمثال ودلائل لا يمكن لأحد إلا أنْ يستقبلها كما يستقبل الضرب؛ لأن الضرب آخر مرحلة من مراحل الإدراك .

وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه ضرب المثل لنفسه سبحانه في قوله : { الله نُورُ السماوات والأرض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح . . . } [النور : 35] .

والمثل هنا ليس لنوره تعالى كما يظن البعض ، إنما مَثَلٌ لتنويره للكون الواسع ، وهو سبحانه يُنوِّرك حِسّياً بالشمس وبالقمر وبالنجوم ، ويُنوِّرك معنوياً بالمنهج وبالقيم .

ففائدة النور الحسي أن يزيل الظلمة ، وأنْ تسير على هُدى وعلى بصيرة فتسلم خطاك واتجاهك من أنْ تحطم ما هو أقلّ منك أو يحطمك ما هو أقوى منك ، والمحصلة ألاَّ تضر الأضعف منك ، وألاَّ يضرك الأقوى منك .

كذلك النور المعنوي ، وهو نور القيم والمنهج يمنعك أنْ تضرَّ غيرك ، ويمنع غيرك أنْ يضرَّك ، وكما ينجيك النور الحسي من المعاطب الحسية كذلك ينجيك نور القيم من المعاطب المعنوية .

لذلك يقول سبحانه بعد أن ضرب لنا هذا المثل : { نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ

وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيِمٌ } [النور : 35] .
وسبق أنْ ذكرنا ما كان من مدح أبي تمام لأحد الخلفاء :
إقْدامُ عَمروٍ في سَمَاحةِ حَاتِمٍ ... في حِلْم أحْنَفَ في ذَكَاءِ إيَاسِ
فقال أحد حُسَّاده على مكانته من الخليفة : أتشبه الخليفة بأجلاف العرب؟ فأطرق هنيهة ، ثم أكمل على نفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكِروا ضرْبِي لَهُ مَنْ دُونَه ... مثَلاً شَرُوداً في النَّدَى والبَاسِ
فاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لِنُورِهِ ... مَثَلاً من المشْكَاةِ والنبراسِ
الأعجب من هذا أنهم أخذوا الورقة التي معه ، فلم يجدوا فيها هذين البيتين ، وهذا يعني أنه ارتجلهما لتوّه ، وقد قلت : والله لو وجدوا هذه الأبيات مُعدة معه لما قلَّل ذلك من شأنه ، بل فيه دلالة على ذكائه واحتياطه لأمره وتوقعه لما قد يقوله الحساد والحاقدون عليه .
لكن لم تُجد هذه الأمثال ولم ينتفعوا بها ، وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد بل : { وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ . . . } [الروم : 58] أي : جديدة { لَّيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ } [الروم : 58] فيتهمون الرسل في بلاغهم عن الله بأنهم أهل باطل وكذب .
والحق سبحانه يحتجّ على الناس في أنه لم يُجبهم إلى الآيات التي اقترحوها؛ لأن السوابق مع الأمم التي كذَّبت الرسل تؤيد ذلك ، فقد كانوا يطلبون الآيات ، فيجيبهم الله إلى ما طلبوا ، فما يزدادون إلا تكذيباً .
لذلك يقول سبحانه : { وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . . } [الإسراء : 59] .
فالأمر لا يتعدى كونهم يريدون إطالة الإجراءات وامتداد الوقت في جدل لا يجدي ، ثم إن في إجابتهم إلى ما طلبوا رغم تكذيبهم بالآيات السابقة احتراماً لعدم إيمانهم ، ودليلاً على أن الآيات السابقة كانت غير كافية ، بدليل أنه جاءهم بآية أخرى ، إذن : فعدم مجيء الآيات يعني أن الآيات السابقة كانت كافية للإيمان لكنهم لم يؤمنوا؛ لذلك لن نجيبهم في طلب آيات أخرى جديدة .
وهذه القضية واضحة في جدل إبراهيم – عليه السلام – مع النمروذ في قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله الملك إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ . . . } [البقرة : 258] .
وعندها شعر إبراهيم عليه السلام بأن خَصْمه يميل إلى الجدل والسفسطة ، وأنه يريد إطالة مد الجدل ، ويريد تضييع الوقت في أخذ وردٍّ؛ لذلك أضرب عن هذه الحجة – مع أن خَصْمه لا يميت ولا يحيى على الحقيقة – وألجأه إلى حجة أخرى لا يستطيع منها فكاكاً ، ولا يجد معها

سبيلاً للمراوغة فقال : { فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب . . . } [البقرة : 258] فماذا يقول هذا المعاند؟ { فَبُهِتَ الذي كَفَرَ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [البقرة : 258] .

كذلك كان فرعون يلجأ إلى هذا الأسلوب في حواره مع موسى وهارون عليهما السلام ، ففي كل موقف كان يقول : { فَمَن رَّبُّكُمَا ياموسى } [طه : 49] إنه الجدل العقيم ، يلجأ إليه مَنْ أفلس ، فلم يجد حجة يستند إليها .

ونلحظ في أسلوب الآية صيغة الإفراد في { وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ . . . } [الروم : 58] ثم تنتقل إلى صيغة الجمع في { إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ } [الروم : 58] فلم يقولوا لرسولهم مثلاً : أنت مبطل ، فلماذا؟ قالوا : لأن الرسول حين يُكذِّبه قومه فيقولون : أنت مبطل ، فلعل من أتباعه المؤمنين به مَنْ يدافع عنه ويشهد بصدقه ، فجاءت صيغة الجمع لتفيد الشمول ، فكأنهم يقولون : أنت مبطل وكل مَنْ (يتشدد لك) .

أو يكون المعنى { إِنْ أَنتُمْ . . . } [الروم : 58] يعني : كل الرسل { مُبْطِلُونَ } [الروم : 58] أي : كاذبون تختلفون من عند أنفسكم وتقولون : هو من عند الله . وعجيب من هؤلاء أن يؤمنوا بالله ويُكذِّبوا رسله ، ككفار مكة الذين شمتوا في رسول الله حين فتر عنه الوحي فقالوا : « إن رب محمد قلاه » .

وهم لا يدرون أو الوحي كان يجهد رسول الله ، وكان يشقُّ عليه في بداية الأمر ، حتى جاء زوجه خديجة يقول : زملوني زملوني ، دثروني دثروني ، وكان جبينه يتفصد عرقاً ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول عن الملَك : « وضمني حتى بلغ مني الجهد » .

وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية؛ لذلك كان جبريل عليه السلام يتمثل لسيدنا رسول الله في صورة بشر ، ليس عليه غبار السفر ولا يعرفه أحد ، كما جاء لرسول الله وهو في مجلس الصحابة يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان .

إذن : مسألة فتور الوحي وانقطاعه مدة عن رسول الله أراد الله به أن يستريح رسول الله من مشقة الوحي حتى يزول عنه الألم والعناء وعندها يشتاق للوحي من جديد ، ويهون عليه فيتحمله ويصير له دُرْبه على تلقيه من الملك ، فشَوْق الإنسان إلى الشيء يجعله يتحمل المشاقّ في سبيله ، ويُهوِّن عليه الصعاب ، كالذي يسير إلى محبوبه فلا يبالي حتى لو سار على الشوك ، أو اعترضته المخاوف والأخطار .

والوحي لقاء بشري بملكي ، فإما أنْ ينتقل الرسول إلى مرتبة الملَك ، أو ينتقل الملك إلى مرتبة البشر ، وهذا التقارب لم يحدث في بداية نزول الوحي فأجهد رسول الله واحتاج إلى هذه الراحة بانقطاع الوحي .

لذلك يقول سبحانه : { وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ } [الشرح : 2-3] أي : جعلناه خفيفاً لا يجهدك ، ويقول سبحانه في الرد عليهم : { والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى } [الضحى : 1-3] .

فعجيب أنْ يقولوا : « إن رب محمد قلاه » فيعترفون برب محمد ساعة الشدة والضيق الذي نزل به ، فأشمتهم فيه حتى قالوا : إن رب محمد جفاه ، فلما وصله ربه بالوحي ودعاهم إلى الإيمان كفروا وكذَّبوا .

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59)

قوله سبحانه : { كَذَلِكَ . . . } [الروم : 59] . أي : كتكذيبهم لكل آية تأتيهم بها { كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الذين لاَ يَعْلَمُونَ } [الروم : 59] . أي ختمها وأغلقها .

فإنْ قلتَ : فمن المصلحة أنْ تظل قلوبهم مفتوحة لعلها تستقبل شيئاً من الهداية والنور . نقول : الخَتْم على قلوب هؤلاء لا يكون إلا بعد استنفاد كل وسائل الدعوة ، فلم يستجيبوا فلا أملَ في هدايتهم ولا جدوى من سماعهم .

والحق – سبحانه وتعالى – ربٌّ يعين عبده على ما يحب ويلبي له رغبته ، حتى وإنْ كانت الكفر ، وهؤلاء أرادوا الكفر وأحبوه ، فأعانهم الله على ما أرادوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ، ولا يفارقها كفر .

لذلك سبق أنْ حذَّرنا أصحاب المصائب ، أو الذين يفقدون عزيزاً ، حذرناهم أنْ يستديموا الحزن ، وأنْ يألفوه مخافة أنْ يوافقكم الله على هواكم في محبة الحزن وعِشْقه ، فتتوالى عليكم الأحزان وتتتابع المصائب ، إياكم ان تدعوا باب الحزن مواراباً ، بل أغلقوه بمسمار الرضا ، فالحزن إنْ ظلَّ بك فلن يدعَ لك حبيباً .

وكذلك نقول : إن شُغل عنك شخص فلا تُذكِّره بنفسك ، بل أَعِنْهُ على هجرك ، وساعده بألاَّ تذكره .

فإذا قلتَ : إذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم لا يعلمون ، فلماذا يختم على قلوبهم ، ولماذا يحاسبهم؟ نقول : لأن عدم العلم نتيجة تقصيرهم ، فالحق سبحانه أقام لهم الأدلة والآيات الكونية الدالة على وجوده تعالى ، فلم ينظروا في هذه الآيات ولم يستدلوا بالأدلة على وجود الخالق القادر سبحانه ، وضرورة البلاغ من الله ، إذن : فعدم علمهم نتيجة غفلتهم وتقصيرهم .

لكن ، ماذا بعد أنْ كذَّبوا الرسل وأنكروا الآيات ، أتتوقف مسيرة الدعوة ، لأنهم صَمُّوا آذانهم عنها؟ لقد خلق الله الكون ونثر فيه الآيات التي تدل على وجود الإله الواحد الأحد ، وجعل فيه المعجزات التي تثبت صِدْق الرسُل في البلاغ عن الله ، والحق سبحانه لا ينتفع بهذه الآيات؛ لأن مُلْكِه تعالى لا يزيد بطاعتنا ، ولا ينقص بمعاصينا ، فالمسألة تعود إلينا نحن أولاً وآخراً ، إذن :

فالحسم في هذه المسألة : دَعْكَ من هؤلاء المكذَّبين يا محمد ، واتبُتْ على ما أنت عليه .
ثم يقول الحق سبحانه : { فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ . . . } .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60)

اصبر على كرههم ، واصبر على لَدَدهم وعنادهم ، واصبر على إيذائهم لك ولمن يؤمن بك ، اصبر على هذا كله؛ لأن العاقبة في صالحك { إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ . . . } [الروم : 60] . وقد وعد الله رسله بالنصرة والغَلَبة ، ووَعْد الله حق ، فتأكد أن النصر آتٍ .
لكن ما دام النصر آتياً ، فلماذا هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين؟ ولماذا كل هذه المشقة والعناء في سبيل الدعوة؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أن يُمحِّص أتباع محمد ، وأن يُدرِّبهم على مسئولية حمل أمانة الدعوة وشعلة النور من بعد رسول الله ، لا إلى اهل الجزيرة العربية وحدها ، إنما إلى الكون كله .
فلا بُدَّ أنْ يكونوا من أهل الثبات على المبدأ الذين لا تزعزعهم الشدائد ، والدليل على ذلك أنهم يُؤذَوْن ويُضطهدون فيصبرون ، وهذه أهم صفة فيمن يُعدُّ لتحمُّل الأمانة .
لذلك نقول : إذا رأيتَ منهجاً أو مبدأ يغدق على أصحابه أولاً ، فاعلم أنه مبدأ باطل؛ لأن المبدأ الحق يضحي أهله من أجله بأنفسهم وبأموالهم ، يعطونه قبل أنْ يأخذوا منه ، لماذا؟ لأن صاحب المبدأ الباطل لن يجد مَنْ يناصره على باطله إلا إذا أغراهم بالمال أولاً واشترى ذممهم ، وإلا فماذا يلجئه إلى مبدأ باطل ، ويحمله على اتباعه؟ إذن : لا بد أن يقبض الثمن أولاً .
أما المبدأ الحق فيعلم صاحبه أن الثمن مُؤجَّل للآخرة ، فهو ممنَّى بأشياء فوق هذه الدنيا يؤمن بها ويعمل من أجلها ، فتهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله في سبيل هذا المبدأ .
وفي رحلة الدعوة ، رأينا الكثيرين يتساقطون بالردة عندما تَحْدثُ لرسول الله آية أو هزة تَهزُّ الناس ، وكأن الشدة غربال يميز هؤلاء وهؤلاء ، حتى لا يبقى تحت راية لا إله إلا الله إلا الصناديد الأقوياء القادرون على حمل هذا اللواء إلى العالم كله .
فالله يقول لنبيه : اصبر على تكذيبهم وعلى إنكارهم وعلى ائتمارهم عليك ، فنحن مُؤيدوك ، ولن نتخلى عنك ، وقد وضح لك هذا التأييد حين جاهروك فانتصرت على جهرهم وبيَّتوا لك في الخفاء فانتصرتَ على تبييتهم ، واستعانوا حتى بالجن ليفسدوا عليك أمرك ، ففضح الله تدبيرهم ونجاك منهم .
إذن : فاطمئن ، فنحن لهم بالمرصاد ، ولن نُسْلِمك أبداً ، بل وسوف نريك فيهم ما يستحقون من العقاب في الدنيا ، وتراه بعينك ، أو في الآخرة بعد موتك : { فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [غافر : 77] .
ومن هذا العقاب الذي نزل بهم في الدنيا ورآه سيدنا رسول الله ما حاق بهم يوم بدر من قَتْل

وأسْر وتشريد ، وقلنا : إن عمر رضي الله عنه وما أدراك ما عمر ، فقد كان القرآن ينزل على وَفْق رأيه ، ومع ذلك لما نزلت :

{ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] تعجب وقال : أيُّ جمع هذا الذي سيُهزم ، ونحن عاجزون حتى حماية أنفسنا ، فلما كانت بدر ، ورأى ما رأى قال : صدق الله { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45]

وقوله تعالى : { إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ . . . } [الروم : 60] الوعد : هو البشارة بخير لم يأت زمنه الآن ، وفَرْق بين الوعد بالخير من إنسان ، والوعد من الله تعالى ، فوَعْدكَ قد يختلف لأنك ابن أغيار ، ولا تملك كل عناصر الوفاء بالوعد ، وربما جاء وقت الوفاء فلم تقدر عليه أو تتغير نفسك من ناحيته فتبخل عليه ، أو تراه لا يستحق . . . إلخ .

إذن : الأغيار التي تنتابك أو تنتابه أو تنتاب قيمة ما تؤديه من الخير موجودة ، وقد تحول بينك وبين الوفاء بما وعدتَ .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أنْ نحتاط لهذا الأمر ، فيقول سبحانه : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . } [الكهف : 23-24] فاربط فِعْلك بمشيئة الله التي تُيسِّر لك الفعل ، ولا ينبغي أنْ تجزم بشيء أنتَ لا تملك شيئاً من أسبابه .

قلنا : هَبْ أنك قلتَ : سألقاك غداً في المكان الفلاني ، وسأعطيك كذا وكذا ، فأنت قلتَ هذه المقولة ووعدتَ هذا الوعد وأنت لا تضمن أن تعيش لغد ، ولا تضمن أنْ يعيش صاحبك ، وإنْ عِشْتُما لغد فقد يتغير رأيك ، أو يصيبك شيء يعوقك عن الوفاء ، إذَن : فقولك إنْ شاء الله يحميك أنْ تُوصف بالكذب في حالة عدم الوفاء؛ لأنك وعدتَ ولم يشأ الله ، فلا دخلَ لك في الأمر .

فالوعد الحق يأتي ممَّنْ؟ مِنَ الذي يملك كُلَّ أسباب الوفاء ، ولا يمنعه عنه مانع .

وقوله تعالى : { وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ } [الروم : 60] خف الشيء : لم يَعُدْ له ثِقَل ، واستخفّ غيره : طلب منه أنْ يكون خفيفاً ، فمثلاً حين تقسو على شخص يأتي آخر فيقول لك : خف عنه . واستخفّه مثل استفزّه يعني : حرّكة وذبذبة من ثباته ، فإنْ كان قاعداً مثلاً هَبَّ واقفاً .

لذلك نقول في مثل هذه المواقف (خليك ثقيل . . فلان بيستفزك يعني : يريد أنْ يُخرجك عن حلمك وثباتك . . متبقاش خفيف . . إلخ) ونقول للولد (فز) يعني قِفْ انهض ، ومنه قوله تعالى { واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . . } [الإسراء : 64]

إذن : فالمعنى استخفه : حمله على الخفة وأن يتحول عن الثبات الذي هو عليه .

فالمعنى : إياك يا محمد أنْ يستفزّك القوم ، أو يُخرجوك عن ثباتك ، فتتصادم معهم ، لكن ظلّ على ثباتك في دعوتك ولا تقلق؛ لأن الله وعدك بالنصرة ووَعْد الله حَقٌّ . والحق سبحانه ساعة يُرخِي العنان لمن كفر به إنما يريد أنْ يُخرِج كل ما عندهم حتى لا يبقى لهم عذر ، ثم يقابلهم ببعض ما عنده مما يستحقون في الدنيا ، والباقي سيرونه في الآخرة .

والله يقول : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون }

[الصافات : 171-173] .

ومن سيرة الإمام علي – رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه – علمنا أنه ابتُلي بجماعتين : الخوارج الذين يُكفِّرونه ، والشيعة الذين يُؤلهونه ويصلون به إلى درجة النبوة ، حتى صدق فيه قول رسول الله : « هلك فيك اثنان : مُحب غالٍ ، ومبغض قَالٍ » .

ويروى أنه – رضي الله عنه – كان يصلي يوماً الفجر بالناس ، فلما قرأ : (ولا الضالين) اقترب منه أحد الخوارج وقرأ : { وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين } [الزمر : 65] يريد أن يقول له : أنت كافر ولن يقبل منك عملك .

وسرعان ما فطن علي لما أراده الرجل ، فقرأ بعدها مباشرة : { فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ } [الروم : 60] . يعني : لن تُخرِجني عن ثباتي وحِلْمي ولن تستفزني .

والعظمة في هذا الموقف أنْ يرد عليه لتوّه بالقول الشافي من كتاب الله دون سابق إعداد أو ترتيب ، ولِمَ لا ، وهو علي بن أبي طالب الذي أُوتِي باعاً طويلاً في البلاغة والفصاحة والحجة .

ومعنى : { الذين لاَ يُوقِنُونَ } [الروم : 60] من اليقين ، وهو الإيمان الثابت الذي لا يتزعزع ، فيصير عقيدة في القلب لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد .

الم (1)

{ الم }

سبق أنْ فصَّلنا القول في الحروف المقطعّة في بدايات السور ، وذكرنا كل ما يمكن أن يقوله بشر ، وبعد هذا كله نقول : والله أعلم بمراده؛ لأننا مهما أوتينا من العلم فلن نصل إلى غاية هذه الحروف ، وسيظل فيها من المعاني ما نعجز نحن عن الوصول إليه .

فإنْ قلتَ : فما فائدة هذه الحروف المقطعة إنْ كانت غير معلومة المعنى؟ نقول : نحن نناقشكم بالعقل وبالمنطق ، فالقرآن نزل بأسلوب عربي ، وتحدى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان وأصحاب التعبير الجميل والأداء الرائع ، ونزل في قريش التي جمعتْ في لغتها كل لغات

القبائل العربية ، وقد خرج منها صناديد كذبوا محمداً ، وكفروا بدعوته ، فهل سمعنا منهم مَنْ يقول مثلاً : ما معنى (الم) أو (حم) .

والله لو كان فيها مطعن ما تركوه ، إذن : فهذا دليل على أنهم فهموا هذه الحروف ، وعرفوا أن لها معنى أبسطها أن نقول : هي من حروف التنبيه التي كان يستخدمها العرب في كلامهم ، فهي مثل (إلا) في قول الشاعر :

ألاَ هُبِّي بِصحْنك فَاصْبِحينا ... ولاَ تُبْقِ خُمور الأَنْدرينَا

فألا أداة للتنبيه ، وتأتي أهمية التنبيه في أول الكلام من أن المتكلم يملك زمام منطقه فيرتبه ويُعده ، ويدير المسائل بنسب ذهنية في ذِهْنه ، لكن السامع قد يكون غافلاً ، فيُفاجأ بالكلام دون استعداد ، فيفوته منه شيء ، فتأتي حروف التنبيه لتُخرِجه من غفلته ، وتسترعي انتباهه ، فلا يفوته من كلامك شيء ، إذن : أبسط ما يقال في هذه الحروف أنها للتنبيه على طريقة العرب في كلامهم .

وسبق أنْ بيَّنا أن القرآن مبني كله على الوصل في آياته وسوره ، بل في آخره وأوله نقول : (من الجنة والناس بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين) وكذلك في الآيات والسور . وكأن الله تعالى يريد منك ألاَّ تفصل آية من القرآن عن التي بعدها؛ لذلك يقولون عن قارئ القرآن : هو الحالّ المرتحل ، فهو حالٌّ في آية أو سورة ، مرتحل إلى التي تليها .

إذن : الوصْل سِمَة عامة في القرآن كله لا يستثنى من ذلك إلا الحروف المقطعة في بدايات السور ، فهي قائمة على القطع ، فلا نقول هنا ألفٌ لامٌ ميمٌ ، لكن نقول ألفْ لامْ ميمْ ، فلماذا اختلفت هذه الحروف عن السمة العامة للقرآن كله؟

قالوا : ليدلَّك على أن الألف أو اللام أو الميم ، لكل منها معناه المستقل ، وليست مجرد حروف كغيرها من حروف القرآن؛ لذلك خالفتْ نسق القرآن في الوصل؛ لأن لها معنىً مستقلاً تؤديه .

ويفسر هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

ثم يقول الحق سبحانه : { تِلْكَ آيَاتُ الكتاب . . . } .

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2)

تلك : اسم إشارة للمؤنث مثل ذلك المذكر ، وهي عبارة عن التاء للإشارة ، واللام للبُعْد ، سواء أكان في المكان أو في المكانة والمنزلة ، ثم الكاف للخطاب ، وتأتي بحسب المخاطب مذكراً أو مؤنثاً ، مفرداً أو مثنىً أو جمعاً .

فتقول في خطاب المفرد المذكر : تلك . وللمفردة المؤنثة : تلك . وللمثنى تلكما . . إلخ ، ومن ذلك قول امرأة العزيز في شأن يوسف عليه السلام : { فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ . . . . } [

يوسف : 32] .

فذا اسم اشارة ليوسف ، واللام للبعد وكُنَّ ضمير لمخاطبة جمع المؤنث ويقول تعالى في خطاب موسى : { فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ . . . } [القصص : 32] أي اليد والعصا ، فذانِ اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب .

والإشارة هنا { تِلْكَ آيَاتُ . . . } [لقمان : 2] لمؤنث وهي الآيات ، والمخاطب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته تبع له ، والقرآن الكريم مرة يشير إلى الآيات ، ومرة يشير إلى الكتاب نفسه ، فيقول : الكتاب أو الفرقان ، أو القرآن ولكل منها معنى .

فالكتاب دلَّ على أنه يُكتب وتحويه السطور ، والقرآن دلَّ على أنه يُقرأ وتحويه الصدور ، أما الفرقان فهذه هي المهمة التي يقوم بها : أنْ يفرق بين الحق والباطل .

وهنا قال : { تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم } [لقمان : 2] فوصفه بالحكمة ، أما في أول البقرة فقال : { ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى . . . } [البقرة : 2] فلم يُوصَف بالحكمة ، إنما نفى عنه أن يكون فيه ريب . أي : شك .

وكلمة { لاَ رَيْبَ فِيهِ . . . } [البقرة : 2] تؤكد لنا صِدْق الرسول في البلاغ عن الله ، وصَدْق الملك الذي حمله من اللوح المحفوظ إلى رسول الله ، وقد مدحه الله بقوله { ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ } [التكوير : 20] .

وقال عن سيدنا رسول الله في شأن تبليغ القرآن { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين } [الحاقة : 44-46] .

إذن : فالقرآن كما نزل من عند الله ، لم يُغيَّر فيه حرف واحد ، وسيظل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أنْ تقوم الساعة ، وسنظل نقرأ { لاَ رَيْبَ فِيهِ . . . } [البقرة : 2] .

ويقرؤها مَنْ بعدنا إلى قيام الساعة ، فقد حكم الحق سبحانه بأنه لا ريْب في هذا القرآن منذ نزل إلى قيام الساعة ، فإنْ شككونا في شيء من كتاب ربنا فعلينا أن نقرأ : { ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } [البقرة : 2] .

فهذه قضية حكم الله بها ، وهي ممتدة وباقية ما بقيتْ الدنيا ، كما سبق أنْ قُلْنا ذلك في قوله تعالى : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ . . . } [فصلت : 53] . فالآية تستوعب المستقبل كله ، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن ، ومستقبل مَنْ يأتي بعد إلى قيام الساعة ، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليه .

فالقرآن لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته في قَرْن واحد ، ولا في أمة واحدة ، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء ، الله يريد للقرآن أنْ يظل جديداً تأخذ منه كل الأمم وكل العصور ، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته في الكون .

ومعنى { الكتاب الحكيم } [لقمان : 2] الكتاب لا يُوصَف بالحكمة إنما يُوصَف بالحكمة مَنْ يعلم ، فالمعنى : الكتاب الحكيم أي : الموصوف بالحكمة ، أو الحكيم قائله ، أو الحكيم مُنزِله .
ومعنى حكيم : هو الذي يضع الشيء في موضعه ، ولا يضعَ الشيء في موضعه إلا الله؛ لأنه هو الذي يعلم صِدْق الشيء في موضعه .
أما نحن فنهتدى إلى موضع الشيء ، ثم يتبين لنا خطؤه في موضعه ، ونضطر إلى تغييره أو تعديله ككثير من المخترعات التي ظننا أنها تخدم البشرية قد رأينا مضارها ، واكتوينْا بنارها فيما بعد .
فكل آية ذكرت ناحية من نواحي كمال القرآن وجهة من جهات عظمته ، إذن : فهي لقطات مختلفة لشيء واحد متعدد الملكات في الكمال ، وكذلك تجد تعدد الكمالات في الآية بعدها : { هُدًى وَرَحْمَةً . . . } .

هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3)

هنا يقول سبحانه { هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ } [لقمان : 3] أما في صدر سورة البقرة فيقول { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } [البقرة : 2] وفَرْق بين المعنيين ، فالتقوى تقتضي الإيمان ، ومطلوب الإيمان الافتراض يعني : أنْ تؤدي ما فرضه الله عليك .
أما مطلوب الإحسان ففوق ذلك ، فالإحسان في الأداء أن تُحسن في كَمِّه ، وأن تحسن في كيفه : تحسن في كيفه بأن تستطحب مع العمل الإخلاصَ للمعمول له ، وهو الحق سبحانه ، وتحسن في كَمِّه بأنْ تعشق التكليف حتى تؤدي فوق ما فُرِض عليك ، فبدل أنْ تصلي ركعتين أن تصلي ثلاثاً أو أربعاً ، هذا إحسان في الكم .
والتقوى من عجائب التأويل القرآني كما سبق أنْ قلنا . فالقرآن يقول (اتقوا الله) ويقول (اتقوا النار) ، والمعنى عند التحقيق واحد؛ لأن اتق النار يعني : اجعل بينك وبينها وقاية وحاجزاً يمنعك منها ، كذلك اتق الله ، لا أن تجعل بينك وبين ربك حاجزاً؛ لأن المؤمن دائماً يكون في معية الله .
إنما اجعل بيك وبين صفات الجلال ومتعلقاتها من الله وقاية ، اتق صفات المنتقم الجبار القهار . . إلخ؛ لأنك لستَ مطيقاً لهذه الصفات ، ولا شكَّ أن النار جندي من جند الله ، ومتعلق من متعلقات صفات الجلال إذن : فالمعني واحد .
والبعض يأخذون بالظاهر فيقولون : كيف نتقي الله ، والتقوى أن تبعد شيئاً ضاراً عنك؟ نقول : نعم أنت تبعد عنك الكفر ، وهذا هو عين التقوى ، والمتقون هم الذين يحبون أنْ يتقوا الله بألاَّ يكونوا كافرين به ، وما دام الإنسان اتقى الكفر فهو مُحسِن ومؤمن ، فالقرآن مرة يأتي باللازم ، ومرة بالملزوم ، ليؤدي كل منهما معنى جديداً
لذلك لما سُئِل سيدنا رسول الله عن الإحسان – في حديث جبريل – قال : « أنْ تعبد الله كأنك

تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك » .

فحين نوازن بين صدر سورة البقرة ، وبين هذه الآية { هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ } [لقمان : 3] نرى أن القرآن لا يقوم على التكرار ، إنما هي لقطات إعجازية كل منها يؤدي معنى ، وإنْ ظن البعض في النظرة السطحية أنه تكرار ، لكن هو في حقيقة الأمر عطاء جديد لو تأملته .

فهنا وصف الكتاب بأنه حكيم ، وأنه هدى ورحمة : والهدى هو الدلالة على الخير بأقصر طريق ، وقد نزل القرآن لهداية قوم قد ضلوا ، فلما هداهم إلى الصواب وأراهم النور أراد أنْ يحفظ لهم هذه الهداية ، وألاَّ يخرجوا عنها فقال { وَرَحْمَةً } [لقمان : 3] يعني : من رحمة الله بهم ألاَّ يعودوا إلى الضلال مرة أخرى .

كما في قوله سبحانه : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَاراً } [الإسراء : 82] . فالمعنى : شفاء لمن كان مريضاً ، ورحمة بألاَّ يمرض أبداً بعد ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه : { الذين يُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكاة . . . } .

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

جاءت هذه الآية كوصف للمحسنين ، فهل هذه هي كل صفاتهم ، أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وبالآخرة هم يوقنون؟ قالوا : لا لكن هذه الصفات هي العُمد الأساسية ، والحق سبحانه يريد من خَلْقه سواسية في العبودية ، وهذه السواسية لا تتأتى إلا إذا تساوى الجميع .

وفي الصلاة بالذات تتجلى هذه المساواة ، وفيها يظهر عِزّ الربوبية وذل العبودية ، وفيها منتهى الخضوع لله عز وجل ، ثم هي تتكرر خمس مرات في اليوم والليلة .

أما الفرائض الأخرى فلا تأخذ هذه الصورة ، فالزكاة مثلاً تجب مرة واحدة في العام { وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ } [الأنعام : 141] وتجب على القادر فقط دون غيره ، كذلك الصوم والحج ، فكأن الصلاة هي عمدة العبادات كلها ، ولشرفها ومنزلتها جعلها الله لازمة للعبد ولا تسقط عنه بحال إبداً؛ لذلك شُرعت صلاة المريض والمسافر والخائف . . . الخ .

وفي الصلاة استطراق للعبودية في الخَلْق جميعاً ، حيث نخلع أقدارنا حين نخلع نعالنا على باب المسجد ، ففي الصف الواحد ، الرئيس والمرءوس ، والكبير والصغير ، والرفيع والوضيع – نقصد الوضيع في نظر الناس ، وربما لا يكون وضيعاً عند ربه – فالجميع هنا سواء ، ثم حين نرى الكبار والرؤساء والسادة معنا في الصفوف خاضعين لله أذلاء تزول بيننا الفوارق ، ويدكُّ في نفوسهم الكبرياء ، فلا يتعالى أحد في مجتمع المسلمين على أحد .

ولمنزلة الصلاة وأهميتها رأينا كيف أنها الفريضة الوحيدة التي فرضها الله علينا بالمباشرة ، أما باقي التكاليف فقد فُرِضَتْ بواسطة الوحي ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك برئيس العمل حينما يأتيه أمر

هام ، فلا يأمر به بمكاتبة أو بالتليفون ، إنما يستدعي الموظف المختص إلى مكتبه ، ويلقي إليه الأمر مباشرة .

وكذلك رسول الله استدعاه ربه إلى السماء ، وأخذ حظاً بالقُرْب من الله تعالى ، والله سبحانه يعلم حب الرسول لأمته وحرصه عليهم ، وعلى أنْ ينالوا هم أيضاً هذا القرب من حضرته تعالى ، فأجابه ربه ، وجعل الصلاة حضوراً للعبد في حضرته تعالى ، وقرباً كقرب رسول الله في رحلة المعراج .

لذلك خاطبه ربه بقوله : { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى } [الضحى : 5]

فقال سيدنا رسول الله : « إذن ، لا أرضى وواحد من أمتي في النار » .

وكما تُحدِث الصلاة استطراق عبودية تُحدث الزكاةُ في المجتمع استطراقاً اقتصادياً ، فيعيش الجميع الغني والفقير عيشة كريمة مُيسَّرة ، فلا يشبع واحد حتى التخمة ، والآخر يموت جوعاً . وما بالك بمجتمع لا يتعالى فيه الكبير على الصغير ولا يبخل فيه الغني على الفقير؟ إذن : في الصلاة والزكاة ما يكفل سعادة المجتمع كله .

وقد فرض الله الزكاة للفقراء؛ لأن الله سبحانه حين يستدعي عبد إلى كونه لا بُدَّ أنْ يضمن له مُقومات الحياة ، ولم لا وأنت إذا دعوْتَ شخصاً إلى بيتك لا بُدَّ أنْ تكرمه ، وأنْ تُعِد له على الأقل ضروريات ما يلزمه فضلاً عن الإكرام والحفاوة ورفاهية المأكل والمشرب .

. الخ .

فالله سبحانه استدعى عباده إلى الوجود مؤمنهم وكافرهم ، وعليه سبحانه أنْ يوفر لهم القوت ، بل كل مقومات حياتهم ، كذلك يضمن للعاجز غير القادر قوته ، لذلك يفرض الزكاة حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فهي صِلاتٌ والأولى صلاة .

ولهذه المسألة قصة في الأدب العربي ، فيُرْوى أن ابن مدبر وكنيته أبو الحسن ، كان الشعراء يقصدونه للنيل من عطاياه ، يقولون : إن الُها تفتح اللَّها ، أي : أن العطايا تفتح الأفواه بالمدح والثناء .

لكن ، كان ابن المدبر إذا مدحه شاعر بشعر لم يعجبه يأمر رجاله أنْ يأخذوه إلى المسجد ولا يتركوه حتى يصلي لله مائة ركعة ، وبذلك خافه الشعراء وتحاشوْا الذهاب إليه إلا أبو عبدالله الحسين بن عبدالسلام البشري ، ذهب إليه وقال : عندي شعر أحب أنْ أنشده لك .

فقال : أتدري ما الشرط؟ قال : نعم ، قال : قُلْ ما عندك ، فقال :

أَرَدْنَ فِي أَبِي حَسَنٍ مَدِيحاً ... كَمَا بالمْدحِ تُنْتَجَعُ الوُلاَة

يعني : يذهب الشعراء إليهم لينالوا من خيراتهم .

فَقُلْنا أَكْرَمُ الثَّقلَيْنِ طُرّاً ... ومِنْ كفَّيْهِ دجلَةُ والفُراتُ

وقالوا يَقبل المدحاةَ لكنْ ... جَوَائِزُهُ عليهِنَّ الصَّلاَةُ
فقُلْتُ لهم ومَا تُغَني صَلاَتِي ... عِيَالي إنما الشْأنُ الزَّكَاةُ
فَيأمُر لي بِكسْر الصّادِ منها ... فَتُصبح لِي الصِّلات هِي الصَّلاةُ

فلما تجرَّأ عليه أحدهم وسأله : لماذا تعاقب مَنْ لم يعجبك شعره بصلاة مائة ركعة؟ فقال : لأنه إما مسيء وإما محسن ، فإنْ كان مسيئاً فهي كفارة لإساءته في شعره ، وإنْ كان محسناً فهي كفارة لكذبه فيَّ .

ثم يقول سبحانه في وصفهم : { وَهُمْ بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ } [لقمان : 4] لأن الإيمان باليوم الآخر يقتضي أنْ نعمل بمنهج الله في (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، ونحن على يقين من أننا لن نفلت من الله ولن نهرب من عقابه في الآخرة ، وأننا مُحَاسبون على أعمالنا ، فلم نُخلق عبثاً ، ولن نُتْرك سدى ، كما قال سبحانه : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ } [المؤمنون : 115] .

ونلحظ هما في الأسلوب تكرار ضمير الغيبة (هم) فقال : { وَهُمْ بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ } [لقمان : 4] وهذا يدلُّنا على أن الإيمان بالآخرة أمر مؤكد لا شكَّ فيه ، ومع أن الناس يؤمنون بهذا اليوم ، ويؤمنون أنهم محاسبون ، وأن الله لم يكلفهم عبثاً – مع هذا – يؤكد الحق سبحانه على أمر الآخرة؛ لأنها مسألة بعيدة في نظر الناس ، وربما غفلوا عنها لبُعْدها عنهم ، ولم لا وهم يغفلون حتى عن الموت الذي يرونه أمامهم كل يوم ، ولكن عادة الإنسان أن يستعبده في حق نفسه .

لذلك يقول الحسن البصري : ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت .

أما الكفار فينكرون هذا اليوم ، ولا يؤمنون به؛ لذلك أكد الله عليه .

ولما « سأل النبي صلى الله عليه وسلم حذيفة رضي الله عنه : » كيف أصبحت يا حذيفة؟ « قال : أصبحت مؤمنا حقاً ، فقال : » لكلِّ حقٍّ حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال : عزفتْ نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون « فقال صلى الله عليه وسلم : » عرفتَ فالزم « » .

وقوله { يُوقِنُونَ } [لقمان : 4] من اليقين ، وهو الإيمان الراسخ الذي لا يتزعزع ، ولا يطرأ عليه شكٌّ فيطفو إلى العقل ليناقش من جديد وسبق أنْ قُلْنا : إن المعلومة تتدرج على ثلاث مراحل : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

علم اليقين إذا أخبرك به مَنْ تثق به ، فإذا رأيتَ ما أخبرك به فهو عين اليقين ، فإذا باشرتَ ذلك بنفسك فهو حَقُّ اليقين .

وضربنا لذلك مثلاً إذا قلت لك : إن البيت الحرام في مكة وصفَته كذا وكذا ، وقد حدثت فيه

توسعات كذا وكذا ، فهذه المعلومات بالنسبة لك علم يقين ، فإذا رأيتَ الحرم فهي عَيْن يقين ، فإذا يسَّر الله لك الحج أو العمرة فباشرْتَه بنفسك ، فهو حَقُّ اليقين .

والحق سبحانه وتعالى عالج هذه المراتب في سورتين : { أَلْهَاكُمُ التكاثر * حتى زُرْتُمُ المقابر * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين * لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم } [التكاثر : 1-8] .

وذلك حين يمرون على الصراط ويرونَ النار بأعينهم رأي العين .

أما حق اليقين بالنسبة للنار ، فقد جاء في قوله تعالى : { فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المقربين * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين * فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم } [الواقعة : 88-96] .

لكن ، هل القرآن نزل هُدى للمتقين ، وهدى للمحسنين فحسب؟ قلنا : إن الهداية تأتي بمعنيين : هداية دلالة وإرشاد ، وهداية توفيق ومعونة ، فإن كانت هداية دلالة فقد دلّ الله المؤمن والكافر بدليل قوله تعالى { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى } [فصلت : 17]

فالحق سبحانه دلَّ الجميع لأنهم عباده ، فمنهم من قَبِل الدلالة واقتنع بها فآمن ، ومنهم مَنْ رفضها فكفر ، أما الذي قَبِل دلاَلة الله وآمن به فيزيده الله هداية أخرى ، هي المعونة علىَ الإيمان ، فيُحَبِّبه إليه حتى يعشقه ، ثم يعينه عليه ، كما قال سبحانه { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .

ثم يقول الحق سبحانه : { أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ . . . } .

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

وصف الحق سبحانه قرآنه بأنه هدى ، أما هنا فيقول : { أولئك على هُدًى } [لقمان : 5] والمتكلم هو الله – عز وجل – فلا بُدَّ أنْ نتأمل المعنى ، ربنا عز وجل يريد أنْ يقول لنا نعم القرآن هُدى ، لكن إياك أنْ تظن أنك حين تتبع هذا الهدى تنفعه بشيء ، إنما المنتفع بالهداية أنت ، فحين تكون على الهدى يدلُّك ويسير بك إلى الخير ، فالهدى كأنه مطية يُوصِّلك إلى الخير والصلاح ، فأنت مُسْتعلٍ على الهدى إنْ قَبِلْتَه ، وإنْ كان هو مُسْتَعلياً عليك تشريعاً .

ثم هو هدى ممَّنْ؟ { هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ } [لقمان : 5] ممن لا يستدرك عليه ، فإنْ دلَّك دلَّك بحق ، وهَبْ أن البشر اهتدوْا إلى شيء فيه خير ، لكن بعد فترة يعارضون هم أنفسهم هذا الطريق ، ويكتشفون له مضارّ ومثالب ، ويستدركون عليه ، وربما يعدلون عنه إلى غيره ، وكم هي القوانين البشرية التي أُلغيت أو عُدِّلت؟

إذن : الهداية والدلالة الحقة لا تكون إلا لله ، والقانون الذي ينبغي أن يحكمنا ونطمئن إليه لا يكون إلا لله ، لماذا؟ لأن البشر ربما ينتفعون من قوانينهم ، وقد تتحكم فيهم الأهواء أو يميلون لشخص على حساب الآخر ، أما الحق – سبحانه وتعالى – فهو وحده سبحانه الذي لا ينتفع بشيء مما شرع لعباده ، ولا يحابي أحداً على حساب أحد ، والعباد كلهم عباده وعنده سواء .

لذلك يطمئننا الحق سبحانه على تشريعه وعدالته سبحانه ، فيقول { مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً } [الجن : 3] يعني : اطمئنوا ، فربكم ليس له صاحبة تؤثر عليه ، ولا ولد يظلم الناس فيحابيه ، فأنتم جميعاً عنده سواسية .

ثم هناك فَرْق بين هُدى من الله ، وهدى من الرب ، فالرب هو الذي ربَّاك ، هو الذي أوجدك من عَدم ، وأمدك من عُدْم ، وأعطاك قبل أنْ تعرف السؤال ، وتركك تربع في كونه وتتمتع بنعمه .

لذلك يُعلمك ربك : إياك أنْ تسألني عن رزق غدٍ؛ لأنني رزقْتُك قبل أنْ تعرف أن تسأل ، ثم لم أطالبك بعبادة غدٍ ، إذن : ليكُنْ العبد مؤدباً مع ربه عزوجل .

وهكذا نتبين أن الربوبية عطاء ، أما الألوهية فتكليف .

ثم يخبر الحق سبحانه عنهم بخبر آخر { وأولئك هُمُ المفلحون } [لقمان : 5] فالفلاح نتيجة الهدى الذي ساروا عليه واتبعوه ، كما قال تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون } [المؤمنون : 1] .

الفلاح أصله من فلاحة الأرض بالحرث والبَذْر والسَّقْى . . الخ ، فاستعارها أسلوب القرآن للعمل الصالح ، ووجه الشبه بين الأمرين واضح ، فالفلاح يلقى الحبة فيضاعفها له ربه سبعمائة حبة ، كذلك العمل الصالح يُضَاعَف لصاحبه ، فالحسنة عند الله بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف { والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ } [البقرة : 261]

واقرأ في كتاب الله هذا المثل : { مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : 261] .

وتأمل الاستدلال هنا : إذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعطي كل هذا العطاء ، فكيف يكون عطاء مَنْ خلقها؟ إذن : فهم لاشكَّ مفلحون أي : فائزون بالثمرة الطيبة التي تفوق ما بذلوه من مشقة ، كما يزرع الفلاح الأرض فتعطيه أضعاف ما وُضِع فيها .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله بِغَيْرِ . . . } .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6)

بعد أن ذكر الحق سبحانه الكتاب وآياته ، وأن فيه هدى ورحمة لمن اتبعه وفلاحاً لمن سار على هديه يبين لنا أن هناك نوعاً آخر من الناس ينتفعون بالضلال ويستفيدون منه ، وإلا ما راجتْ

سوقه ، ولما انتشر بين الناس أشكالاً وألواناً .

لذلك نرى للضلال فئة مخصوصة حظهم أن يستمر وأن ينتشر لتظل مكاسبهم ، ولتظل لهم سيادتهم على الخَلْق وعبوديتهم لهم واستنزاف خيراتهم .

وطبيعي إنْ وُجِد قانون يعيد توازن الصلاح للمجتمع لا يقف في وجهه إلا هؤلاء يحاربونه ويحاربون أهله ويتهمونهم ويُشككون في نواياهم ، بل ويواجهونهم بالسخرية والاستهزاء مرة وبالتعدي مرة أخرى .

وربما قطعوا عليهم سبل الحياة ، كما عزلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شِعْب أبي طالب ، ثم يُكرهون أهل الحق على الهجرة والخروج من أموالهم وأهلهم إلى الحبشة مرة ، وإلى المدينة مرة أخرى ، لماذا؟ لأن حياتهم تقوم على هذا الضلال فلا بُدَّ أنْ يحافظوا عليه .

والحق سبحانه يبين لنا أن هؤلاء الذين يحاربون الحق ويقفون في وجه الدعوة إلى الإيمان يعرفون تماماً أنهم لو تركوا الناس يسمعون منهج الله وداعي الخير لا بُدَّ أنْ يميلوا إليه؛ لذلك يَحُولُون بين آذان الناس ومنطق الحق ، فهم الذين قالوا للناس : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ . . . } [فصلت : 26]

وما ذلك إلا أنهم واثقون من لغة القرآن وجمال أسلوبه ، واستمالته للقلوب بحلو بيانه ، فلو سمعتْه الأذن العربية لا بُدَّ وأنْ تتأثر به ، وتقف على وجوه إعجازه ، وتنتهي إلى الإيمان .

فإذا ما أفلتَ منهم أحد ، وانصرف إلى سماع الحق أتوْهُ بصوارف أخرى وأصوات تصرفه عن الحق إلى الباطل .

وقوله { وَمِنَ الناس } [لقمان : 6] من هنا للتبعيض أي : الناس المستفيدون من الضلال ، والذين يسؤوهم أنْ يأتم الناس جميعاً بمنطق واحد ، وهدف واحد ، وهدى واحد؛ لأن هذه الوحدة تقضي على تميزهم وجبروتهم وظلمهم في الأرض؛ لذلك يبذلون قصارى جهدهم في الضلال { وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله . . . } [لقمان : 6]

قوله تعالى : { يَشْتَرِي } [لقمان : 6] من الشراء الذي يقابله البيع ، والشراء أنْ تدفع ثمناً وتأخذ في مقابله مُثمناً ، وهذا بعدما وُجِد النقد ، لكن قبل وجود النقد كان الناس يتعاملون بالمقايضة والتبادل سلعة بسلعة ، وفي هذه الحالة فكل سلعة مباعة وكل سلعة مشتراة ، وكل منهما بائع ومُشْتر .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : { وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين } [يوسف : 20] .

والمعنى : شروه أي : باعوه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { وَمِنَ الناس مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابتغآء مَرْضَاتِ الله . . . } [البقرة

: 207] .

أي : يبيعها ، إذن : الفعل (شَرَى) يأتي بمعنى البيع ، وبمعنى الشراء .

أما إذا جاء الفعل بصيغة (اشترى) فإنه يدل على الشراء الذي يُدفع له ثمن ، ومن ذلك قوله تعالى : { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَمَن يُؤْمِنُ بالله وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً . . . } [آل عمران : 199]

وقوله تعالى : { إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة } [التوبة : 111]

وعادة تدخل الباء على المتروك تقول : اشتريتُ كذا بكذا

وحين نتأمل قوله تعالى : { وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث . . . } [لقمان : 6] نجد أن هذه عملية تحتاج إلى طلب للشيء المشترَى ، ثم إلى ثمن يُدفع فيه ، وليت الشراء لشيء مفيد إنما { لَهْوَ الحديث } [لقمان : 6] وهذه سلعة خسيسة .

إذن : هؤلاء الذين يريدون أنْ يصدوا عن سبيل الله تحملوا مشقة الطلب ، وتحملوا غُرْم الثمن ، ثم وُصِفوا بالخيبة لأنهم رَضوا بسلعة خسيسة ، والأدهى من ذلك والأمرّ منَه أن يضعوا هذا في مقابل الحق الذي جاءهم من عند الله على يد رسوله بلا تعب وبلا مشقة وبلا ثمن ، جاءهم فضلاً من عند الله وتكرماً : { قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى } [الشورى : 23]

فأيُّ حمق هذا الذي يوصفون به؟

وكلمة اللهو : ذكر القرآن اللهو وذكر اللعب في عدة آيات ، قدَّمت اللعب على اللهو في قوله تعالى : { وَمَا الحياة الدنيآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [الأنعام : 32]

وفي قوله تعالى : { اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ } [الحديد : 20]

وقدمت اللهو في قوله تعالى : { وَمَا هذه الحياة الدنيآ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ } [العنكبوت : 64]

فقدمت الآيات اللعب في آيتين؛ لأن اللعب أن تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة ، كما يلعب الأطفال ، يعني : حركة لا هدفَ لها ، ونقول عنها (لعب عيال) وسُمِّيت لعباً؛ لأن الطفل يلعب قبل أنْ يُكلّف بشيء ، فلم يشغل باللعب عن غيره من المهمات .

لكن إذا انتقل إلى مرحلة التكليف ، فإن اللعب يشغله عن شيء طُلب منه ، ويُسمَّى في هذه الحالة لهواً ، ومنه قوله تعالى : { وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً } [الجمعة : 11]

إذن : فاللهو هو الشيء الذي لا مصلحة فيه ، ويشغلك عن مطلوب منك .

فآية سورة العنكبوت التي قدمت اللهو على اللعب تعني أن أمور الاشتغال بغير الدين قد بلغت

مبلغاً ، وأن الفساد قد طمَّ واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب ، فهذه أبلغ في المعنى من تقديم اللعب؛ لأن اللعب لم يُلهه عن شيء .

لكن ، ما اللهو الذي اشتروه ليصرفوا الناس به عن الحق وعن دعوة الإسلام؟ إنهم لما سمعوا القرآن فيه قصصاً عن عاد وثمود ، وعن مدين وفرعون . . الخ ، فأرادوا أنْ يشغلوا الناس بمثل هذه القصص .

وقد ذهب واحد منهم وهو النضر بن الحارث إلى بلاد فارس وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حِمْيَر ، اشتراها وجاء بها ، وجعل له مجلساً يجتمع الناس فيه ليقصّها عليهم ، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق في رسول الله .

وآخر يقول : بل جاء أحدهم بمغنية تغنيهم أغاني ماجنة متكسرة .

ومعنى : { لَهْوَ الحديث } [لقمان : 6] قال العلماء : هو كل ما يُلهي عن مطلوب لله ، وإنْ لم يكُنْ في ذاته في غير مطلوب الله لَهْواً ، وعليه فالعمل الذي يُلهي صاحبه من صناعة أو زراعة . . الخ يُعَدُّ من اللهو إنْ شغله مثلاً عن الصلاة ، أو عن أداء واجب لله تعالى .

ومن التصرفات ما يُعَدُّ لهواً ، وإنْ لم يشغلك عن شيء كالغناء ، وللعلماء فيه كلام كثير خاصة بعد أنْ صاحبته الموسيقى وآلات الطرب والحركات الخليعة الماجنة ، ولفقهائنا القدامى رأيهم في هذا الموضوع ، لكن العلماء المحدثين والذين يريدون أنْ يُجيزوا هذه المسألة يأخذون من كلام القدماء زاوية ويُطبِّقونها على غير كلامهم .

نعم ، أباح علماؤنا الأُنْس بالغناء في الأفراح وفي الأعياد اعتماداً على « قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق الذي رأى جاريتين تغنيان في بيت رسول الله فنهرهما ، وقال : أمزمار الشيطان في بيت رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : » دعهما ، فإننا في يوم عيد « » .

وكذلك أباحوا الأناشيد التي تقال لتلهب حماس الجنود في الحرب ، أو التي ينشدها العمال ليطربوا بها أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب العمل ، أو المرأة التي تهدهد ولدها لينام .

ومن ذلك حداء الإبل لتسرع في سيرها ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأنجشة : « رفقاً بالقوارير » فشبَّه النساء في لُطفهن ورقّتهن بالقوارير ، فإذا ما أسرعتْ بهن الإبل هُزَّت بهن الهوادج ، وهذا يشقُّ على النساء .

إذن : لا مانع من كل نصٍّ له غرض نبيل ، أما إنْ أهاج الغرائز فهو حرام – والكلام هنا عن مجرد النص – لأن الخالق سبحانه يعلم طبيعة الغرائز في البشر؛ لذلك نسميها غريزة؛ لأن لها عملاً وتفاعلاً في نفسك بدون أيِّ مؤثرات خارجية ، ولها طاقة لا بُدَّ أنْ تتحرك ، فإنْ أثرْتَها أنت ثارتْ ونزعتْ إلى ما لا تُحمدَ عُقْباه .

وسبق أن أوضحنا أن مراتب الشعور ثلاث : يدرك بحواسه ، ثم وجدان يتكوَّن في النفس نتيجة للإدراك ، ثم النزوع والعمل الذي يترجم هذا الوجدان .

ومن رحمة الله بنا أن الشرع لا يتدخل في هذه المسألة إلا في مرحلة النزوع ، فيقول لك : قِفْ لا تمدّ يدك إلى ما ليس لك : ومثَّلنا لهذه المسألة بالوردة تراها في البستان ، ويُعجبك منظرها ، وتجذبك رائحتها فتعشقها وهذا لك ، فإن مددْتَ يدك لتقطفها يقول لك الشارع قِفْ ليس من حقك .

إذن : فالشارع الحكيم لا يتدخَّل في مرحلة الإدراك ، ولا في المواجيد إلا في مسألة واحدة لا يمكن الفصل فيها بين الإدراك والوجدان والنزوع ، لأنها جميعها شيء واحد ، إنها عملية نظر الرجل إلى المرأة التي لا تحل له ، لماذا هذه المسألة بالذات؟

قالوا : لأنها لا تقف عند حَدِّ الإعجاب بالمنظر ، إنما يُرثك هذا الإعجاب انفعالاً خاصاً في نفسك ، ويُورثك تشكلاً خاصاً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع ، فرحمة بك يا عبدي أنا سأتدخل في هذا الأمر بالذات من أوله ، وأمنعك من مجرد الإدراك ، لأنك إنْ أدركتَ وجدتَ ، وإنْ وجدتَ نزعتَ إلى ما تجد فأثمت في أعراض الناس أو كبت في نفسك ، فأضررتَ بها ، وربك يريد أنْ يُبرئك من الإثم ومن الإضرار بالنفس ، فالأسلم لكم أنْ تغضُّوا أبصاركم .

إذن : لا تقُل الغناء لكن قُلْ النص نفسه : إنْ حثَّ على فضيلة فهو حلال ، وإنْ أهاج الغرائز فهو حرام وباطل ، كالذي يُشبِّب بالمرأة ويذكر مفاتنها ، فهذا حرام حتى في غير الغناء ، فإذا ما أضفتَ إليه الموسيقى والألحان والتكسر والميوعة ازدادت حرمته وتضاعف إثمه .

أما ما نراه الآن وما نسمعه مما يُسمُّونه غناء ، وما يصاحبه من حركات ورقصات وخلاعات وموسيقى صاخبة ، فلا شكّ في حرمته .

فكل ما يُخرج الإنسان عن وقاره ورزانته وكل ما يجرح المشاعر المهذبة فهو حرام ، ثم إن الغناء صوت فإنْ خرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهيّج ، تستعمل فيه الأيدي والأرجل والعينان والوسط . . الخ فهذا كله باطل ومحرم .

ولا ينبغي للمؤمن الذي يملك زمام نفسه أن يقول : إنهم يفرضون ذلك علينا ، فالمؤمن له بصيرة يهتدي بها ، ويُميز بين الغثِّ والسمين ، والحق والباطل ، فكُنْ أنت حكماً على ما ترى وما تسمع ، بل ما يرى وما يسمع أهلك وأولادك ، وبيدك أنت الزمام إنْ شئتَ سمعتَ ، وإنْ شئتَ أغلقتَ الجهاز ، فلا حجة لك لأن أحداً لا يستطيع أنْ يجبرك على سماع أو رؤية ما تكره .

ففي رمضان مثلاً ، وهو شهر للعبادة نصوم يومه ، ونقوم ليله ، وينبغي أن نكرمه ، ونحتفظ فيه بالوقار والروحانية ، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان اللهو الذي يتنافى والصيام ، فإنْ سألتهم قالوا : الناس مختلفو الأمزجة ، وواجبنا أن نوفر لهم أمزجتهم ، لكن للمؤمن ولاية على نفسه

وهو يملك زمامها ، فلا داعي أن تتهم أحداً ما دام الأمر في يدك ، وعليك أن تنفذ الولاية التي ولاك الله ، فإنْ فعلتَ ففي يدك خمسة وتسعون بالمائة من حركة الحياة ، ولغيرك الخمسة الباقية .

ثم إن ما يحلّ من الغناء مشروط بوقت لا يكون سمة عامة ولا عادة مُلِحّة على الإنسان يجعلها ديدنه؛ لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « روِّحوا القَلوب ساعة بعد ساعة » .

وهؤلاء المغنون والمغنيات الذين يُدخِلون في الغناء ما ليس منه من الحركات والرقصات لا يدرون أنهم يَثيرون الغرائز ، ويستعدون على الشباب غير القادر على الزواج ، ويلبهون مشاعر الناس ويثيرون الغيرة .

. الخ

إذن : القضية واضحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم الغناء أو الموسيقى ، فكل ما يثير الغرائز ، ويُخرجك عن سَمْت الاعتدال والوقار فهو باطل وحرام ، سواء أكان نصاً بلا لحن ، أو لحناً بدون أداء ، أو أداء مصحوباً بما لا دخلَ له بالغناء .

لكن ، لماذا يكلفون أنفسهم ويشترون لهو الحديث؟

العلة كما قال الحق سبحانه : { لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله } [لقمان : 6] وفرْق بين مَنْ يشتري اللهو لنفسه يتسلى به ، ويقصر ضلاله على نفسه وبين مَنْ يقصد أن يَضِلَّ ويُضل غيره؛ لذلك فعليه تبعة الضَّلالَيْن : ضلالة في نفسه ، وإضلاله لغيره .

وقوله : { لَهْوَ الحديث } [لقمان : 6] لا يقتصر على الغناء والكلام ، إنما يشمل الفعل أيضاً ، وربما كان الفعل أغلب .

وقوله تعالى : { بِغَيْرِ عِلْمٍ } [لقمان : 6] يدل على عدم معرفتهم حتى بأصول التجارة في البيع والشراء ، فالتاجر الحق هو الذي يشتري السلعة ، بحيث يكون نفعها أكثر من ثمنها ، أما هؤلاء فيشترون الضلال؛ لذلك يقول الحق عنهم : { فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ } [البقرة : 16]

والسبيل : هو الطريق الموصل إلى الخير من أقصر طريق ، وهو الصراط المستقيم الذي قال الله تعالى عنه { اهدنا الصراط المستقيم } [الفاتحة : 6] لذلك نقول في علم الهندسة : المستقيم هو أقصر بُعد بين نقطتين .

وقوله : { وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً } [لقمان : 6] أي : السبيل؛ لأن السبيلِ تُذكَّر وتؤنث ، تُذكَّرِ باعتبار الطريق ، كقوله تعالى : { وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً } [الأعراف : 146]

وتُؤنَّث على اعتبار الشِّرْعة ، كقوله تعالى : { قُلْ هذه سبيلي أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ } [يوسف : 108]

هؤلاء الذين يشترون الضلال لإضلال الناس لا يكتفون بذلك ، إنما يسخرون من أهل الصلاح

، ويهزأون من أصحاب الطريق المستقيم والنهج القويم ، ويُسفِّهون رأيهم وأفعالهم .
ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا كله : { أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } [لقمان : 6] أولئك : أي الذين سبق الحديث عنهم ، وهم أهل الضلال { لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } [لقمان : 6] ووصْف العذاب هنا بالمهانة دليل على أن من العذاب ما ليس مُهيناً ، بل ربما كان تكريماً لمن وقع عليه كالرجل الذي يضرب ولده ليُعلِّمه ويُربِّيه ، فهو يضربه لا ليعذبه ويؤلمه ويهينه ، إنما لكي لا يعود إلى الخطأ مرة أخرى . على حَدِّ قول الشاعر :

فَقَسَا لِيزْدجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً ... فَلْيقسُ أحْيَاناً على مَنْ يَرْحَم

إذن : فمن العذاب ما هو تذكير وتطهير أو ترضية وتكريم لمستقبل ، وإنما سُمِّي عذاباً تجاوزاً ، فهو في هذه الحالة لا يُعَدُّ عذاباً .
وفي هذا المعنى قال الزمخشري رضي الله عنه : الملك يكون عنده الخادم ، فيفعل ما لا يُرضي سيده ، فيأمر صاحب الشرطة أنْ يأخذه ويعذبه جزاء ما فعل ، فيأخذه الشرطي ويُعذِّبه بقدر لا يتعداه ، لأنه يعلم أنه سيعود مرة أخرى إلى خدمة السيد ، فالعذاب في هذه الحالة يكون بقدر ما فعل الخادم ليس مهنياً له . لكن إنْ قال له : خُذْ هذا الخادم واقْصِه عن الخدمة أو افصله ، يعني : ليست له عودة فلا شكَّ أن العذاب سيكون مهنياً وأليماً .
فالعذاب إنْ سمَّيناه عذاباً يكون إكراماً لمن تحب وتريد أن تطهره ، أما العذاب المهين فهو لمن لا أمل في عودته ، والإهانة تقتضي الأبدية والخلود .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ . . . } .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7)

قوله تعالى : { وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً . . . } [لقمان : 7] بعد قوله : { وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله } [لقمان : 6] يدلنا على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تبليغ أمر دعوته ، حتى لمن يعلم عنه أنه ضَلَّ في نفسه ، بل ويريد أنْ يُضل غيره .
ومعنى { ولى } [لقمان : 7] يعني : أعرض وأعطانا (عرض أكتافه) كما نقول : وتولى وهو مستكبر { ولى مُسْتَكْبِراً } [لقمان : 7] أي : تكبَّر على ما يُدْعى إليه ، أنت دُعيت إلى حق فاستكبرت ، ولو كنت مستكبراً في ذاتك لما لجأت إلى باطل لتشتريه ، إذن : فكيف تستكبر عن قبول الحق وأنت محتاج حتى إلى الباطل؟
ولماذا تتكبَّر وليس عندك مُقوِّمات الكِبْر؟ ومعلوم أنك تستكبر عن قبول الشيء إنْ كان عندك مثله ، فكيف وأنت لا تملك لا مثله ولا أقل منه؟

إذن : فاستكبارك في غير محله ، والمستكبر دائماً إنسان في غفلة عن الله؛ لأنه نظر إلى نفسه بالنسبة للناس – وربما كان لديه من المقومات ما يستكبر به على الناس – لكنه غفل عن الله ، ولو استحضر جلال ربه وكبرياءه سبحانه لاستحى أنْ يتكبَّر ، فالكبرياء صفة العظمة وصفة الجلال التي لا تنبغي إلا لله تعالى ، فكبرياؤه سبحانه شرف لنا وحماية تمنعنا أن نكون عبيداً لغيره سبحانه .

لذلك نسمع في الأمثال العامية (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) فإنْ كان لي كبير خافني الناس واحتميتُ به ، كذلك المؤمن يحتمي بكبرياء ربه؛ لأن كبرياء الله على الجميع والكل أمامه سواسية ، لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه أمام الحق سبحانه .

إذن : فكبرياؤه تعالى لصالحنا نحن .

وهذا المستكبر استكبر عن سماع الآيات {كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً } [لقمان : 7] أي : ثِقَل وصَمَم { فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [لقمان : 7] ونحن نعلم أن البشارة لا تكون إلا في الخير ، فهي الإخبار بأمر سارٍّ لم يأْت زمنه ، كما تبشر ولدك بالنجاح قبل أنْ تظهر النتيجة .

أما البشارة بالعذاب فعلى سبيل التهكّم بهم والسخرية منهم ، كما تتهكم من التلميذ المهمل فتقول له : أبشرك رسبت هذا العام . واستخدام البُشرى في العذاب كأنك تنقله فجأة من الانبساط إلى الانقباض ، وفي هذا إيلام للنفس قبل أن تُقاسي ألم العذاب ، فالتلميذ الذي تقول له : أُبشِّرك يستبشر الخير بالبشرى ، ويظن أنه نجح لكن يُفَاجأ بالحقيقة التي تؤلمه .

والشاعر يُصوِّر لنا هذه الصدمة الشعورية بقوله :

كَما أبرقَتْ يَوْماً عِطَاشَاً غَمامَةٌ ... فَلمّا رأوْهَا أقْشَعَتْ وتجلَّتِ

ويقول آخر :

فَأصْبحتُ من ليلى الغَداةَ كقَابِضٍ ... علَى الماء خَانتْه فُروجُ الأصَابِع

لذلك يقولون : ليس أشرّ على النفس من الابتداء المطمع يأتي بعده الانتهاء الموئس ، وسبق أن مثلنا لذلك بالسجين الذي بلغ به العطش منتهاه ، ورجا السجان ، إلى أنْ جاء له بكوب من الماء ، ففرح واستبشر ، وظن أن سبحانه رجل طيب أصيل فلما رفع الكوب إلى فيه ضربه السجان من يده فأراقه على الأرض .

ولا شكَّ أن هذا آلم وأشدّ على نفس السجين ، ولو رفض السجان أنْ يأتي له بالماء من البداية لكان أخفّ ألماً . وهذا الفعل يسمونه « يأس بعد إطماع » فقد ابتدأ معه بداية مُطمِعة ، وانتهى به إلى نهاية موئسة ، نعوذ بالله من القبض بعد البسط .

ثم يذكر الحق سبحانه عقوبة الإضلال عن سبيل الله والتولّي والاستكبار { فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }

[لقمان : 7] فعذابهم مرة (مهين) ومرة (أليم) .
ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ . . . } .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8)

وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات في مقابل الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ، وهذه سِمَة من سمات الأسلوب القرآني؛ لأن ذكر الشيء مع مقابله يُوضِّح المعنى ويعطيه حُسْناً ، كما في قوله تعالى : { إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار : 13-14]
فالجمع بين المتقابلات يُفرح المؤمن بالنعيم ، ثم يفرحه بأنْ يجد أعداءه من الكفار الذين غاظوه واضطهدوه وعذَّبوه يجدهم في النار .
وقلنا : إن الحق – سبحانه وتعالى – حينما يتكلم عن الإيمان يردفه بالعمل الصالح { إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات } [لقمان : 8] لأن الإيمان أن تعلم قضايا غيبية فتُصدِّق بها ، لكن ما قيمة هذا الإيمان إذا لم تنفذ مطلوبه؟
وكذلك في سورة العصر : { والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . } [العصر : 1-3] ففائدة الإيمان العمل بمقتضاه ، وإلا فما جدوى أن تؤمن بأشياء كثيرة ، لكن لا تُوظف ما تؤمن به ، ولا تترجمه إلى عمل وواقع؛ لذلك إنْ اكتفيتَ بالإيمان ككلمة تقال دون عمل ، فقد جعلت الإيمانَ حجة عليك لا حجةً لك .
ومعنى { وَعَمِلُواْ الصالحات } [لقمان : 8] أي : الصالح ، والحق سبحانه خلق الكون على هيئة الصلاح ، فالشيء الصالح عليك أنْ تزيد من صلاحه ، فإنْ لم تقدر فلا أقلَّ من أنْ تدعَ الصالح على صلاحه فلا تفسده .
ثم يذكر سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح { لَهُمْ جَنَّاتُ النعيم } [لقمان : 8] فهي جنات لا جنة واحدة ، ثم هي جنات النعيم أي : المقيم الذي لا تفوته ولا يفوتك .
ثم يقول الحق سبحانه : { خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ الله حَقّاً . . . } .

خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

حين نتأمل هذه الآيات نلمس رحمة الله بعباده حتى الكافر منهم الذي ضلَّ وأضلَّ ، ومع ذلك فالله رحيم به حتى في تناول عذابهم ، ألا ترى أن الله تعالى قال في عذابهم أنه مهين ، وأنه أليم ، لكن لم يذكر معه خلوداً كما ذكر هنا الخلود لنعيم الجنات ، كما أن العذاب جاء بصيغة المفرد ، أما الجنة فجاءت بصيغة الجمع ، ثم أخبر عنها أنها { وَعْدَ الله حَقّاً } [لقمان : 9]

والوعد يستخدم دائماً لِعَدةٍ بخير يأتيك ، وقلنا : إن العبد يِعد وقد لا يفي بوعده؛ لأنه لا يملك كل مُقوِّمات الوفاء ، أما الوعد إنْ كان من الله فهو محقق لأنه سبحانه يملك كل أسباب الوفاء ، ولا يمنعه أحد عن تحقيق ما أراد؛ لأنه سبحانه يملك كل أسباب الوفاء ، ولا يمنعه أحد عن تحقيق ما أراد؛ لأنه سبحانه ليس له شريك ، كالرجل الذي أراد أنْ يذم آخر فقال له : الدليل على أن الله ليس له شريك أنه خلقك ، فلو كان له شريك لقال له : لا داعي لأنْ تخلق هذا .

لذلك يعلمنا الحق – سبحانه وتعالى – أنْ نردف وَعْدنا بقولنا : إن شاء الله حتى نكون منصفين لأنفسنا من الناس ، ولا نُتهم بالكذب إذا لم نَفِ ، وعندها لي أن أقول : أردت ولكن الله لم يُرِد ، فجعلت المسألة في ساحة ربك عز وجل .

وبهذه المشيئة رحم الله الناس من ألسنة الناس ، فإذا كلفتني بشيء فلم أقضه لك فاعلم أن له قدراً عند الله لم يأتِ وقته بعد ، واعلم أن الأمر لا يُقْضي في الأرض حتى يُقْضي في السماء ، فلا تغضب ولا تتحامل على الناس ، فالأمور ليست بإرادة الناس ، وإنما بإرادة الله .

لذلك حين تتوسط لأخيك في قضاء مصلحة وتُقْضي على يديك ، المؤمن الحق الذي يؤمن بقدر الله يتأدب مع الله فيقول : قُضِيْتْ معي لا بي ، يعني : شاء الله أنْ يقضيها فأكرمني أن أتكلم فيها وقت مشيئته تعالى ، كذلك يقول الطبيب المؤمن : جاء الشفاء عندي لا بي .

ولو فهم الناس معنى قدر الله لاستراحوا ، فحين ترى المجدّ العامل يُقْصي ويُبعد ، وحين ترى الخامل والمنافق يُقرّب ويعتلي أرفع المناصب فلا تغضب ، وإذا لم تحترمه لذاته فاحترم قدر الله فيه .

فالمسائل لا تجري في كَوْن الله بحركة (ميكانيكية) ، إنما بقدر الله الذي يرفع مَنْ يشاء ويضع مَنْ يشاء ، وله سبحانه الحكمة البالغة في هذه وتلك ، وإلا لقلنا كما يقول الفلاسفة : إن الله تعالى خلق القضايا الكونية ثم تركها للناس يُسيِّرونها .

والحق سبحانه ما ترك هذه القضايا ، بدليل قوله تعالى : { يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً }

[الشورى : 49–50] .

فبعد هذه الآية لا يقل أحد : إن فلاناً لا ينجب أو فلانه لا تنجب؛ لأن هذه مرادات عليا لله تعالى ، ولو أن العقيم احترم قَدَر الله في العقم لجعل الله كل مَنْ يراهم من الأولاد أولاده ، وما دام الله تعالى قال { يَهَبُ } [الشورى : 49] فالمسألة في كل حالاتها هبة من الله تعالى لا دَخْلَ لأحد في الذكورة أو الأنوثة أو العقم . فلماذا – إذن – قبلتَ هبة الله في الذكور ، ولم تقبل هبة الله في العقم؟

وسبق أن تحدثنا عن وَأْد البنات قبل الإسلام؛ لأن البنت كانت لا تركب الخيل ، ولا تدافع عن

قومها ، ولا تحمل السلاح . . إلخ ، فلما جاء الإسلام حرم ذلك وكرَّم المرأة ، وأعلى من شأنها ، لكن ما زالت المفاضلة قائمة بين الولد والبنت .

والآن احتدم صراع مفتعل بين أنصار الرجل وأنصار المرأة ، والإسلام بريء من هذا الصراع؛ لأن الرجل والمرأة في الإسلام متكاملان لا متضادان ، وعجيب أنْ نرى من النساء مَنْ تتعصب ضد الرجال وهي تُجَنّ إنْ لم تنجب الولد ، وهذه شهادة منهن بأفضليته .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يعلمنا أن مَنْ يحترم قدره في إنجاب البنات يقول الله له : لقد احترمتَ قدري فسوف أعطيك على قدرْي ، فيعطيه الله البنين ، أو يُيسِّر لبناته أزواجاً يكونون أبرَّ به من أولاده وأطوع .

ثم ألاَ ترى أن الله تعالى قدم البنات ، في الهبة ، فقال : { يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور } [الشورى : 49] لماذا؟ لأنه سبحانه يعلم محبة الناس للذكور : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يتوارى مِنَ القوم مِن سواء مَا بُشِّرَ بِهِ } [النحل : 58–59] .

وقوله تعالى : { وَهُوَ العزيز الحكيم } [لقمان : 9] العزيز الذي لا يغلب ، ولا يستشير أحداً فيما يفعل { الحكيم } [لقمان : 9] أي : حين يعِد ، وحين يفي بالوعد .

ثم تنتقل الآيات إلى دليل من أدلة الإيمان الفطري بوجود الإله : { خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ . . } .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)

أولاً : ذكر الحق سبحانه آية كونية لم يدَّعها أحد لنفسه من الكفار أو من الملاحدة ، وهي آية موجودة ومُشَاهدة ، وبعد أن قال سبحانه أنا خالق السماء والأرض لم يعارضه أحد ، ولم يأْتِ مَنْ يعارضه فيقول : بل أنا خالق السماء والأرض .

وسبق أنْ قلنا : إن القضية تسلم لصاحبها ومدعيها إذا لم يَقُمْ لها معارض ، فإن كانت هذه القضية صحيحة ، والحق سبحانه هو الخالق فقد انتهتْ المسألة ، وإذا كان هناك خالق غيره سبحانه فأين هو؟ هل درى أن واحداً آخر أخذ منه الخَلْق ، ولماذا لم يعارض ويدافع عن حقِّه؟ أو أنه لم يَدْرِ بشيء فهو إله (نائم على ودنه) ، وفي كلا الحالين لا يصلح أن يكون إلهاً يُعبد .

لذلك قال تعالى : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ } [آل عمران : 18] ، فهذه شهادة الذات للذات ، ولم يعارضها معارض فصَحَّتْ لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وسبق أن مثَّلنا لذلك – ولله المثل الأعلى – بجماعة جلسوا في مجلس فلما انفضَّ مجلسهم وجد صاحب البيت حافظة نقود لا يعرف صاحبها ، فاتصل بمن كانوا في مجلسه ، وسألهم عنها فلم

يقُلْ واحد منهم أنها له ، إلى أن طرق الباب أحدهم وقال : والله لقد نسيت حافظة نقودي هنا ، فلا شكَّ إذن أنها له وهو صاحبها حيث لم يدَّعها واحد آخر منهم .

والحق سبحانه يقول في إثبات هذه القضية : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42] أي : لذهبوا يبحون عمَّنْ أخذ منهم الخَلْق والناس ، وأخذ منهم الألوهية .

فإنْ قالوا نحن آلهة لكن فوقنا إله أكبر يردُّ الحق عليهم : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51]

وقوله تعالى : { بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } [لقمان : 10] حين تدور في أنحاء الكرة الأرضية من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها تجد السماء تظلّك ، ومع سعة السماء لا تجد لها عمداً ترفعها ، وكلمة { تَرَوْنَهَا } [لقمان : 10] تحمل معنيين : إما هي فعلاً بغير عمد ، أو لها عمد لكن لا نراها { بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } [لقمان : 10] يعني : لا نرى لها عمداً ، لكن الحقيقة أن لها عمداً لا ترونها بإحساسكم ومقاييسكم .

فإنْ قلت ، فما هذه العمد التي لا نراها؟ البعض يقول : هي الجاذبية ، وهذا القول مجانب للصواب ، والحق سبحانه يكفينا مؤنة البحث في هذه المسألة ، فيقول سبحانه : { . . . وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ } [الحج : 65]

إذن : لا نملك إلا أنْ نقول إنها ممسوكة بقدرة الله ، ولكي لا نحار في كيفية ذلك يُقرِّب الله لنا هذه المسألة بمثال مُشاهد لنا ، فالطير يمسكه الله في جو السماء :